[](http://www.alukah.net/)

الفتى

الذي صمد

محمد بهاء الدين محمد عبد الحميد

# الفتى الذى صمد

**هذه القصة فازت فى مسابقة نادى القصة المصرى عام 74/1975 وكان ترتيبها الخامس على عشر روايات أخرى تم إجازة دخولها المسابقة.. وكنت قد دخلت بها قبل ذلك مسابقة النادى عام 71/1972 بإسم " غدا تنطق الأحجار " وكان ترتيبها الرابع.. وكان يرأس النادى وقتها الأديب الكبير المرحوم " يوسف السباعى " وأذكر من أعضاء لجنتى القراءة والتحكيم أدباء وأساتذة كبار هم جميعا فى ذمة الله الآن وهم الأساتذة:**

**د / سهير القلماوى.**

**د/ سمير سرحان.**

**د / سيد حامد النساج.**

**ا / صالح جودت.**

**ا / عباس خضر.**

**ا / حسين القبانى.**

**ا / توفيق حنا.**

**أسأل الله لهم جميعا الرحمة وأن يدخلهم فسيح جناته فقد قدموا جميعا خدمات جليلة لوطنهم وللعروبة.**

**كما أتوسم فى أنفسنا وفى الأجيال الجديدة ألا يحبطوا أبدا فالخير فى رسولنا وفى أمتنا الى يوم القيامة.**

**المؤلف:**

**مهندس زراعى**

**محمد بهاء الدين محمد عبد الحميد.**

# مقدمـة

**ارجو قراءة هذه القصة على اساس انها قصة انسانية ووطنية معا لان قراءتها خارج هذا الاطار سيجردها من كل مقوماته لاسيما ان اعتبرها القارىء قصة وطنية فحسب... فانه انذاك لن يجد فيها ما يرضيه.. وبالتالى سيكون حكمه عليها سيئا... لان القصة الوطنية بالمفهوم الذى شاع ورسخ بالاذهان.. هى القصة الحماسية.. او القصة التى تعالج القضايا الوطنية.. او المواقف التاريخية.. على انها بطولات وصور نضالية فقط.. وصولا الى مؤثرات وجدانية معينة فى نفس القارئ.. ولو على حساب الحقيقة التاريخية او الانسانية.. التى يجوز ان اسميها بالحقيقة الموضوعية.. فأنا فى هذه القصة عمدت الى مخاطبة العقل والوجدان معا.. وصولا الى مؤثرات فكرية ووجدانية اثبت وأبقى... مع ملاحظة أننى لا ازعم بقولى هذ اننى أتيت بشئ جديد.. لعلمى بأن بعض كتابنا الكبار قد انتهج هذا المنهج.. ولم يقلل من قيمة عمله أحد.. ببساطه هكذا لانه كاتب كبير.**

**ثم أننى أعتذر عما قد توحى به كلمتى تلك من محاولة لتوجيه ذهن القارئ وجهة معينة أو التأثير فى رأيه.. فأنا لم أقصد إلا عرض رأيى ككاتب جديد.. الأمر الذى أعتقد أنه من حقى.. فى عهد أصبح الفكر  
 فيه حرا.**

**المؤلف:محمد بهاء الدين يناير 1971**

**فؤجئ " سامح " وهو فتى صغير فى الصف الثامن من مدرسة " يافا " الابتدائية برجل لامع الوجه فارع الطول يعترض طريقة ويمنعه من دخول مدرسته قائلا له فى صوت دمث مهذب:**

**- آسف يا سيدى......!**

**وأربكته المفاجأة ومنظر الرجل المخيف لطفل مثله بساعته الذهبية التى تتلألأ حول معصمه وبزته السوداء والخواتم الثلاثة التى تتحلق أنامله فى غثاثه المغالاة وينافس بريقها الأخاذ ذلك البريق الأكثر رهبة فى عينيه فارتد إلى الوراء مذعورا دهشا يكتسح المرئيات أمامه بنظرة فاحصة متأملة وتساءل " أو تراه أخطأ طريقة فولج مكانا محرما عليه دخوله ؟" لكن السؤال لم يدم أكثر من الوقت الذى استغرقة فى إمتلاك انفاسه المبهورة وفى تلاشى الغمامة التى غشيت عينيه ذهولا.. من إجتراء رجل مهما بلغ به الحول والطول على الحيلولة بينه وبين دخول مدرسته، التى أصبح يقينا الآن أنها هى ببوابتها الحديدية الخضراء وبسياجها الأبيض المرتفع إلى الحد الذى يجد معه التلاميذ الأشقياء – وبالأخص تلاميذ الصف السابع والثامن – صعوبة بالغة فى إعتلائه هربا من ملل الدراسة، أو هربا من أمر آخر لا يدركه، والذى يحيط مبنى المدرسة وفناءها وحديقتها إحاطة تامة. إلا فى هذا الجزء الذى تحتله البوابة. تلك التى يقف امامها هذا الرجل الغريب المحتل الذى حار فى تبيان شخصيته حيرة شديدة.. " ترى من هو ؟ ". أهو المدير الجديد يطبق أحدث أساليب التربية الحديثة..؟! أم هو.. هو ماذا ؟. من المستحيل أن يكون مدرسا. فالمدرسون وإن كان فيهم المسلمون والمسحيون والدروز واليهود. إلا أنهم لا يمنعون التلاميذ من دخول المدرسة... وأكثر إستحالة ان يكون.. يكون ماذا... ؟ البواب.. إن البواب رجل عجوز وأنا أعرفه حق المعرفة. وهو يعطف على لاننى فقير مثلة.. ولأن أبى مات فى المعتقل.. اما هذا... آه... أيكون أحد رجال البوليس السرى المرافق للشخصيات البارزه.. وإن كان فمن أمره أن يرافق البوابة ؟! ربما يكون هناك ثمة شخص هام.. وزير المعارف والثقافة مثلا. قادم لزيارة المدرسة.. وهل هذا يمنع إدخالى.. إن الوزير حين يزور مدرسة من مدارس الاقليات يفعل ذلك ليلتقى بهيئة التدريس والتلاميذ على سبيل الـ... ال. ماذا... ؟.. آه... إن اكثر الوزراء تطرفا يفعل هذا ويحرص عليه بقلبة وكيانه.. إذن ماذا... ؟.. يا الهى لا يمكن ان يكون صحيحا ان هذا الرجل يمنعى من دخول مدرستى! " هكذا كان يحدث نفسه قبل ان يعاود محاولة الدخول راجف الفؤاد متعثر الخطو.. وكان يتوقع فى حالة رفض الرجل دخولة مرة ثانية انه سيعلن ذلك بدفعه او لكزه أو أى شىء آخر من قبيل العنف، إلا أنه أذهله ثانية بلطفة المفتعل وبترفقه فى الطريقة التى يعامله بها كأنه احد السادة قائلا له بهدوء يختلط فى صوته لكنه مرح ساخر طفيف:**

**- ألم أقل لك آسف يا سيدى.. أم أنك تشك فى وجود سيد آخر غيرك فى هذا المكان.. ؟!**

**فتقهقر إلى الخلف بضع خطوات، تعروه الدهشة أكثر من الخوف واليأس، ويأخذ بختافة السلوك المهذب الذى يبديه الرجل تجاهه، رغم نحوله ورثاثة ثوبه.. وكل شىء يحتمل إلا سيدى تلك.. إنها كلمة مثيرة للخيال حقا، وتضيف الى الموقف شحنه قوية من اللبس والغموض وسقوط الأمور غير المغهومة فى يديه الصغيرتين!!..**

**إن الرجل يبدو جادا فى عزمة الشاذ.. ولا يخال ابدا انه يمزح معه.. فأى سبب شيطانى يدعوه إلى إعتراض سبيله.. أ أكون قد ارتكبت فى حق العلم والمدرسة جريمة أستحق عليها العقاب.. وكيف يحدث ذلك دون أن أدرى.. ثم أننى أعرف تماما أن المدرسين جميعهم على إختلاف مللهم يشهدون لى بالنبوغ المبكر والخلق القويم.. وبالأمس..بالأمس فقط.. نلت جائزة على تفوقى.. ولا يزال صدى التصفيق لمئات الأيدى التى التهبت إعجابا بى فى الحفل الذى حضره الجميع بما فيهم.. نائب مدير إدارة المعارف والثقافة للعرب ورئيس المجلس البلدى.. إلا أمى بالطبع.. آه.. كالعادة لم تحضر لأنها لم تكن تملك كالعادة الثوب المناسب.. لا يزال صدى هذا التصقيف المبهج يرن فى أذنى.. وأنا نفسى أشعر ان فى اعماقى قوة كامنة للعلم.. ولولاها ما شعرت قط بمثل تلك الثقة التى تلهمنى ذاتى.. حين امثل المدرسة فى المسابقات العلمية التى تدخل فيها مع المدارس الأخرى.. متحديا ببنيتى الضعيفة وثوبى الباهت يكاد يتفتق.. أوائل طلبة هذه المدارس الأقوياء البنية الذين يرفلون فى الأثواب الجديدة الأنيقة.. وكل هذا الكلام طيب.. إلا أنه.. طيب.. ماذا يريد هذا الرجل منى بالضبط ؟.. إستغرقه هذا السؤال طويلا وهو يقدح ذهنه باحثا عن دليل واحد يقنعه بأن تلك المعاملة نوع من العقاب له، وإستبعد أن يكون هناك خطأ ما. كتشابه الأسماء. أو تماثل الأشباه فلا يوجد تلميذ واحد يماثله ذكاء ورقة حال.. إ.. كما انه فيما بدا له يوقن أن هذا الرجل لم يرأى وجه من وجوه تلاميذ المدرسة قبل هذا الصباح.. حتى يخلط بين تلميذ وآخر يستحق هذا العقاب وبينه، ثم أنه بوجه ما من الوجوه ولسبب باطنى لا يفهمه، يعتقد أن الأمر ليس فيه أدنى خطأ، وانه المقصود فعلا بتلك القسوة..!**

**وخطر فى ذهنة خاطر عجيب، لما لم يجد تفسيرا واحدا يبدد له سحائب الغموض وحين إمتلأ نور عينية الخابى بأنوار الساعة الذهبية البراقة، انه ربما يكون الوقت قد خانه لعدم وجود ساعة معه، وانه ربما يكون قد تأخر عن الميعاد وانهم وضعوا هذا الرجل فى ذاك المكان ليقول له " آسف يا سيدى " وحين يسائله السبب سيجيبه بأنه تأخر وانه ينصحه لكيلا يتكرر هذا التأخير بأن يشترى ساعة " س!! ".. اجل فهكذا تلح الاعلانات التى يسمعها – على البعد – فى راديو الجيران.. إ.. وربما يكون هذا هو التفسير الوحيد لأناقة هذا الرجل ولما يعنيه العمل الذى أنيط به، فهو مندوب متجول لشركة " س " لا ريب..!.. وتساءل " كيف تسمح له المدرسة بذلك ؟ " ثم كاد أن يصدق تلك الأكذوبة المريحة التى أختلقها له خياله الخصب.. لولا انه – لدهشته – لاحظ ان التلاميذ مازالوا يتوافدون على المدرسة، وان الرجل أهم من ذلك لا يفكر – مجرد تفكير – فى إعتراض طريق أحد منهم.. وآلمه هذا الاكتشاف المريع ألما شديدا.. فقد صار يقينا لديه أنه لا أحد غيره المقصود بتلك المعاملة، واكتظ الغيظ فى قلبة وأوشك أن يصرخ فى وجه الرجل.. بيد أن ملامح هذه اللينه تكفلت بتهدئته فتشجع قليلا وأردف فى قوة من يدافع عن حقة:**

**- سيدى.. هل حقا هذا.. انى لا أكاد ان أصدق..!**

**- أنت ممنوع من دخول المدرسة هذا اليوم يا بنى..!**

**صاح مشدوها:**

**- لماذا.. ؟**

**فأجابة الرجل بهدوئة المثير للغيظ وهو يمط شفتيه فى لامبالاه وينظر إلى ساعته وخواتمه فى مباهاه:**

**- معذره.. ليس مسموحا لى أن أقول لك أكثر مما قلت..!**

**هتف محتدا:**

**- وهل قلت شيئا.. ؟**

**فقال مبتسما وترتسم فى عينيه نظره إشفاق غريبة:**

**- تأكد أننى قلت لك أكثر مما يجب..!**

**صرخ متسائلا:**

**- كيف.. ؟**

**ثم سكت ليفسح له فرصه يتكلم فيها، إلا أن الرجل أدار له ظهره ووضع يديه فى وضع متشابك خلف ظهره كأنما يقول له بتلك الحركة " إنتهينا.. أنصرف..! " فاستشاط غضبا ولم يطق صبرا وعن له أن يقتحم البوابة حتف أنفه المتعاظم وليكن ما يكون غير أنه بعد الذى سمعه إستعرفه اللغز وأصبح جل إهتمامه منصبا على شخصية الرجل من يكون ؟ وإلى أى تنظيم ينتمى، ثم لماذا هذا الإعتداء على فتى هين الشأن مثله إن الموقف لا يبدو منطقيا على الاطلاق وليس على وجه الارض عقل واحد يقبل حرمان تلميذ فقير من دخول مدرسته دون أبداء الأسباب حتى..!.. فماذا يفعل ؟ أيصرخ مستنجدا بزملائه ومدرسية من طغيان هذا الغريب الذى لا يدرى له مله..!.. سيكون مفرطا فى حق نفسه إن لم يصرخ وسؤذى شعور هذا الرجل الرقيق الحاشية الذى عامله برفق حتى الآن إن صرخ.. وسيفقده الى الأبد..!.. لكن ما باله يحرص على شعوره ويخشى أن يفقدة ؟.. إن هذا لأمر غريب.. ففى الرجل سر ما.. أجل لابد انه ينطوى على سر هائل حتى يفكر على هذا النحو نحو شعوره.. آه لو أنه قال له فقط من يكون ؟.. لا فائدة من تكرار سؤاله فهو على حد قوله " غير مسموح له بأن يفصح أكثر مما أفصح له وهو أكثر مما يجب " وماذا قال ؟.. أيمكن هذا.. أن ينطوى هذا الرجل على كل هذا الغموض.. وأن يستسلم لغموضه هو أن هذا يصبح أمرا غير معقول، ولابد له من أن يدخل مدرسته قبل أن يدق الجرس وتفلت الفرصة.. ثم إن الرجل يبدو متشاغلا عنه بتأمل تلميذين صغيرين يتعاركان بطريقة مضحكة تبدو فيها الأسنان أكثر همه ونشاطا من أى عضو آخر وأنه إن لم يتحين تلك الفرصة السانحة فلن تؤاتيه فرصة أفضل منها.. ولم يضع وقته فى التردد إذ سارع بالاندفاع داخلا كالقذيفة.. لكن كان الرجل يقظا على غير ما أحتسب فعاجله قبل أن يعبر البوابة بإمساكه من كتفية، صرخ مستغيثا صرخة كاد أن ينشق لها بدنه الرهيف، وفى أنين مبعثه الخوف من أن يتمزق ثوبة اليتيم المتفكك الانسجة اكثر – قليلا – من الخوف على حرمانه من الدراسة، بيند انه لحظة المنكود علا عويل الجرس فى تلك اللحظة منذرا التلاميذ بالتجمع لدخول الفصول فلم يسمح صراخه أحد.. ولا هو نفسه، ثم بسرعة رهيبة أغلقت البوابة دونهما، ووجد " سامح " نفسه خارج أسوار المدرسة وحيدا فى قبضة الرجل الغريب الذى ما إن إطمأن إلى انه لن يسمح له بالدخول بعد الميعاد حتى أولاه ظهره وانصرف تاركا إياه ينعى يوما ضاع من حياته متباكيا فى صمت برهة أسرع بعدها فى الابتعاد عن المكان قبل أن يطل عليه البواب العجوز ويراه فيظن أنه جاء بعدالميعاد،وقد كان هذا شيئا تعافه نفسه ذلك أن العجوز يعرفه خير المعرفة وهو يعطف عليه لأنه فقير مثله ولأن أباه مات فى المعتقل.**

**- 2 -**

# إلى أين يذهب ؟

**راح هذا السؤال المعقد يصول فى ذهنه وهو يضرب الأحجار الصغيرة فى رفق إضطرارى ولطف مغيظ خوفا من أن يتفتت حذاؤه العتيد الأوحد، لاهيا عما حوله، يبتعد بحزن كظيم عن أسوار مدرسته الحبيبة ويدعو الارض ان تبتلعه بهذا اللحن المرتجل الذى طفق يدمدم به من بين شفتين مطبقتين دون أن يشعر والذى لو صيغت نغماته الحيرى صياغة فنية سليمة، لعبر بصدق مأساوى عن الآم البشرية كلها وهى تفقد رجلا عزيزا أو تودع الى غير رجعة معنى كبيرا من معانى السلام.**

**وشأن الصمت الصبور الذى يعقب ذلك وقتا قد يطول أو يقصر إحتبس الصوت الخافت فى حلقة وغارت نغمات المرح البائس فى جب الاعماق الغائر لما راغ السوال ؟ إلى أين يذهب ؟ " فى رأسه الصغيرة ثانية.**

**فكر أولا فى أن يؤوب لبيته بأسرع ما يستطيع ويخبر أمه بما حدث باحثا فى ثنايا صدرها الحانى عن حل يفكك له العقد التى عقد بها الرجل الغريب سبيلة فتسارعت لذلك خطواته لهفة ثم تباطأت بغته لما تذكر أنه لن يجد والدته فى البيت الآن، فهذا هو وقت العمل الذى تختلف فيه الى بعض البيوت الموسرة لأداء خدماتها الصغيرة إلتقاطا لقوته وقوتها، ذلك الذى تحصل عليه بإلتهاب الأيدى، فتقهقرت الفكرة الى ركن وتقدمت حوافر السؤال تدق بسنانها رأسه مرة اخرى.**

**وفكر ثانيا – وما أسرع ما كان يفكر – فى ان ينقلب الى حيث مدرسته ويطالب البواب العجوز بأن يسمح له – بحق الصداقة – بالدخول، وهو يدرك أنه لن يمانع إلا أنه سيحتفظ بحق الصداقة هذا لنفسه ويضرب فى أسراره الخاصة متسائلا عما أخره فى المجىء.. هل قامت قائمة القيامة ؟! بل أنى لأى عاقل أن يصدقنى.. أخبره فينتشر الخبر ويظن الجميع الظنون ويتقول على زملائى ساخرين من ضعف حيلتى ويتفكهون بى قائلين مثلا: الفتى يكذب تبريرا لذنبه " أو " الفتى النابه بدأ يحلم أحلاما مروعة.. الدعى يبغى أن نصدق أحلامه والواقع ان مسأله الحلم تلك أصبحت تروق له، وانبثقت فيه كل الدوافع الكافية لإقناعه بها وتساءل: لم لا يكون حلما ما حدث ؟.. إن شخصية الرجل بأنواره المبهمة! وألوانه القاتمة وكلماته المغتصبة وجرمه الفحل تبدو كأنها إحدى شخصيات الحلام المزعجة.. ثم صوته المهذب قائلا: آسف.. يا الهى يبدو كصوت كابوس!.. وبعد أأصير الى تلك الحال.. أفكر فى ضعف.. لم لا أنسى ما حدث برمته.. وأعتبر ضياع هذا اليوم أجازة منحتها لنفسى..! "**

**- سامح..!**

**من.. من.. يخيل اليه ان صوتا يناديه....**

**- سامح..!**

**من.. ؟... آه..!... توقف عن السير والتفت الى الوراء وهتف بصوت مستجير:**

**- عارف يا صديقى..!**

**ودنا منه صديقه عارف مبادرا إياه بسؤاله مشدوها:**

**- لا أصدق عينى.. أنت فى هذا الوقت بالذات وبتلك الأفكار الشادرة فى رأسك.. وفى هذا المكان و..؟**

**- ومع ذلك انا يا عارف يا صديقى.. يا من نلت جائزة التفوق فى العام الماضى..!**

**- وهل.. ؟**

**نطقها وهو يؤمى برأسه ويغمز بعينية بطريقة ذات مغزى فأسرع سامح يدافع عن نفسه كمن يذود عن شرفه نعتا كريها قائلا وعيناه تدمعان كمدا واحتقانا:**

**- كلا يا عارف.. أنت تعلم أننى لست من هؤلاء..!**

**- حتما لست منهم..**

**قالها الصديق وهو يطأطىء رأسه أسفا ليدارى الخجل الذى تعلق بأهداب عينية فساد الصمت برهة قطعه سامح بقوله:**

**- لماذا نقف هكذا.. أنا أنظر الى السماء فى كبرياء.. وأنت تحملق فى الأرض خجلا وتكاد لشدة خجلك أن تسقط عينيك أرضا.. هيا يا رفيقى.. يا فارس السنة الماضية.. دعنا نسير.. لكن قل لى أولا..**

**ثم سكت لحظة يفكر وأضاف:**

**- ولا أقول لك.. نتحدث فى الطريق أحسن..!**

**تجاورا فى صمت وتسايرا كتفا بكتف، فساقتهما أرجلهما صدفة الى الحديقة العامة بالمدينة.. أو بمعنى أدق إحدى الحدائق العامة.. فدخلاها.. لم يقصدا أن يجيلا النظر فيها كمن يبحث عن شىء بعينه لحظة دخولهما، ومع ذلك لاحظا أنها خالية إلا من بعض العجائز الذين يعتمدون بدقون رخوه جافة فوق أيد معروقة شاحبة تقبض فى تراخ على العكاز آخر رفقاء العمر وأعينهم تحدق فى لا منظور الذكريات.. ثم غير العشب والأشجار.. لم يكن لأحد وجود يرى.. غير الفراغ غير المرئى.. ولم يكن لصوت العصافير وجود يسمع.. غير صوت السكون اللا مسموع!..**

**ثم بغته دبت الحركة فى موات النظرة الثابته التى ركزها العجائز على منظور الماضى فارتجفت أجفان اليقظة وتصاعدت أنفاسهم طويلة متراخية، واهتز الفراغ حول أجسادهم المتداعية.. وتمزق إملود الصمت إذ قال رجل عجوز يجالس إمرأه تقاربه فى السن بصوت بدا رغم إنخفاضة عاليا يصدح فى خواء المكان:**

**- هو أمر لا غرابة فيه.. شىء طبيعى بالنسبة لهم.. ومع ذلك كان الوادى يسمى بالأمس وادى   
بيسان..**

**ولم يفصح العجوز بأكثر من هذا إقتصادا فى الكلام، ولوحدة الموضوع الذى يشترك فى التفكير فيه مع رفيقة عمره التى إنحدرت دمعتان على وجنتيها المتجعدتين وتمتمت:**

**- وكنا وحيدين تماما.. ابن فى الجيش بعيد.. والآخر فى بيارات البرتقال..**

**وأمن الرجل على قولها فى سماحة وعطف بإيماءة من رأسه ثم قال فى طرب حزين وهو يغمض عينيه نصف إغماضة:**

**- ثم بعدئذ.. آه.. لكم قلبوا الأشياء رأسا على عقب..!**

**ثم زفر زفرة حارة وأطرق برأسه وصمت.. وفعلت المراة مثلة وصمتت.. وفى نفس اللحظة وعلى نحو مباغت أطرقت بقية الرءووس وهبط على الجميع سكون وكآبه لاحد لهما وكأنهم على مشارف الموت.. عندئذ كف سامح ورفيقه عن تأمل ما يرونه أمامهما وقال أحدهما بصوته الفتى المرنان، ممزقا الصمت لكن تلك المرة بطريقة أخرى اكثر حده:**

**- لماذ لم.. ؟**

**ولم يكمل سؤاله لا إقتصادا فى الكلام مثلما فعل العجوزان.. وإنما لأن بقية السؤال كانت شيئا مفهوما لهما فأجابه الثانى متسائلا بنفس طريقته:**

**- وأنت.. لماذا لم.. ؟**

**- أسألك لتجيبنى..**

**- وأنا اجيبك متسائلا لتجيبنى..!**

**وانطلق الصبيان فى ضحك متصل حتى ادمعت اعينهما..**

**- حسنا.. قابلنى رجل.**

**- وأنا.. حسنا.. قابلنى فى العام الماضى رجل..!**

**صاح الأول متحمسا:**

**- فى حلة سوداء، وقال لك: آسف يا سيدى..!**

**فغمغم الثانى مجفلا:**

**- أجل والله..!**

**ونظرالآخر إليه فى شك ثم سأله بنفس الحرارة:**

**- وأربكتك المفاجاة.. ثم لما لم تجد مبررا واحدا يقنعك ظننت أنه مندوب متجول لشركة إيه..**

**إيه..؟!**

**واستدارت عينا عارف لما يقول سامح دهشه وحيرة.. ثم لم يجد كلمة مناسبة يعبر بها عن اتفاق ما حدث لهما وتوافق شعورهما تجاه ما حدث غير التنهد والإعتكاف بالصمت مصدقا على ما قال، وكان اثر هذا مريعا على كيان سامح فأسرع بالفرار من المكان موليا الأدبار لصديقة الذى إنتبه من صمته فلم يجده.. وأجال البصر حوله فى شداه.. كمن يبحث عن شىء بعينه ومع ذلك لاحظ أن الحديقة لم تزل خالية إلا من بعض العجائز الذين عادوا إلى أحلامهم الزرقاء، يحدقون بأعين زائفة.. مجهدة.. فى لا منظور الذكريات ثم غير العشب والأشجار.. لم يكن لأحد وجود يرى.. غير الفراغ غير المرئى.. ولم يكن لصوت غير صوت العصافير وجود يسمع.. غير صوت السكون اللا مسموع..!**

**- 3 -**

**ما كاد سامح يبارح أسوار الحديقة حتى أدرك كم اخطأ إذ كاشف صديقة بسر الرجل الغريب دونما ترو أو تفكير، فمن أدراه أن ما وقع له أمام البوابة هو عين الذى وقع لهذا الرفيق حتى يصارحه تلك المصارحة الغبية، ويعطيه بلا مقابل ذريعة سهلة يعلل بها روغانه الذى أشتهر به فجأة بعد أن أعطوه جائزة التفوق السنة الماضية مباشرة حتى أصبح رائدا لا يضارع فى سباق " الزوغان " من الدراسة كما كان من قبل ذلك الرائد بلا منافس فى إرتياد أجواء العلم العليا، وكيف أنه ينبغى لهذا أن يعود أدراجه إليه وينفى ما أسره فى أذنيه نفيا قاطعا " فهو فتى لا يعرف الكتمان علاوة على اننى اخشى إضرارة بهذا العذر الذى سيتيح له الظهور امام الجميع بمظهر الضحية تبريرا لانحداد مستواة، فانه يداخلنى شعور بانه قد يكون حلما من أحلام اليقظة ما حدث لى.. نعم قد يكون حلما فأنا تلميذ فقير وأجهد نفسى جدا فى الإستذكار وما أكثر أحلام الفقراء خصوصا إذا كانوا يستهلكون قواهم فى العمل ولا يجدون تعويضا! الافضل اذن ان اعود اليه واغسل مخة غسلا مما علق به من اقوالى.. سأبرر له الأمر باننى خجلت من أن أظهر امامه بمظهر التلميذ البليد الهارب من مدرسته فأختلقت تلك الاكذوبة التى لا يمكن ان تقنع احدا.. والتى يبدو الاعتراف بالذنب منها أجمل! "**

**- سامح.. سامح..**

**- آه... أهذا أنت.. كنت سأعود اليك لطيتى!.. أتذكر يا زميلى العزيز ما قلته لك.**

**- دعنى أسألك اولا.. لماذا تركتنى فى الحديقة وحدى. لقد تقطعت انفاسى وأنا اجرى باحثا عنك..**

**استجمع سامح أفكاره ووجد الفرصة مهيأة لعملية غسيل المخ التى أزمعها فأسرع بإغتصاب إبتسامة من هذا النوع الذى يوهم الثقة قائلا:**

**- آه.. هذا بالضبط ما أردت العودة اليك للحديث فيه.. لقد كذبت يا صديقى كذبة فاحشة وأنى على ذلك لمن النادمين..!**

**أبتسم عارف بدورة بطريقة لم يسترح لها سامح وغمغم:**

**- آه.. تقصد..**

**وأكمل بقية كلامة بغمزة من عينية تنطوى على معنى هروب سامح من ملل الدراسة وارتجالة أكذوبة مضحكمة تبريرا لسلوكه المشين، ورغم ان تلك الطريقة فى الحديث لم ترض المزاج الدمث الذى جبل عليه سامح.. إلا انه لشدة رغبته فى إيهامة بأنه أذنب واعتذر بقبح / إندفع يصدق على وجهة نظرة بنفس الطريقة التى يسكن فيها اللسان وتتكفل العينان وما حولهما من عطايا الله بالكلام..!.. وربما لم يتقن الدور الذى لم يقم بها قبلا.. مما أضحك رفيقه على نحو ما.. زراية به واستخفافا بضعف حيلته ولكن.. " لتضحك أيها الرفيق ولتسخر منى كيفما شئت.. أنى أسلم لك بعبقريتك التى لا تبارى فى هذا المضمار.. طالما أن هذا ينسيك سرى ويمسح عن ذاكرتك علائق الحقيقة التى لا تمحوها غير أنامل الكذب!.. ".. بتلك الكلمات تحدثت مشاعر سامح الذى إيغالا فى تمعن دور المذنب المعتذر عن عذر أقبح منه الذنب نكس رأسه على صدره وبدا كما لو كان يوشك على البكاء ندما.. مما قوى عوامل السخرية فى نفس زميله فاشتدت نوبة المرح التى إنتابته لسذاجة هذا الزميل الجاد..!.. وأصبح تضاحكه عصفا وقصفا فأنشأ يقول بصوت متقطع من الضحك وعيناه تدمعان رثاء لهذا الزميل التعس الساذج:**

**- لعنك الله.. أضحكتنى من قلبى.. هل تظن.. أوه.. سأموت من الضحك!.. أيها الغبى.. أيها الغبى العبقرى.. أيها العبقرى الساذج.. أتظن حقا اننى من البلاهة والغفلة بحيث أصدق أكذوبتك التافهة البارعة.. أصدق هذا التخريف.. إنك تحلم يا بنى تلك الأيام بطريقة مخيفة دون أن تدرى ويلهمك خيالك الشديد الخصوبة بأوهام لا أساس لها.. رجل.. رجل ياملك الأرز باللبن..!.. رجل يعترض طريقك آمرا إباك ألا تدخل المدرسة.. هكذا بتلك البساطة.. ثم هكذا بتلك البساطة أردتنى أن أصدق.. هاها!.. يا إلهى قد جن جنونك من شدة فرحتك بجائزة التفوق!.. جن جنونك فرحا هاها.. يا إلهى.. الرحمة.. سأموت من الضحك!**

**كانت نبرات صوته وهو يتكلم متدفقا بتلك الطلاقة وهذا الصخب.. تتهدج برنين مرارة مستتر، لم يفت على ذكاء سامح أن يستشفة ويسمعه فشعر برغبة حقيقية فى النحيب تحت وطأة عوامل الشفقة التى إعتملت فى فؤاده تجاهه فقد تباهى المسكين بألمعيته الخارقة التى أتاحت له إدراك الحقيقة التى لم تكن من الحقيقة فى شىء أبدا.. وآلمه كثير أن يصدقه زميله بتلك السرعة مدعيا مع ذلك أنه لم يصدقه لا سيما أنه كان يؤمن بأن الملل الذى خال أنه يدفعه إلى الهروب دفعا ليس إلى عيوب النفس يعزى بقدر ما ينتمى إلىعيوب العقل فكيف يدعه فى عماية الجهل يعمه..! وكيف يتركة فريسة للغباء الذى لم يكن فى خيالة قط.. لهذا الأمر الذى أخطأ إذ اخبره به وأخطأ أكثر إذ عاد فأنكره موقعا إياه فى شراك الغرور بهذا الذكاء الغبى المدعى..!..**

**أجل تلك هى الحقيقة بكل أسف وسوف يواجهه بها وليكن ما يكون.. فمهما يفقد.. إنه على الأقل سيظفر حين يضع أمام عينيه الحقيقة التى لا يعلمها عن نفسه.. قد يصدمه حقا.. ولكنه آنذاك قد يصحو..**

**- عارف.. أريد أن أخبرك بشىء..!**

**-........................... هاها..!**

**- عارف يا..... أيها الرفيق التعس إنتبه إلى وكفى ضحكا..**

**-........................... هاها..!**

**- حسنا.. ليكن.. فأنت الخاسر لا أنا...!**

**-........................... هاها..!**

**- لا تريد ان تنصت.. طيب.. سنتقابل يوما.. وسأصر على أخبارك بالحقيقة ولكن بعد فوات الأوان.. سوف تصحو..!**

**قالها له.. ثم أدار له ظهره وأنصرف غير نادم على شىء.**

**-4-**

**بعد أن صار وحيدا ثانية ألفى نفسه وجها لوجه أمام عين السؤال " إلى أين يذهب ؟".. إلى المنزل ؟ إنه يعلم أنه إذا عاد فلن تلم والدته بأى شىء. ذلك إنها ألفت أن تعود إلى البيت قبيل مغيب الشمس وأنه يستطيع بقليل من إصطناع الحيلة أن ينسل داخلا دون أن تلحظة إحدى جارات أمه.. وفى هذه الحال يمكنه أن يدعى أمامها أن يومه كان طبيعيا وأنه مر به كسائر الأيام الماضية.. مجيدا لا يؤسف عليه.. ولكن.. أى مجد فى " خداعك يا أمى! " وأيه ارادة تنحى اعتبارات الأسف جانبا و " أنت تبعثرين حولى حنانك المخدوع وقبلاتك التى لا أستحقها!" ثم كيف يخدع نفسه.. إن هذا أيضا لمن الاعتبارات التى يصعب عليه تجاهلها.. فإنه على إستحالة قبول فكرة خداع أمه.. تبدو فكره خداع نفسه أكثر مشقة واستحالة..**

**إذن ماذا يفعل.. ؟**

**أيتسكع فى طرقات المدينة حتى يدق الجرس تلك الدقة الأخيرة اللعينة فينسلك فى ركب التلاميذ العائدين، وهل هذا يغير من حقيقة الأمر ؟.. انه فقط يحل مشكلة التحايل كيلا تلمحة احدى صويحبات أمه فتخبرها بأنه قد عاد قبل الميعاد.. وتبقى مع ذلك المشكلة الأكبر وهى انه إذ خدعها فقد خدع فى الحقيقة نفسه التى لا يدرى لها مستقرا..**

**إذن ماذا يفعل.. ؟**

**يبدو أنه لا مناص من اطلاعها على الحقيقة كلها.. فليس هو ذلك الأبن الذى يخفى عن أمه سرا كهذا يتهدد مستقبلة ولا يملك له دفعا.. ليخبرها فهى على الأقل أعمق منه خبره بالحياة.. وقد تستطيع أن تجد له مخرجا.. من أدراه.. ربما تمكنت بوسيلة ما من إزالة ظل الرجل ذى الساعة الذهبية الذى لا يدرى له ولما يبدية من عداء سافر تجاهه اى معنى من طريقة.. لا سيما وهى " أنثى " مشهود لها بالبراعة فى.. رباه..!.. ماذا دهاه.. ان أمه فى أحلك الظروف وأشدها ضيقا وضنكا لم تفرط فى ذرة أصغر ذرة من شرفها.. ولعل هذا هو الشىء الوحيد الذى أفقدت نفسها كل العروض المغرية من ذوى الجاه من أجل أن يبقى هذا الشىء فى رعاية الكرامة وسلام السؤدد بعد أن فقدت برحيل الأب المفاجىء الأمن والطمأنينه.. وكان بوسعها أن تفرط فيه لتضمن له هناءة الحياة ورغدها وتوفر على نفسها ذلك المجهود الذى تلتهب منه يداها إلا أنها صمدت وصابرت وكابرت ليظل أسمه شريفا يفخر به.. فهل بعد هذا يخبرها بأمر هذا الرجل الآثم..!.. إنها للأسى والأسف لن تجد سلاحا تدفعه به عنه أو ثمنا تشترى به مستقبلة المهدد بغير هذا الشىء الذى لا تمتلك شيئا سواه ذا ثمن وان كان لا يقدر بثمن.. لا تملك غير جلبابها الصامد.. الذى تروح به وتجىء.. وبين الرواح والجيئة عمل يوهن حديد الكرامة وهو – أى الجلباب – وإن يكن لا ثمن له فهو بالنسبة إليه يساوى الكثير ذلك أنه رمز الستر لها.. وهى وان كانت حقا.. تحسره إلى ما فوق ركبتيها قليلا فى البيوت الغريبة.. التى تقع على شاطىء البحر.. أثناء تنظيفها خشية البلل بالماء الذى يعتبر العنصر السائد فى عملية " المسح " فإنها تفعل ذلك بنفس الطريقة التى تخرج بها إحدى الامهات ثديها فى مكان عام لإرضاع طفلها الباكى.. أما فى غير هذا الموضع فهو.. آه.. هو فى آخر الأمر لن يخبرها خشية أن ينحسر ثوبها إلى ما فوق ركبتيها إضطرارا، وليخدعها.. ليخدع نفسه حتى الموت.. طالما أن هذا يبقى ذيل ثوبها حيث يجب أن يكون..**

**- أيها الفتى.. لعنة الله عليك.. أيها العربى الغافل.. أتسير نائما..؟.. اهذا هو الذى يعلمونه لكم فى المدارس..!**

**- آه.. معذرة يا أمى..!**

**– أمك ؟!**

**\_ آه.. معذرة يا أبت..!**

**- أبتك..؟!**

**- آه.. نسيت.. فأنت سيد محترم.. ولا يمكن أن تكون أبا لفتى متشرد مثلى يمشى كما تقول نائما ؟ أقصد معذرة يا سيدى المبجل..!**

**- لست أباك ولا سيدك المبجل.. كل ما أطلبه منك.. هو أن تفتح عينيك وأنت تسير لأنك فى المرة القادمة ستصدم عربه..!**

**- أعوذ بالله..!**

**لفظها سامح وهو يبتعد عن الرجل الضخم الأحمر الوجه الذى أصطدم به عن غير قصد ركضا.. ثم كان الصراع الذى حاور فيه نفسه قد أنتهى ذلك إلى أنه إلى قرار كتمان السر عن أمه كان قد انتهى واستمر يجرى على هذه الحال.. لا يشعر بشىء مما حوله.. إلى ان خيل اليه أنه يسمع صوتا فى أعماقة يصرخ به:**

**- عيون الناس تلاحقك.. آه أيها المسكين.. أحذر.. قد يظنك أحد لصا فيجرى وراءك وفى الحال تلتصق بك جميع السرقات التى تقع فى تلك اللحظة ويجرى خلفك أهل المدينة عن بكرة أبيهم..!**

**فتوقف مذعورا.. ثم بعين فاحصة متفرسه.. تلفت حواليه ليتعرف على المكان الذى ساقته إليه قدماه وكان قد تناسى عوامل الحيرة كلها.. وقرر دونما تفكير أن يأوب إلى المنزل بأقصى سرعة يقدر عليها.. فهو لم يألف السعى كالدابة فى الشوارع بلا هدف ويأنف مشاعر التلكؤ فى الطرقات فضلا عن أنه كان يحس بحاجته الشديدة إلى الوحدة.. ولذلك تسابقت نظراته ليحدد موضعه من البيت بالضبط.. وأسعده كثيرا أن يكتشف أنه كان يسرع فى إتجاهه دون ان بقصد تسوقه قدماه إليه بلا إرادة.. وتنصرم لحظة.. تتراءى له فيها واجهات المتاجر الزاهية بأفانين الدعاية الخادعة وإشارات المرور الوهاجة بثالوثها الأبدى والسيارات المسرعة فى جنون من يروم ان يدهم أحدا وسحن المارة المنهكة من أثر الكفاح اليومى الرتيب تنطق بأصدق أمارات المنطق الذى يقول " إما نعمل أو نموت " تتراءى له غريبة مخيفة لا معنى لها، فتحسس بحركة لا شعورية تعودها جيبة ليتأكد من أن مفتاح الباب الذى يحتفظ به وتحتفظ أمه بواحد آخر مخافة أن يعود احدهما قبل الآخر فيقف أمام الباب المغلق حائرا.. حسنا.. أنه لم يضع وسط ربكة احداث هذا الصباح التى تنتمى إلى الضياع أكثر.. فليطمئن.. وليعجل بالعدو، الى البيت مخترقا فى إصرار نهاية الشارع الذى يقع البيت فيه مباشرة.. وربما كان موقعة هذا هو سمة الإمتياز اليتيمة التى يتميز بها لتصدره أحد شوارع المدينة الهامة التى تموج بالحركة وتزخر بالحياة التى تقل كلما اتجهنا الى الطرف الذى ينعس المنزل فى اقصاه فيتوافر بذلك عنصر السكينة الذى لا يميل اليه غالبية سكان المدينة باستثناء ذوى القدرات المالية أو الفكرية الخاصة منهم، وأهم من هذا وذاك أنه يطل مباشرة على تكوين للطبيعة رائع فعنده ينحنى البحر إنحناه صغيرة.. أو بمعنى أصح يمتد جزء صغير كاللسان من الشارع الى البحر وفى مركز هذا اللسان بالضبط يقع مسقط البيت الذى يفصله عن بداية المنحدر الوعر الطباشيرى المنتهى إلى المياه متران أو ثلاثة لا يتعداها عرض الشارع الملتوى بزاوية حادة أمام البيت مباشرة.**

**وفى الواقع أن كل هذه أسباب تكفى لا غراء ذوى الجاة بالسكنى فيه مهما بلغ به القدم والتداعى وأيا كان لون طلائه الخارجى المكفهر الذى لا يعبر عن لون مميز يسهل التعرف عليه.. وأيا كان كذلك عدد الشقوق التى تركتها عوامل التعرية الطبيعية فيه.. بل وأيا كان نوع الحشرات والزواحف التى تأوى اليها والتى يخرج بعضها من ماء البحر، فان هذا لا يعنى خطرا على الاطلاق طالما ان ساكنيه لا يميلون بطبيعتهم الى الايذاء.. فقد عرف – سامح – عن بعض الحشرات انها لا تؤذى من يسالمها ولا تفرغ سمها فيمن لا يعاديها.. ومن تلك النقطة الجوهرية ينبع السلام الذى يحيا فيه مع والدته بين جيرانه من بنى الحيوان.**

**بل انه كان يحرص – اشد الحرص – على تلافى الاسباب التى تؤدى الى فرارها.. ذلك انه كان يطيب له فى كثر من الاحيان اتخاذها مادة عملية لدراسته النظرية فيقضى الساعات فى تأملها وتمييز أنواعها وأشكالها وألوانها.. بل وعاداتها فى البقاء والتناسل!.. وإذا كان البعض يلقى فضلات طعامه إلى الدجاج او القطط الهائمة او الكلاب الضالة.. فإنه كان يدس يده الصغيرة بالطعام فى الشقوق غير أبه من لسعة عقرب او لدغه ثعبان او قضمة فأر.. وما أكثر المرات التى دقت أمه صدرها فيها بيدها حين تفاجئه إستنكارا لهوايته الخطرة، بيد أنه مع ذلك لم يقلع عن غيه زاعما ووجهة الضئيل يمتلىء بضحكة عريضة لمخاوفها " أن الفم لا سيما فم الحيوانات غير العاقلة لا يعض اليد التى تطعمه!" و " إن الوفاء الذى عرف عن الكلب لصاحبة موجود ويمكن بعثة وتنميته فى كافة الحيوانات " وأنه قرأ فى احد الكتب بمكتبة المدرسة التى يقضى فيها معظم وقته بين " الحصص " عن مفكر نرويجى يدعى " إبسن " كان يقتنى عقريا..!.. وأن صديقة عارف قال ذات مرة " ان بمدينة حيفا ضابط كبير برتبة جنرال يستخدم ثعبانا ضخما فى حراسة منزله وممتلكاته.. وان هذا الثعبان لا يبارح حوائط البيت الخارجية إلا لطلب الطعام الذى يقدمه له الجنرال بنفسه.. وأنه فى الليل يزحف على الأوجه الخارجية للبيت فى نوبات منتظمة كما لو كان ديدبانا فى إحدى دوريات الحراسة.. بل وزعم أن لهذا الثعبان قدرة عجيبة على تمييز آل البيت وأقاربهم وأصدقائهم فهو لا يهدد غير حياة الغرباء بالخطر.. وأدهى من ذلك ان لدية حساسية خاصة ضد اللصوص فهو يصدر فحيحا ينبه رب البيت إذا اشتم بحاسة الشم القوية لدية رائحة لص يتلصص على البعد، فاذا ما اقترب وكان لا يدرى – لسوء حظة – بأمره.. إنقض عليه كالصاعقة وأرداه قتيلا! " وهذا ان يكن محض خيال.. أو حقيقة أضيفت اليها كمية هائلة من توابل الخيال.. إلا انه يجد لذه غريبة فى تصديقها وترديدها على مسامع أمه كلما شهقت خوفا عليه من دائه.. الذى لا تعرف له دواء شافيا غير الاعتصام بالهدوء..**

**-5-**

**انسل سامح داخلا البيت فى توتر الحرص على الا تلمحه احدى الجارات فتنبىء امه بانه عاد مبكرا على غير العادة.. وهو نبأ اعظم من ان تحفظة الصدور.. فإذا به يجد نفسه امام من " من.. من.. ؟ " ليست أمه وياليتها كانت هى وعرفت من أمره ما تمنى ألا تعرف.. وإنما.. وبعد أن أوصد الباب خلفة فى عجلة وضجة من يروم الإختباء عن الأعين.. وبقلب إنخلع وسقط بين أرجله من عنف المفاجأة.. الفى عينية تلتقيان مباشرة بعينى الرجل الغريب المنتفخ الأوداج ببزته وساعته وخواتمه.. فصرخ وعيناة تغيمان فى اللاوعى مغالبا كيلا يخر مغشيا عليه:**

**- من اوقفك هنا..؟!**

**فلم يجب الرجل بغير الابتسامة الباهتة العالقة كبقايا الطعام على شفتيه وكان التفسير الوحيد المحتمل والمقبول شكلا والذى طرأ على ذهنه فألجمه إشفاقا وحذرا ورعبا هو أن تكون أمه قد أتت مبكرة أيضا لسبب ما وأدخلته تحاشيا لشرورة.. فتغيظ واكتظ فؤاده بغضب لاحد له واندفع الدم ساخنا فى اذنيه على المعنى الخبيث الذى أقام له ألف حساب وخشى أشد الخشية أن يقع فتقع الأم فى ذاك الفم القبيح كقطعة الحلوى السائغة الحلوة.. وبلغ به الانفعال صداه فضخت غدده اللعاب ضخا حمله على ابتلاعه فى سرعة الوفرة كما لو كان يشرب كوب ماء مكرها مخافة ان يسيل على شدقية فيبدو كالأبله ويراها الرجل فرصة للمغالاة فى السخرية به.. مما أسال الدمع فى مقلتيه فأخفى وجهه بين كفية كيلا يرى الرجل مظاهر ضعفه ومكث على هذا الوضع وقتا طويلا، ومع ذلك لم يهدأ ولم يستقر له انفعال.. وانتظر وقتا آخر آملا إستعادة شجاعته لمجابهة الرجل دون فائدة.. فقد كان شرف أمه يتماثل لعينية داميا فى كفة الميزان، وكان جسدها العارى يتخايل أمام بصرة كقضاء لا مفر منه تحت أغطية الفراش.. وحاول ان يصرخ ثانية فخرج صراخه من فوهة فمه الواسعة التى لا يعيقها شىء.. مكتوما.. مبحوحا كما لو كانت آلاف الأيدى تنحشر فى حلقه.. والدمع يتفجر من عينية كنبع بئر حفر لتوه.. وهو يتساءل مكررا تلك الكلمات التى خرجت هى الاخرى همهمة لا مفهومة:**

**- يا الهى.. من أوقفك هنا..؟!**

**وبدلا من أن ينتظر أن يجيب الرجل بتلك البسمة الملتوية.. إستجمع شتات غضبة وحقدة وخوفه وحيرته فى ساقية واندفع صاعدا السلم الى الطابق العلوى.. ثم راح يتوائب باحثا فى حجراته وأركانه وزواياة وحتى فى دورة المياة عن أمه، وكلما أطل فى غرفة أو دفع بصرة فى زاوية صاح مناديا:**

**- امى..!**

**فيبعث اليه الرجل من اسفل مضحكة هازئة من هذا الفتى المسل الذى يستعين عليه بأمه.. وفيما هو يعود ادراجه هابطا الدرج اليه وفد ابترد صدره بعض الشىء وسكنت نفسه قليلا وتطامئت الى أن دخول الرجل لم يكن بإرادة أمه لام نفسه بشدة وتركيز لأنه فكر لحظة فى إرتياب بنقائها وعفتها وطهرها، وكان لهذا وحده الفضل - كل الفضل - فى إستعادته لأفكاره التى طاشت سهامها، وفى إسترجاعه لثقته وعزمة فعاد اليه بجنان ثابت وسأله مبادرا فى صلافة الخصم حين يواجه قريعه:**

**- قل لى من فضلك يا سيدى.. من أدخلك هنا.. ؟**

**رد عليه الرجل دفعة كما لو كان يبغى الابقاء على حالة الرعب الى إنتابته قبلا:**

**- الشيطان...!**

**- ماذا... ؟**

**- هبطت من السقف!**

**- ماذا... ماذا تقول...؟**

**- نفذت من الجدران..!**

**حدق سامح فى عينية متحديا وهتف محنقا:**

**- اسمع..!.. ليكن مفهوما لديك اننى لست ارهبك او ينخلع فؤادى رعبا مثل بقية الاولاد وانت تصطنع الهيبة الساذجة او تطلق كلمات الرعب الخرافية..!.. اتفهم.. تحدث الى كما يتحدث الرجال.. سنا بسن وعينا بعين.. لا كما يتحدث رجل قوى إلى.. آه..!**

**والآن اخبرنى بوضوح.. ماذا تريد منى..؟**

**كانت لهجته وهو يتكلم فيها الكثير من الحزم والتحدى حار الرجل لحظة فى أن تتوفر لفتى فى مثل سنه فصمت كأنما يتردد فى الإفصاح عما يريد منه.. ثم أخيرا كأنما إنتوى أن يتخلى عن أساليب اللف والدوران وقرر ان يدخل فى صميم الموضوع قال:**

**- حسنا.. سأحترم لك رغبتك إعجابا منى بشجاعتك.. والآن هيا معى..!**

**- إلى اين..؟**

**صاح بها سامح فى وجل فأجابه وهو يتأمل مزهوا فى لا مبالاه ساعته الذهبية وخواتمه المتلألأة وبعين اللهجة التى إنتهجها أمام بوابة المدرسة:**

**- قلت لك.. ولعلك لم تنس.. غير مسموح لى..**

**فقاطعه متهكما ومكملا:**

**- بأن تقول اكثر مما قلت..!..**

**وقلد الرجل لهجته مبادلا اياه نفس السخرية:**

**- وهل قلت شيئا..؟..**

**فجاوبة سامح بعين الطريقة وأساريره تومض زراية:**

**- تأكد أنك قلت لى أكثر مما يجب..!**

**ووضع الرجل نهاية لتلك اللعبة فقال غير مكترث:**

**- هيا يا بنى.. هيا بدلا من الثرثرة..**

**فصعر سامح خده قائلا فى عناد وصبر:**

**- لن اذهب معك قبل ان تقول لى..**

**- طيب بسيطة..!.. سأجلس انا هنا الى ان تعود امك..!..**

**قالها الرجل وهو يجلس فى تثاقل على اول الدرج الواقع خلف الباب مباشرة.. فقضم سامح لسانه كمدا وراح يفكر " ان الرجل يعرف سرى!.. لقد بدا يهددنى بالشىء الذى أخشى عليه من النسيم..!.. سيبقى جالسا حين لا أذهب معه دون صوت الى أن تعود أمى.. وحينئذ.. رباه.. حينئذ.. أنا لا أريد ان تكون لأمى بهذا الرجل الخطر صلة أوهى صلة.. لأذهب معه وليكن الموت هو ما يقودنى اليه.. فان هذا أهون على من أن تأتى أمى ويقع بصرها عليه فيراها ثم اننى سأخرج معه الآن وبعد قليل نصل الى المكان الذى ينطلق منه فينكشف اللغز لى وأعرف منه ما كان خافيا.. وهذا فى حد ذاته أمر يستأهل المخاطرة..**

**القى على الرجل نظرة عابره مقيته فوجده يضطجع مسترخيا ومستريحا كأنما عزم على الجلوس للأبد فغصت عيناه بريقا وصاح فى وجهه:**

**- انت..!.. هيا يا...**

**ولم يكمل قوله إذ هب الرجل من جلسته فى حماسة أفزعت منها سامح الذى لم يملك برغمها أن يتردد فى فتح الباب داعيا الرجل أن يتفضل فيخلص البيت من ظله الثقيل.. وتمنى آنذاك لو كانت بينه وبين الحشرات فى الشقوق الغائرة لغة مشتركة يتفاهمان بها.. مثل تلك التى بين " جنرال حيفا " وثعبانه.. حتى يستنجد بها منه داعيا إياها أن تثب فى وجه الرجل فلا تدع قطرة من دمه وإلا ونفثت فيها سمومها بيد أنه للأسف لم يكن قد سما - أو هبط - إلى هذا المستوى.. فأدرك وهو يتابع الرجل بالخطو.. أنه أضاع وقتا طواه الماضى فى هراء التأمل الدراسى وأنه كان عليه أن يكون اكثر إيجابية معها ومع نفسه فيسلك كل المسالك التى تفضى به فى النهاية - أيا كانت التضحية وأيا كانت وعورة الطريق - الى خلق تلك اللغة المشتركة التى كان سيسمو إليها بالهبوط إلى مستوى الحيوانات التى هبط اليها من قبل سيدنا سليمان.. فارتفع ملكه بتسخيرها له – لطفا – وبتسخيرالجن والريح.. بارادة الله..!**

**- 6 -**

**وحرص سامح حرصا شديدا على إغلاق باب البيت خلفة دون إحداث صوت ينبه إحدى الجارات الفضوليات اللاتى لا يتورعن عن دس انوفهن الجميلة فى أمور الغير.**

**وحمد الله كثيرا على أن الوقت لم يكن وقت إطلال سيدات البيوت من النوافذ والشرفات.. بل وقت الإنشغال بالعمل المنزلى اليومى.. بعد خروج الازواج إلى أعمالهم والابناء إلى مدارسهم.. والا وقعت عليه وعلى الرجل انظار واحدة او اكثر منهن وحينذاك تفسد خطته تماما فى إقصاء أمه بعيدا عن هذا الامر.. ولو دفع حياته ثمنا.. ولكن ماذا لو ان احداهن خرجت تنشر الغسيل او تنفض الغبار عن نافذتها او شرفتها..؟.. أقلقه هذا الخاطر كثيرا.. فجذب يد الرجل اليه فى توتر ثم اخذ يجرى به مبتعدا عن المكان بأقصى ما يكون من سرعة وقد افترض ان الرجل سيسره – قطعا – أن يرى إقباله على مرافقته الى المكان الذى لا يدرى كنهه بأقدام تجرى دون إبطاء من خوف أو تردد.. ولهذا لن يقاومه.. بيد انه اخطأ ظنه بعد امتار قليلة من عدوهما ولعله استكثر على نفسه ان يقوده الفتى على هذا النحو بدلا من ان يحدث العكس - وهو الأوجب - فتوقف دفعة واحدة.. مخلصا يده التى كانت تقبض عليها يد سامح بقوة لم يكن يدرى كيف يمكن ان تتأتى لفتى هزيل الجسم مثله.. صائحا بحنق وكمد:**

**- ايها الفتى.. إنك تبدو لى غريب الأطوار جدا.. ما معنى هذا.. أهو لون من التكبر..؟!**

**دمدم سامح لنفسه بصوت خفيض وهو يصرف بأسنانه غيظا:**

**- بل لون من الحب كما يصعب على أمثالك ان يدرك..!**

**- ماذا.. ماذا تقول ؟.. انت تلوك شئيا عن الحب.**

**- لا تصيح هكذا ارجوك..!**

**صاح بها سامح فى صرخه مكتومة.**

**- آه.. فهمت..**

**وأردف الرجل قوله بنظرة من عينيه ومضت فيها كل معانى الإدراك المثير للغيظ والسخط ثم اضاف متخابثا وهو يداعب أنفه:**

**- آه.. انت لا تريد أن يرانا أحد فيخبر أمك يا طفلى العزيز..!**

**فانتفض سامح متضايقا من أن يأتى ذكر أمه على لسان مثل هذا الرجل وان يتاح له من الفراسة قراءة أفكاره على هذا النحو قائلا بحزم وتهكم:**

**- سيدى.. اعتقد أنك سمحت لنفسك بقدر من الكلام اكثر من المسموح به لك..!!**

**- غريب..!.. أنت يا فتى تبدو لى أكبر من سنك بكثير بطريقتك تلك فى الحديث.. إنك تدعونى الى إحترامك يا بنى..!**

**- طيب.. ألن نذهب..؟.. اعتقد أنه ليس من مصلحتك أنت أيضا أن يراك أحد معى.. وإذا لم أكن مخطئا فانه يبدو لى من تحفظك فى توضيح شخصيتك.. أن ثمة أوامر صدرت اليك بأن...**

**قاطعه الرجل فجأة ضائق الذرع:**

**- كفى فلسفة.. هيا بنا..**

**- سامح.. هل انت على ما يرام..؟!**

**والتفت سامح بهلع إنخلع له فؤداه الى مصدر الصوت النسائى الذى هبط عليه من نافذة البيت المجاور كما يهبط حكم الاعدام.. وانقضت لحظة ثقيلة خيل اليه فيها ان يدا من حديد تقبض على حنجرته وتمنعه من ان يقول شيئا يطمئن قلب جارته وداخله الخوف الشديد من ان يفشل فى التماسك فتدرك انه – مع وجود الرجل الغريب – يعانى ورطة ما...**

**- وجهك يبدو لى شاحبا.. يهيأ إلى انك ترتعش..!**

**- كلا...!**

**هتف بها سامح مستغيثا بكل ما فيه من قوى كامنة للثبات والتجلد، وبصعوبة شديدة أفلح فى أن يقول لها متلعثما:**

**- إنى فعلا أرتعش.. وأظن أنك صادقة فى قولك عن شحوب وجهى.. فقد كنت أخشى ان.. أن...**

**فقاطعته السيدة وهى تضحك قائلة:**

**- اوه يا عزيزى.. لا عليك.. لا تتعب نفسك فى إختراع أكذوبة تبرر بها هروبك من المدرسة.. فإنك لن تنجح فى خداعى..!.. حتى أنت.. حتى أنت يا سامح.. لماذا.. أسئمت الدراسة إلى هذا الحد..؟ إنى فى دهشة من أمرك فقد علمت أنك أخذت جائزة تفوق بالامس فقط..**

**- اى والله..!..**

**- من هذا الرجل..؟**

**- انه... آه.. انه مدرس..!..**

**- هارب هو ايضا..؟!**

**- اى والله ياخالتى زينه..!..**

**فكرت المراة قليلا ثم قالت بعد لحظة صمت كانها قد انتهت الى تبرير مقنع:**

**- هذا امر طبيعى.. ويلوح لى.. أنه لا يمكن لتلميذ مجتهد مثلك أن يهرب من الدراسة.. بعد إعتراف الجميع له بالتفوق والنبوغ.. إلا بعد ان يهرب معلمه..!.. عد الى مدرستك يابنى واعدك تشجيعا لك الا اخبر امك مع انها اعز صديقة لى كما تعلم.. وانت ايها المعلم.. الا تخجل من طولك وعرضك.. تشجعون اولادنا على التزويغ من المدرسة.. وكأن هذا واجبكم الاول.. عدنى انت ايضا انك لن تعود الى ذلك ثانية.. عدنى..!**

**صاح سامح نافذ الصبر بالرجل الذى وقف صامتا يراقب ما يدور:**

**- عدها..!**

**فتقدم الرجل خطوة للامان مغمغما وهو يطاطىء رأسه كالتلميذ الصغير المذنب بطريقة فكهة أضحكت منه سامح برغمه:**

**- أعدك يا سيدى المبجلة..!**

**وتهللكت اسارير المراة الطيبة منتشية ببراعتها فى تصريف الأمور وفى إزجاء النصح إلى الآخرين.. فانتهز سامح لحظة الرضى والزهو التى انتهى اليها الموقف أروع نهاية.. وأدرك بإحساسة الواعى أن من الخطر الانتظار اكثر من هذا.. فجذب الرجل من يدة مرة ثانية وطفق يركض به فامتثل له تلك المرة.. وظلا يجريان كما لو أن أحدا يلاحقهما بسوط.. وما هى إلا دقيقة أو نحوها.. حتى غابا فى بطن الشارع حيث الضجيج والزحام.. حينئذ توقف الرجل قائلا وهو يلهث قليلا:**

**- ينبغى ان نركب سيارة.. فالمسافة طويلة الى حد ما..**

**- حسنا.. لنركب..**

**- انك تبدو لى شجاعا يا فتى.. بحيث يخيل الى انك تعرف إلى أين أقٌودك..؟!**

**تمتم سامح دون ان ينظر اليه:**

**- كلا.. لست شجاعا كما تظن.. ولكن لأننى أعلم أنه لا فائدة معك من الخوف أو الحزن أو الفرح فانى لا أبدى ضعفا..!**

**فهز الرجل رأسه هزة الإدراك والتفهم دون ان يعلق بكلمة على ما قال.. وبعد لحظات.. صاح لدى رؤيته عربة تمر فارغة أمامهما:**

**- تاكسى..!**

**ثم ركبا.. وفى التو وصف الرجل للسائق وجهتهما، فعلم سامح انهما سيذهبان الى اطراف المدينة حيث تتناثر هناك عدد من البقع الصغيرة تحتوى على اشجار البلوط والغار والبطم ومع ذلك لم يأبه للأمر.. ولم يهتز له وتر وقال فى نفسه " لياخذنى الى أحراش افريقيا حتى.. طالما ان ذلك يتم بعيدا عن بيتك**

**يا امى " ولكنه رغم تجلده هذا لم يستطع كبح جماح دمعة أصرت على الترقرق فى عينيه حين فكر فى أمه وتساءل " يا ترى هل سيكتب لى أن أراها حين تعود من عملها فى المساء ؟ " ثم ساقة هذا السؤال إلى سؤال آخر أنكى " يا ترى هل سيكتب لى ان أراها بعد الآن ؟! ومازال كذلك يفكر فى والدته واحتمالات رؤيته لها ثانية دون ان يفكر – لدهشته حين ادرك ذلك – فيما ينتظره من مصير فى هذا المكان المجهول المسير اليه وهدير محرك السيارة يعلو فى أذنيه ويصر هو الآخر على تذكيره بأنه بات وشيكا – قطعا – انه سيذهب الى هذا المكان.. وأنه للأسى قد لا يسمع بعد الآن رنين جرس مدرسته المحبب أيضا، وكانت تلك دمعة أخرى فى عينيه فأسرع بالنظر من خلال رجاج السيارة، متظاهرا بتأمل المنظورات فى الخارج كيلا يرى الرجل مظاهر ضعفه.. وظل على تلك الحال معظم الوقت، ينظر متأملا وفى الحقيقة لم يكن يرى شيئا لأن ذهنه كان مشغولا الى حد الاغراق بالتفكير فى امه وبيته ومدرسته وفى ايضا والده، الذى لا يعرف عنه اكثر من أنه أسلم روحه فى المعتقل.. ولما كان معلما للفلسفة بالمدرسة الثانوية فقد جاء تقريرا الوفاه متضمنا انه إنتحر – فى المعتقل – ليثبت أنه حر فى اختيار الحياة او الموت..!**

**- توقف هنا..**

**ثم هبطا.. وبعد أن نقد الرجل للسائق أجرة قاده فى صمت الى السير نحو بقعة من تلك البقع الشجرية المتناثرة – وبعد مسيرة حوالى عشر دقائق فى طريق رملى ممهد داخلها، برز بغته مبنى حجرى أبيض يحمل فى أعلاه عدد من المداخن الصغيرة التى تستعمل فى تصريف النواتج الغازية لإحتراق الوقود فى الأفران الخاصة بالحدادين.**

**وكانت دهشة سامح عظيمة حين لاحظ من نظرة سريعة شمل بها تلك المداخن أن معدنها يلتمع الى حد ما ويعكس قليلا ضوء الشمس مما أوحى إليه بانها لم تستخدم فى إخراج الدخان ابدا.. غير أن دهشته كانت أعظم حين خطفت لافته كبيرة معلقة فوق مدخل هذا المبنى إنتباهه فقرأ ما يلى: " إصلاحية المتفوقين الاسرائليين العرب ! "**

**- 7 -**

**قبل ان يستفيق سامح من دهشته اخبره الرجل ان مهمته قد انتهت عند هذا الحد، ثم قفل راجعا من نفس الطريق، وتأمل هو ذهابه فى حيرة شديدة وراح يتابعه بناظريه وهو يخب فى سيرة الى أن أصبح نقطة صغيرة سوداء قرب نهاية هذا الجزء من الطريق المستقيم كالشعاع وسط الاشجار الباسقة المترامية فى انتظام غير مقصود على جانبيه.. آنذاك فقط.. أدرك انه قد صار وحيدا.. وأين فى جوف تلك الغابة التى – فيما خلا هدير الامواج الآتى من البحر القريب – يخيم عليها هذا السكون المطبق الذى يطالعه فى كل شىء يحسه أو يراه.. فى الهواء.. وعلى الأرض.. فى الأعشاب.. على أفرع الأشجار.. وأديم السماء الأزرق كقبة المعبد فوق هذا المبنى الجيرى.. ولا عصفور واحد يغرد وكأن هذه نهاية العالم.. أو كأن الحياة ستجود بأنفاسها الأخيرة فى هذا المكان يا إلهى!.. ثم ماذا ؟.. ثم إصلاحية المتفوقين العرب.. علامة استفهام كبيرة اخرى تطالعة فى صمت وتحد وعليه أن يدخل! أدخل.. الى أين ؟.. لا شك أن هناك مفاجاة غير سارة تنتظرنى.. فهكذا تكون النهاية المقبولة لكل هذه الحلقات المتسلسلة من الغموض.. أدخل ؟.. آه.. وهل يذهب المرء الى الموت بأرجله..إنى أرتعد.. أرتعد.. أين كان يختبىء هذا اليوم المشئوم منى ؟ كابوس.. اجل قد.. آه... هل أحنى الرأس هكذا.. وقد كان أبى مشدود القامة.. رأسه إلى أعلا وعيونة ثابتة.. إذا كان الحل الوحيد أمامى هو الإستسلام.. فأنا اذن لا أسير فى الطريق السليم.. الطريق السليم هو الذى يؤدى الى الحياة.. الى الشمس.. الى أبى..! وتحت ضغط تلك الكلمات التى دقت الأجراس فى رأسه لم يتمالك نفسه.. إندفع للأمام كالثور الهائج ثم رفس باب المبنى فانفتح فى ضجة وهو يصطدم بإحدى عوارضه، معلنا قدومة. عن ردهة باتساع الوجهه الأمامية للمبنى فحوائطها هى نفس حوائطه وليس بها نافذة واحدة.. ورأى امامة مباشرة فى صدر الردهة المواجه للباب إمرأة جميلة إلى درجة الفتنه تجلس هادئة تماما وعيناها مصوبتان اليه وقد كفت أناملها عن الحركة بأشغال الإبرة لحظة رؤياه ثم عادت وأحنت رأسها وواصلت إنشغالها بما بين يديها على ضوء مصباح كهربى معلق فى السقف المرتفع.. وكأن احدا لم يقتحم عليها المكان فى جلستها تلك امام مكتب صغير.. من خلفها باب مغلق والى جوارها خزانة حديدية بيضاء من هذا النوع الذى يستخدم فى حفظ العقاقير.. ويلى الخزانة تماما سرير صغير.. مما ذكر سامح بصالات الإنتظار فى العيادات الطبية، بفارق واحد هو خلو تلك الردهة من الأرائك والمقاعد التى ينتظر عليها المرضى أدوارهم.. فلا يوجد غير هذا المقعد الذى تجلس تلك المرأة الانيقة الملامح والملبس والتى رفعت رأسها إليه فى دعة للمرة الثانية وابتسمت له إبتسامة خافته.. متداخلة ثم انطوت على ما كنت عليه من إنشغال ثانية وكأنها لا تبالى به، فأغضبته طريقتها تلك فى استقباله فوق ما فيه من غضب وزمجر متسائلا:**

**- ماذ تريدون منى ؟**

**- على رسلك! نحن هنا لخدمتك ومصلحتك.. إهدأ..!**

**قالتها المرأة فى صوت وادع عذب.. مدرب.. لم يزده إلا سخطا وشعر بحاجته الشديدة الى الجلوس. وبضيق فى تنفسه من ركود الهواء فى تلك الردهة الخالية من أى نافذة.. وبأنه على وشك الغثيان وتوهم أنه إن وقف أمامها اكثر من ذلك فسيفقد وعيه حتما.. وهو أمر لا يرتضيه لنفسه فى أول لقاء له بهذا المكان فسأل بعين الغضب:**

**- هل سأظل واقفا طول الوقت..؟**

**أجابته دون أن ترفع رأسها اليه بصوت فيه غنة طفيفة مستترة.**

**- على السرير إجلس..!**

**ولا يدرى لماذا تذكر أمه فى تلك اللحظة وصاح دون وعى:**

**- لماذا السرير..؟**

**وتدارك نفسه ثم أضاف متسائلا:**

**- أعنى لما لا تعدون مقاعد أخرى للجلوس ؟**

**فلم تحر المرأة جوابا أكثر من أن رفعت رأسها اليه هونا وألقت عليه نظرة لا تعبر سوى عما فى عينيها من التماع مائى تحت حاجبيها المزججين المائلين إلى أسفل فى إحتداد صقرى، يوحى بعمق ما فيها من قوة واتزان.. فعاوده ذلك الشعور بالغثيان وكاد أن يصيح هاتضا بسقوطها وسقوط كافة الأوغاد.. لكنه لم يفعل وقاوم مشاعره بصورة تقلصت لها عضلات وجهه وأدمعت عيناه، وكانت المرأة لا تزال تنظر اليه فصاحت به:**

**- اجلس.. ارجوك..**

**- ماذا تريدن منى ؟**

**- اجلس أولا.. وبعد.. قليل يأتى الكاهن وتعرف كل شىء.**

**إستدارت عيناه..**

**- الكاهن ؟ أو هناك كاهن أيضا.. كاهن اصلاحية المتفوقين العرب.. أليس كذلك ؟ ليكن.. سأنتظرة حيث تريدين وسأعرف كيف أواجهه.. كاهن.. هه!**

**- انت تبدو فتى عنيدا.. وهذا سيجعلنا نتمسك بك أكثر من أى فتى آخر جاء هنا.. ولهذا ساحضر لك شرابا يلطف عنادك..!**

**ونهضت من جلستها فى خفة لتحضر له هذا الشراب وعلى الفور رأى أنها تنعم بالاضافة الى وسامة محياها بقوام رشيق، ولا يدرى لماذا تذكر مرة ثانية – لحظة تأمله قوامها – أمه فغض بصره ولم يرها وهى تتوارى داخلة من الباب الذى يقبع وراءها.. وراح يفكر فيما عسى ان يحدث بعد ذلك، فكر طويلا وقلب الأمر على مختلف الوجوه.. واستعاد بعض ذكريات ما مضى من سنى حياته الصغيرة محاولا ان يجد من خلال الربط بينها وبين احداث يومه العجيب معنى.. فلم يهتد الى شىء لانه لم يكن يعرف – حتى الآن – ما يبتغون منه.. وقرر وهو يتنهد بعمق صدره ألا يجهد فكره فى التحرى عن بواطن الأمور كيلا يفقد صفاء ذهنه وهو يواجه هذا الكاهن المذكور الذى ينتظر قدومه بين لحظة واخرى.. وفيما هو يفكر هكذا.. إنتبه على صوت وقع اقدام خفيفة تدنو من الباب الداخلى.. ولأول وهله ظن أنه الكاهن ببنيته الرهيفة التى تنم عنها رقه خطواته، فتوفز وتحفز ترقبا للقائه.. بيد أنه سمع حفيف ثوب ناعم يختلط بوقع الاقدام فأدرك انها المرأة، عائدة اليه بالشراب.. وسكن طائرة.. وركز بصره على الباب فالتقت عيناه بعينيها مباشرة وهى تدلف حاملة كوبا كبيرا ممتلئا حتى حافته بشراب أحمر – لعله كريز – ولم يدر لماذا تذكرأمه كرة اخرى آنذات فنكس عينية على الأرض قبل أن تكتشف أنه يطيل النظر اليها باهتمام وفضول، ولعلها لاحظت ذلك إذ إبتسمت فى أعماقها بطريقة جعلت لعينيها ذلك الوميض المائى الذى تسنى له أن يلمح بصيصه المنسحب حين وجدها بقوامها الرفيع وثوبها الحريرى الفضفاض الذى - مع ذلك - يكاد ألا يغطى ركبتيها تنحنى أمامه لتضع الكوب على المنضدة الصغيرة التى كان يتكىء بقدميه فوق دعامة خشبية تصل بين قوائمها من أسفل ليحميها من برودة " البلاط " فأتاح له هذا الوضع – ربما دون قصد – بضع لحظات تنسم فيها برئتيه المراهقتين عبير أنفاسها العطرة.. وشعر برغبة عارمة فى أن يقبض على معصمها الرقيق بقوة وغيظ قائلا لها " كم انت جميلة مثل امى! " لكنه بدلا من ذلك هتف وكأن فتنه المرأة قد أدارت رأسه فلم يعد يعى ما يقول:**

**- كم أحبك يا أمى..!...**

**- أمك..؟!..**

**- أجل..!..**

**- أتحبها الى هذا الحد..؟..**

**- أجل فهى أجمل الجميلات..!**

**- ولهذا أنت تخاف عليها..؟..**

**تساءل مصعوقا:**

**- من قال لك..؟!..**

**أجابته وهى تجلس إلى جواره على السرير فى أريحية بالغة مداعبة خصلات شعره وكأنهما قد صارا أصدقاء:**

**- اننا نعرف كل شىء عنك..!..**

**وكانت قد اقترتبت منه فى جلستها إلى حد أنها أوشكت ان تلتصق به فصعدت الدماء إلى أذنيه وأحمر لونهما حتى صار يضاهى لون ذلك الشراب فى الكوب خجلا وشعر بلعابه يجف فتناول الكوب وجرع ما فيه دفعة واحدة وأنتعش..!.. وفكر فى أن ينحرف بجسمة قليلا عنها.. ثم عاد وتراجع عن ذلك حتى لا تلم بما يعتمل فى صدره من إنفعالات ، أو حتى لا يؤذى مشاعرها التى بدت له فى تلك الآونة سامية غاية السمو..!.. فضلا عن أنه لأسباب لم يفهمها بدأ يحس الألفة والراحة فى قربها منه بعد هذا اليوم المضنى الذى لم يمر به يوم مثله، والذى تكاد أن تنتهى فيه آلامه نهاية سارة..!**

**- حدق فى عينى يا صغيرى..!**

**إنتفض نافرا على قدمية فى ذهول وهتـف:**

**- ماذا..؟**

**ودون أى تمهيد او مناقشة أمسكت بيده وجذبته معيده إياه للجلوس.. لكن على ركبتيها تلك المرة، وطوقته بذراعيها وهى تمسح خدها فى خده وتضغطه إلى صدرها قائلة:**

**- إنى أقدم لك نوعا من الحنان لم تألفه.. آه صغيرى.. يا صغيرى.. كم أنت رقيق.. حالم..**

**فاستسلم لها – لحيرته – بارتياح لم يعرف له سببا وهو يزفر كأنه ينفث أبخرة فاسدة طال ركودها فى صدره وأجهش جهيشا محزنا أذهله عن نفسه فأخذ يكور جسده فى صدرها ويقبلها متسائلا إبان ذلك فى مرارة:**

**- لماذا تعاملوننى تلك المعاملة الغامضة وأنا صغير لا خوف منى..؟!**

**فأجابته وهى تشجعة على لثم خدها بإدارة الخد الآخر له:**

**- لأننا نحبك ونخاف عليك..!**

**- تخافون على.. من ماذا..؟**

**- من نفسك.. أنت رجل صغير تقف على أعتاب المراهقة.. وفى ذات الوقت تنال الدرجات النهائية فى كل المواد.. ولو كانت هناك درجات فوق الدرجة النهائية لنلتها أيضا.. أى أنك لست فتى عاديا ككل الفتيان.. ولهذا نحن نقدم لك الحب الذى يحمى نبوغك..!**

**أبعد وجهه قليلا عنها.. ثم امعن النظر بإرتياب فى عينيها برهة وأردف متسائلا:**

**- صحيح..!.. وماذا عن اصلاحية المتفوقين العرب..؟**

**فأستردت وجهه ثانية وأغرقته فى سيل من القبلات وهى ترد عليه قائلة:**

**- أنت فتى نابه لا تنسى شيئا.. لكنك نسيت.. للأسف.. أننا ننظر إليكم نظرتنا إلى باقى مواطنينا واللافتة المعلقة على الباب الخارجى تقول ذلك.. فهى إصلاحية المتفوقين الإسرائيليين العرب وليس العرب فقط..!..**

**غمغم متسائلا مرة أخرى:**

**- أهذا هو نوع الإصلاح الذى تقدمونة ؟.. أعنى هذا النوع من الحنان الذى ذكرته لى..**

**أجابته وهى تحدق فى غور عينيه:**

**- نعم.. لكن عليك ان تقدم لنا بعض البراهين على أنك تبادلنا شعورا بشعور..**

**- كيف..؟!**

**أجابته وهى تحدق فى غور عينيه اكثر:**

**- هذه أمور ستتكشف لك فى حينها.. اما الآن فدعنا نتعرف على بعضنا أكثر..!**

**سألها وهو يبحث لعينية عن مهرب:**

**- ومن الذى سيكشفها لى " أنت ام الكاهن..؟ "**

**ردت عليه قائلة وهى تواصل التحديق بإصرار:**

**- قد أكون أنا.. وقد يكون الكاهن.. وقد تكون أنت نفسك.. من يعلم ؟.. باطن الانسان بئر عميق بالأسرار.. وبالحب أيضا..!**

**أغمض عينية بعد أن فشل فى الهروب من نظراتها وسأل بصبر نافذ:**

**- ومتى يكون ذلك..؟**

**فهتفت به وهى تتصنع اليأس مغمغمة بصوت مهموس:**

**- آه.. إنك تغمض عينيك مع أننا لازلنا فى البداية.. والمفروض أنك ستبرهن لى يوما بعد يوم عن حبك لنا..!**

**- كيف.. هل سآتى إلى هنا مرة أخرى ؟**

**- بالطبع مرة ومرات..!**

**هب واقفا على قدميه متسائلا فى جزع:**

**- والمدرسة..!؟**

**وكأن الجواب كان جاهزا على طرف لسانها أجابته:**

**- فى مكانها مصونة لا تمس!.. طمئن نفسك.. لن تقيدك المدرسة غائبا فى الأيام التى ستجىء فيها إلينا هنا.. لأنك ستدرس فى تلك الاصلاحية مادة تكمل دراستك بالمدرسة.. أخبرنى بالمناسبة.. ماذا تقول لك أمك فى البيت عنا.. ؟**

**فتجاهل سؤالها وصاح هازئا:**

**- مادة الحب الذى يحمى النبوغ..!؟**

**أجابته وهى ترده اليها:**

**- ليس بالمعنى الحرفى للكلمة.. لكنها نوع من الحنان لم تألفه.. نوع من تصحيح المشاعر ليس إلا!**

**فخلص نفسه منها فى نفور مباغت وهب يعيد ترتيب شعره ويعدل من أوضاع ثيابه التى كانت قد صارت الى فوضى أثناء العناق وهتف فى عناد وصلف وحسم:**

**- إنها لعبة لن أشارك فيها..!**

**ثم فى عزم وخطو ثابت.. أخذ طريقة نحو باب الخروج فأسرعت تذكره بلهفة:**

**- إنك ستأتى غدا..**

**لم يهتم بالاجابة عليها فصاحت فى حنق فجأة :**

**- ايها الغلام.. إنك ستأتى غدا وبعد غد رغم أنفك.. ستأتى لأنك تعلم أن لدينا مفاتيح لكل البيوت..!**

**- 8 -**

**صفق سامح الباب خلفة فى غضب.. ثم جعل كل همه أن يغادر هذا المكان اللعين بأقصى ما يستطيع من سرعة فأطلق لساقية العنان، متوهما بين لحظة واخرى ان يثب على ظهره من وراء إحدى الاشجار حيوان.. او انسان.. مما اشاع الاضطراب فى خطواته فتداخلت وأوشك ان ينكفىء على وجهه اكثر من مرة وحال دون ذلك ان الطريق لم يكن وعرا وعورة أحاسيسة وأفكاره من جراء ما حدث و " لديهم مفاتيح لكل البيوت.. يا الهى..!..**

**وكان قد قطع شوطا كبيرا من الطريق حين شعر بغته أن قواه تخونه.. وخيل اليه أنه لن يقوى على بلوغ الطريق العام فوجب فؤداه بخوف وتساوت أفكاره بسطح الأرض واغرورقت عيناه وظل يجاهد بدنه الرهيف بقوى النفس الدفينة، يده على قلبه وعيناه على البحر البادى من خلال فوهة الطريق الذى إستطال فجأة عند تلك الآمتار القليلة الباقية، إلى ان وصل اخيرا ولكن بعد أن اختلت حركة " الحجاب الحاجز " فى رئتيه من فرط الجهد الشاق الذى بذله فضاقت.. وأظلمت عيناه.. وخيل اليه انه فقد إحساسه بغته.. وبأن كل جوارحه التى يتفصد منها العرق تتجمد وشعر برغبة خبيثه فى قىء هذا الشراب الذى لم يدخل معدته شىء غيره منذ الصباح.. فأرخى ساعديه وتأهب للإغماء وصرح صرخة ألم ثم ألقى بجسده المنهك على الارض وهو يصيح فى أعماقه بشقاء:**

**- يا ألهى.. انى أموت..!**

**- هل استطيع ان اقدم لك يد المساعدة يا بنى..؟**

**ورفع رأسه فى جزع من بوغت بأمر غير متوقع الى الرجل الذى أقترب منه وجلس على ساقية نصف جلسة يتأمله بعين فاحصة.. مشفقة.. فهاله ان يكون هدفا للتأمل والاشفاق اخيرا، وشعر بالغضب من نفسه ورمق الرجل بصمت غضوب!.. وكانت نتيجة هذا الشعور بالثورة على النفس سريعة جدا فانزاح عنه جزعه واستلانت عضلاته وانتظمت بعض الشىء حركات الشهيق والزفير فأحس بالراحة قليلا وتنفس الصعداء.. وتحامل على نفسه حتى نهض من كبوته ثم ابتسم فى وجه الرجل إبتسامة الشكر الواجبة.. دون أن يقول شيئا.. حينئذ بادله الرجل البسمة بأحسن منها قائلا:**

**- إنى أراك وقد اصبحت أحسن قليلا.. إلى أين انت ذاهب ؟.. ولكن دعنى أعرفك بنفسى أولا.. اسمى " شلومو ألون " وعملى مهندس إنشاءات..**

**وصمت الرجل هنيهة كما لو كان يرقب الأثر الذى تركه اسمه وعمله فى نفس الفتى ثم استدرك مشيرا الى سيارة فارهة تقف على مقربة منهما.. والى البحر:**

**- كنت هنا اقوم بجولة للبحث عن مكان مناسب لتشييد منارة لإرشاد السفن فرأيتك وأنت تسقط.. ماذا بك يا بنى ؟.. وماذا تفعل فى هذا المكان النائى..؟**

**كان الأثر الذى أبدى الرجل إهتماما طفيفا للوقوف عليه فى نفس سامح يتوزع على خلجات وجهه ونظرات عينية بين الفضول الشديد والرغبة فى التصديق.. وكان الرجل فيما يبدو يفهم تماما السر فى هذا، اذ إبتسم فى مرح واستطرد بعد سكتة قصيرة متضاحكا فى تظرف:**

**- آه.. آه..!.. انى اعلم سر دهشتك يا فتى.. ولابد انك تلميذ فى السنة النهائية بالمدرسة الابتدائية.. أليس كذلك.. ؟ لكن لا تعجب.. إن اسمى فعلا شلومو الون وعملى مهندس إنشاءات لكنى لست شلومو ألون هذا الذى تقرأون عنه فى كتاب " مدنيات إسرائيل " بالمدرسة.. فى الحديث عن إختيار مهنة للتلاميذ على ما أعتقد.. والذى يذكر فيه التلميذ احمد أنه يتذكر دائما المهندس ألون بالخير لانه وضع الخرائط والتصاميم لبناء بيتهم.. على حد ما قيل لى فى كل مرة كنت أتعرف فيها على تلميذ فى المدرسة الابتدائية..آه.. كم اوقعنى هذا التشابة فى الأسماء مع التلاميذ الصغار فى مواقف مضحكة ومثيرة..!.. مثل هذا الموقف الطريف الذى تقفه منى الآن.. يا بنى ألا تقول شيئا..؟..**

**ثم سكت.. فقال سامح لنفسه " هذا الرجل يريد منى شيئا! " وتفرسه بنظراته حائرا.. فقهقه الرجل**

**وهو يربت على ظهره فى مرح وتبسط قائلا اثناء ذلك:**

**- آه.. إنك تنظر الى نظرة غريبة.. لك الحق فى هذا يا بنى.. فليس سهلا على صبى مثلك.. ان يجد الخيال الذى يطالعه فى كتب المدرسة وقد تجسم حقيقة.. انت فتى ذكى فيما يلوح لى.. ولهذا سأقدم اليك عربون صداقتنا.. ما رأيك.. انى عائد الآن بسيارتى إلى داخل المدينة.. وأنت أيضا فيما أظن.. والآن اتساءل: لماذا لا اصحبك مى فى سيارتى.. لأوفر عليك هذا الجهد فى السير وأنت متعب..! هيا يا بنى..هيا.**

**ودون أن ينتظر موافقته شده من يده وسار به صوب السيارة المنتظرة.. فاستسلم له سامح راضيا لأن أمر عودته راجلا وهو بهذا الإرهاق والشعور بالجوع كان يمثل له مشكلة فعلا ثم ان الرجل بدا له بسيطا خفيف الروح على نحو يدعو للاطمئنان اليه.. فضلا عن انه ما كان يحلم يوما بركوب سيارة فخمة مثل تلك.. فعجب ان يتحقق ذلك فى هذا اليوم المشحون بالمتاعب.. ودعاه الرجل للقعود إلى جواره على المقعد الأمامى إمعانا فى الحفاوة به فشكره بنظرة عرفان وبسمة إمتنان، ودار محرك السيارة ثم بدأت تنساب ناعمة خفيفة على الطريق الموازى للبحر وسامح يؤنب نفسه على سوء ظنه بالناس فقد احاطه الرجل بعطف زائد بينما فسر هو مساعدته على أنها لا تخلو من غرض.**

**وفيما هو كذلك.. سمع الرجل يتمتم قائلا وهو يوزع إنتباهه بين النظر اليه وإلى الطريق:**

**- إنى أعرف ما يدور بخلدك.. فأنت تتساءل عن الدافع الذى يدعو رجلا مثلى الى تقديم العون اليك..**

**ثم صمت لحظة ليركز انتباهه كله على تخطى سيارة " نقل " تتقدم بطيئة تحت ثقل حمولتها.. وبعد ان تخطاها بسلام استرسل بنفس اللهجة:**

**- لكن.. لماذا نتساءل بتلك الطريقة التى تعبر عن سوء ظننا بالغير.. لم لا نصلح أنفسنا ونجعل من قيم التفاهم والتعاون والحب أساسا لإقامة الحياة فى هذا الوطن..**

**وسكت مرة أخرى ليتفادى تلك المرة طفلا صغيرا يلهو فى عرض الشارع فشهق سامح شهقة هلع وايقن لحظة انه لا محالة سيدهمه.. بيد أن الرجل انحرف عنه فى مهارة بزاوية شبة حادة ثم وجه السيارة فى خط مستقيم بعد ان تقادى حادثا مؤكدا بسيارته الرائعة المطيعة.. السلسة القيادة وهو يلعن الطفل وأهله فى نفسه.. فتنهد سامح بارتياح وهو يرمقه بنظرة إعجاب وتقدير.. على حين واصل هو حديثة وكأنه لم ينقطع او كأن شيئا فظيعا لم يكد يقع:**

**- إن قيم الخير والنور والمحبة والتسامح التى تنادى بها القيم الجديدة لبلادنا ينبغى..**

**وغرق سامح فى تفكير طويل لدى سماعه تلك الجملة " القيم الجديدة لبلادنا " فلم يسمع بقية حديث الرجل الذى ظل يحدثه ظانا ان صمته دليل على الاصغاء التام له.. فى حين كان هو يراجع ذاكرته باحثا عن المواضع التى قرأ أو سمع فيها تلك الجملة التى.. آه.. قد تذكر.. إنه تعبير يطالعه باستمرار فى ثنايا هذا الكتاب الذى يتحدث فى باب " أين تتجه ؟" عن هذا المهندس الذى كان منذ دقائق فحسب مجرد معلومة فى ذهنه.. فإذا هو الآن يجلس الى جواره بشخصه ولحمه.. ويقدم له يد المساعدة أيضا.. أليس هذا عجيبا..؟.. ويدعو الى التساؤل وإساءة الظنون ؟.. وفعل هذا السؤال فى نفسه فعل الماء البارد فى فاقد الوعى.. فتبددت من رأسه كل الافكار الخاملة.. واختلس الى الرجل نظرة تقطر ريبة وهو ينهى خطبته التى فاته سماع الكثير منها بقوله:**

**- إن البناء والتعمير وإضاءة النور فى الخرائب.. هما مبدأى الأوحد فى تلك الحياة.. وقد قلت لك منذ قليل أننى كنت أبحث عن مكان ملائم.. ربوه.. او مرتفع مثلا.. يصلح لاقامة منارة لارشاد السفن.. ولقد ساقنى بحثى إلى هذا المكان المنعزل الذى قابلتك فيه.. لكنى اعتقد ان هذا المكان.. ليس هو المكان المثالى تماما لإقامة تلك المنارة..**

**وسكت لحظة يفكر او يبتلع ريقه لا يدرى سامح ثم أضاف وهو يوجه نظرة إلى الامام:**

**- لكن.. أتعرف.. انى أحلم بمكان آخر تتوافر فيه كل مواصفات التربة والإرتفاع التى تلزم لبناء هذا المنار.. انه مكان مررت به صدفة ذات صباح ومن يومها وأنا أفكر فيه وأحلم به..**

**وهامت إبتسامة ذات مغزى حار سامح فى إستبيان معناه على شفتى الرجل.. آنذاك.. تأكد لديه أنه يتحدث اليه عن موضوع هام جدا.. فانتبه اليه بشدة وأصغى باهتمام إلى ما يقول وهو يستطرد متصنعا الحزن وخيبة الأمل:**

**- لكن يا خسارة.. هناك بعض الصعوبات فى سبيل الحصول على قطعة الارض التى أحلم بها تلك.. فعليها تقوم بعض منازل أخواننا العرب...!**

**هنا قطع الرجل كلامه ليبصق من النافذة التى على شماله.. وكان فضول سامح قد اشتد أواره لدى سماعه هذا التصريح الخطير، وأراد أن يتفوه بشىء ينفث به عما بدأ يساوره من عدم إرتياح تجاهه.. لكنه غير رأيه بسرعة.. ليتيح له فرصه إتمام حلمه الرائع فأمسك نفسه وهو يتميز غيظا واستطرد الرجل:**

**- آه.. لو ان اخواننا العرب أدركوا اننا نضطر تحت ضغط تحقيقنا لمبدأ سيادة المصالح العامة على المصالح الخاصة او الفردية.. الى مطالبتهم ببعض التنازلات اليسيرة التى نطالب بها جميع الطوائف الاخرى ونطالب بها أنفسنا أيضا..آه..أ.. اذن لتحققت تلك الحياة الموعودة فى اسرائيل.. ولو جد كل إنسان مكانه اللائق فى تلك الحياة.. بغض النظر عن دينه أو جنسه..!.. وارتجف سامح واضطرب وسأل نفسه " إلى ماذا يريد ان يصل هذا الرجل ؟ " وتواردت على ذهنة خواطر شتى فاكتشف بكل الذعر والدهشة والالم حين جرى فكره عفوا الى موقع بيته أنه تنطبق عليه وعلى بقية المنازل المجاورة.. كل الصفات التى يذكرها.. أليس يقع على شاطىء البحر فى مقدمة هذا الشارع الذى يمتد منه جزء كاللسان داخله.. وأليس مستوى إرتفاع هذا الجزء عن سطح البحر أكبر من بقية الأجزاء الأخرى التى ينحدر اليها الشارع كلما توغل الى الداخل بعيدا عن البحر.. وأليست تلك البيوت يمتلكها " الاخوان العرب " ؟**

**- آه..!**

**وشعر بيد الرجل تضغط على يده فى نبضة السماحة والود متسائلا:**

**- الست معى ؟!**

**وبحركة لا شعورية سحب يده فى سرعة وكأن عقربا لدغه.. وعاوده ذلك الشعور الكريه بالغثيان إذ بات يقينا لديه أن الرجل يتحدث عن إزالة منزله لإقامة هذا المنار ربما دون أن يدرى فصرخ:**

**- أنزلنى هنا يا سيدى..**

**- ماذا..؟..**

**- قلت لك انزلنى ولا ألقيت نفسى من السيارة..!**

**فأطاعة الرجل وهو يفغر فاه دهشة.. وفى لحظة كان قد مضى....!....**

**- 9 -**

**ثم لاذ بالفرار الى البيت، لا يعى ولا يشعر بشىء مما حوله، لم تكن أمه قد عادت بعد فلم يجد شيئا يسد به غائلة الجوع سوى بضع لقيمات تبقت من وجبة الصباح جمعها وراح يقضمها بنهم لم يشعر بمثله أبدا ويقضم معها أفكارة.. وهو جالس امام نافذة غرفته المطلة على البحر – تلك التى كان يشغلها والده قبل أن يولى الأدبار الى الحياة الاخرى – يحدق فى زبد الأمواج ويتسمع هديرها.. دون ان يرى او يسمع شيئا.. فقد كان تلاطم أمواج الأفكار فى رأسه أشد، وكان هديرها الصامت فى أذنيه أكثر وقعا.. ولا يدرى كم من الوقت مر عليه وهو على تلك الحال، لكن الذى يدريه بوعى تام أنه لم يهتد الى معنى واحد يعلل له ولو بصوت خافت أحداث يومه وسط هذا الطوفان الغامر من الغموض الذى أغرقه حتى تصبب العرق من جبينه وكاد أن يختنق..! وكأنه كان يفكر فى لا شىء ايضا، حينئذ قرر بصورة قاطعة الا يفكر فى تلك الاحداث ثانية وان يهمل بحث ذلك الامر تماما.. كيلا ينشغل بشىء آخر غير الدراسة، التى كان يرى فيها كل آماله.. بل وآمال أمه إن لم يكن يغالى قليلا فى تقدير شأنه وشأنها، ثم أصبح يرى بعد الذى لاقاه فى هذا اليوم أنها لا تمثل آماله وآمالها فحسب وإنما وجودهما ايضا.**

**ولذا ما أسرع أن استدار الى حيث كتبه وكراساته.. وطفق يستذكر الدروس التى فاته حضورها هذا اليوم بالمدرسة.. واستغرق فيها تماما.. نسى كل شىء.. الى أن إنتبه على صوت الباب يفتح فى الطابق السفلى وكان قرص الشمس الذهبى الدامى ينشر ألوان الشفق فى السحب وينثر على الامواج مجموعة متباينة من ألوان القرمز قبل ان يغيب فى البحر، فأدرك أنها أمه.. وهب يستقبلها بتلك الفرحة التى تعود أن يلقاها بها كل مساء على رأس السلم قائلا بعد ان ضاق بآلام الجوع صبرا " أسرعى.. أسرعى يا أمى"!.. فتقول له وهى تصعد اليه بكل جوارحها " يا بنى الحبيب.. ألا تصبر دقيقة أخرى! " غير أنه الفى نفسه يقول لها تلك المرة على غير ما تعود " أسرعى يا أمى لتخبئينى فى صدرك..! " وصمت ثم اضاف لنفسه وهو يتذكر قول تلك المرأة فى الإصلاحية.. " نوع من الحنان لم آلفه.. هه..! " فقرقرت الام بضعف يشى بإرهاقها الشديد وهى تكاد ان تجذبه اليها بنظرات الحب المغناطيسية فى عينيها.. اثناء صعودها درجات السلم.. وبمجرد ان وصلت آخر درجة ارتمى على صدرها حتى كاد أن يختل توازنها ويسقطان معا لولا أنها تعلقت بسياج الدرج فى اللحظة المناسبة.. وهى تسأله مأخوذة بغرابة أطواره فى تلك الأمسية:**

**- ماذا حدث..؟**

**فأجابها وهو يمعن فى تخبئه نفسه فى ثنايا صدرها متهكما:**

**- إنى أبحث عن نوع من الحنان لم آلفه..!**

**وأبعدته عن صدرها قليلا فى رفق لئلا يتوغل أكثر مما ينبغى فلا تعود تفرح برؤيته ثم صحبته إلى الداخل وهو لا يزال يتعلق بصدرها وعيناه تشرقان بالدمع وكررت السؤال:**

**- ماذا حدث..؟**

**وأمعنت اليه النظر هنيهة لتستوثق من أنه على المرام ثم هتفت:**

**- انى لا افهم شيئا..**

**فأفلت صدرها ثم غمغم وهو يدفعها ناحية " المطبخ " دفعا:**

**- انا نفسى لا افهم شيئا..**

**- كيف..؟.. يلوح لى انك تمزح بمرارة على غير عادتك..!.. آه يا نور عينى هذا من فرط الجوع..!**

**وكفكفت دمعة طفرت من عينيها وتمتمت مستطردة فى شقاء:**

**- الله يقطعنى..!.. أنا أغيب عنك طويلا..!**

**فتعلق بذراعيها مستميتا ليزيح عنها آلام الشعور بالذنب الذى لا محل له قائلا بانفعال:**

**- كلا يا امى.. ليس فرط الجوع.. بل الحب..!**

**وقفز أمامها الى " موقد الغاز " ليشعله وهو يقول متصنعا النشاط والمرح:**

**- دعينى اساعدك..**

**ثم بغته تذكر جارتهما " زينا " وأراد ان يطمئن على شىء ما فسألها وهو يبحث عن عود ثقاب يشعل به الموقد:**

**- هل مررت على الخالة زينا وأنت عائدة..؟**

**ردت عليه قائه وهى " تفك " لفافة تحوى الطعام الذى تجلبة معها كل مساء من المنازل التى تخدمها:**

**- أنت تعلم اننى لم افعل ذلك مرة واحدة منذ مات ابوك.. فأنا لا أكاد اصدق أننى إنتهيت من عملى حتى اجرى اليك عائدة بالطعام!.. لكن.. صمتت لحظة تفكر ثم استدركت متسائلة:**

**- لم تسأل هذا السؤال..؟**

**فأجابها وهو يتلعتم إرتباكا:**

**- لا.. كلا.. لا شىء.. اكثر من اننى تذكرتها فهى لم تزرنا منذ أسبوع تقريبا..**

**وغمرها إحساس فائق بالغبطة لأن إبنها يبدى اهتماما مبكرا بأحوال جيرانه ويشعر بافتقادهم حين يتخلفون عن زيارتهم وتطلعت نحوه بعينين عطوفتين.. عينان زرقاوان.. كان لهما بريقا اخاذا يوما ما.. وتمتمت وهى تتنهد وتبتسم ابتسامة عذبة:**

**- إيه.. تلاهى الحياة يا بنى.. من يدرى.. ربما.. آه.. ما رأيك.. نتناول الطعام ثم نخطف أرجلنا لزيارتها..**

**- نخطف أرجلنا..!؟**

**صاح سامح فى ذعر مفاجىء سارع باخفائه طى نفسه حتى لا تفهم شيئا.. او تلح عليه بالسؤال عن سببه**

**واسترسل متداركا:**

**- آه.. ليس الليلة يا امى.. انى متعب قليلا.. كما ان ورائى دروسا كثيرة استذكرها.. وهزت الام راسها موافقة فى تفهم وهى تغسل بعض الاطباق بجانبه وتقول:**

**- إنك ترهق نفسك بشدة فى المذاكرة يا حبيبى.. انى اخشى على صحتك.. وفجأة تذكرت بدورها شيئا ما فتنهدت تنهدة شعر بها سامح تنفذ الى صميم قلبه وقالت:**

**- لقد كنت رائعا فى حفل الأمس.. هكذا قالت لى زوجه رئيس المجلس البلدى فقد حضرت الاحتفال.. هى إمراة كريمة كما تعلم.. وكان اليوم موعد زيارتى الاسبوعية للعمل لديها.. اتعرف.. هذه المراة الطيبة تحبك جدا.. لقد ظلت تتحدث عنك وعن نبوغك طول الوقت تقريبا..حتى كدت اشعر بالغيرة منها.. وبكيت لأننى لم أستطع رؤيتك وهم يصفقون لك إعجابا بك..**

**وسكتت برهة ثم اطقت زفرة اخرى واضافت:**

**- لكن.. لا جدوى من الاسف.. فهذه حال الدنيا..!**

**وبعد بضع دقائق.. كانا قد انتهيا من عملهما الذى لم يكن يتعدى التسخين والغرف فقد تم الطهو فى بيت آخر وحملا الاطباق الى غرفة نوم الام التى تعودا ان ياكلا فيها.. وجلسا قبالة بعضهما فوق سجادة صغيرة على الارض، لا تكاد تستبين نقوشها وألوانها من مخلفات ترف العهد الماضى، يأكلان فى سعادة وهما يتبادلان النظرات فى حب ويبتسمان لبعضهما.. وتركزت أفكار سامح – إبان ذلك – حول زوجة رئيس المجلس البلدى.. تلك التى تقول امه انها تكن له حبا واعجابا وتساءل " انها زوجة رجل مرموق فهل يكون من الصواب ان اكاشف أمى بما حدث لى اليوم لتحدث تلك الزوجة فى شأنى.. عسى أن تستطيع توسيط زوجها لدى هؤلاء القوم ؟ ورغم وجاهة تلك الفكرة فإنه لم يستطع ان يبوح لها بذات صدره.. حاول.. حاول أن يستجمع شجاعته ويسرد على مسامعها ما حدث.. فآلمه ان يلمس ضعف إرادته وقصورها.. فقد كان صعبا عليه ان يتخيل وجهها حين ينقلب ألما.. فوق انه فكر اولا وقبل كل شىء فى أنها قد حافظت إلى هذا الوقت على إستقلال رأيها فى تدبير شئون حياتهما ودفعت – ومازالت تدفع – ثمن هذا الإستقلال غاليا من راحتها وكبريائها.. الأمر الذى يوقن أنها لن تتردد لحظة فى التضحية به من أجله.. وهو على نفسه أمر أهون منه الموت.**

**- 10 -**

**أمضى ليلته أرقا يتساءل " ترى ماذا يخبى لى الغد ؟" ولم ينم الا قبيل الفجر.. لانه اضطر تعويضا للوقت الذى اضاعه – رغم رادته وعلى غير ما كان قد قرر – فى التفكير فيما حدث وما سوف يحدث وبسبب تخلفة عن الدراسة فى ذاك اليوم ايضا.. الى مضاعفة الجهد فى المذاكرة.. وفى الصباح التالى.. تناول افطاره على عجل ثم انطلق الى مدرسته فأتخذ سؤاله شكلا آخر " ترى هل سأجد الرجل فى انتظارى هذا الصباح ايضا..؟.. وجاءت الاجابة سريعة وحاسمة.. لانه كان يركض – تحت إلحاح هذا السؤال – ركضا.. فاذا به يرى على البعد لحظة إقتحامه الشارع الذى تقع فيه المدرسة.. رجلا يرتدى ذات الحلة السوداء.. يقف على قيد خطوات من البوابة.. فأخذته البغتة وتساءل " ترى هل هو نفس الرجل.. وهل ينتظرنى أنا تلك المرة.. ام ينتظر تلميذا نابها أخر..؟ "..وكان قد دنا كثيرا وهو يفكر مضطربا فى إجابة شافية لهذا السؤال، بحيث أصبح من الميسور عليه وعلى الرجل تمييز ملامح بعضهما.. فرأى – لدهشته – ان الرجل وإن كان يبدو – فى مظهره – مطابقا تماما لرجل الأمس.. بيد انه رجل آخر غيره، والذى ما إن وقعت عيناه عليه حتى أسرع بالإنصراف من المكان.. فتسمرت أقدامه بالأرض حيرة وراح يفكر – بالذهول كله – فى معنى هذا وهو يتابعه بنظراته الى أن أوشك على الاختفاء فى الشارع الجانبى.. حينئذ ألقى الرجل عليه نظرة أخيرة.. كأنما يؤكد له بتلك الحركة أنه وحده – ولا أحد غيره – المقصود بوقوفه فى هذا المكان – ثم توارى فى الشارع.. وفى التو خرج سامح من تفكيرة هذا بنتيجة هامة مؤداها أنهم يريدون الإيحاء اليه بان منظمتهم يعمل فى خدمتها اكثر من رجل.. وأنه إن لم يأخذهم على محمل الجد فإنه سيجد نفسه فى مواجهة واقع لا قبل له بملاقاته، وتذكر فى تلك الآونه أن المرأة لحظة مغادرته " الاصلاحية " قد وجهت اليه تهديدا سافرا بقولها له انه سيأتى اليهم رغم انفه لانه يعلم ان لديهم مفاتيح لكل البيوت.. فوجد قدماه تسوقانه دونما إرادة الى أخذ الطريق المفضى الى تلك " الاصلاحية "..**

**لم تكن المسافة التى عليه ان يقطعها قصيرة.. ومع ذلك لم يفكر فى الركوب.. لانه لم يكن يملك نقودا تكفى حتى لركوب " أتوبيس ".. ولم يكن يشعر بالقلق لهذا.. لأن القلق الذى إعتراه بسبب خنوعة القهرى هذا، كان اكبر مما عداه.. فراح يغز السير فى كآبه ووجوم.. ولا يدى كم من الوقت مضى.. ولا كيف وصل.. المهم انه وجد نفسه اخيرا يدفع باب الاصلاحية ويدخل من غير تكلف كما لو كان يدخل بيته.. فى قلبه وجيب الترقب والحذر وفى عينيه بريق من أتى نشاطا غير متوقع.. ليرى نفس المرأة.. جالسة عين الجلسة.. والتى ابتدرته قائلة دون ان ترفع رأسها إليه لترى إن كان هو أم لا:**

**- إنى سعيدة لأنك جئت إلينا مبكرا هكذا..**

**ثم قليلا قليلا.. رفعت وجها باسما إليه.. واستدركت بعد لحظة صمت وأناملها تتحرك بأشغال الإبرة فى آليه ماهرة:**

**- انك بهذا تضيف الى معلوماتنا عنك معلومة اخرى.. فأنت تخضع عواطفك لعقلك.. فوق أنك ذكى ومتفوق..**

**صاح متسائلا فى تذمر:**

**- ثم ماذا ؟**

**- ألا تحيينى أولا ؟**

**ونهضت من مكانها وهى تنفض يديها من اشغال الابرة.. وتمد اليه يدها لتصافحه مستطردة :**

**- اذا كان الواقع يأبى أن نكون أحباء.. فلا بأس من أن نكون أصدقاء..**

**- هكذا إذن.. ولم نكد نتعارف..**

**قال ذلك وهو يقدم اليها يده على مضض.. فضغطت عليها بحرارة.. قل أن تتوفر لصديقين تعارفا منذ الصغر فى لقاء أتى بعد فراق طويل.. وأبقت يده فى يدها مدة خيل اليه بها انها تتعمدها وهى تحملق فى عينية.. دون ان تتفوه بكلمة.. كأنما تفكر.. ثم اخيرا قالت باقتضاب لا يتفق وهذا الاسهاب الذى حدثت به يده:**

**- اعتقد اننا تعارفنا فى زيارتك السابقة بما فيه الكفاية.. ليكن.. اسمى سارة..!.. هتف يصطنع المرح: - يا للمفاجأة السارة!**

**فقهقهت وهى تسحب يدها فى ليونة قائلة إبان ذلك:**

**- لا تكن منافقا.. انى اعلم ما يدور بخلدك..**

**- كيف..؟**

**- لابد انك تقول فى نفسك اسم على غير المسمى..!**

**- آه.. ليكن.. هذا حق.. والآن..**

**سكت لحظة ثم استتلى وهو يشير الى الباب المغلق دائما خلفها:**

**- ألا تقولين لى ماذا يخبىء هذا الباب..؟.. وأين هم التلاميذ النوابغ الذين تصلحون افكارهم..آه.. اقصد نفوسهم.. لا وإنما.. ؟.. أنا فى الحقيقة لا اعلم حتى الان مغزى إطلاقكم اسم إصلاحية على هذا المكان.. فهل هو للترضية.. ام للإستفزاز.. او السخرية..؟! ثم متى ابدا الدراسة ومتى أقابل الكاهن..؟!**

**إنهالت تساؤلاته فى إندفاع وحيرة على هذا النحو فأسرعت تجيبه وهى تعاود الجلوس وإلتقاط أشغالها:**

**- لا تكن عجولا.. ستعرف كل شىء فى حينه..**

**وأجفل هو لاجابتها المضجرة وتأمل المكان حوله فى توتر وقد عيل صبرة وصاح منفجرا:**

**- أوووه.. لم أعد احتمل!.. كل هذه القسوة الفظيعة وهؤلاء الرجال المتغطرسون الذين ترسلونهم فى إنتظارى امام المرسة.. وهذا المبنى المريع.. وعيناك اللتان تحاصرانى من كل جانب كلما تعطفت على بنظرة بين لحظة وأخرى.. وأشغال إبرتك المملة..!.. والكاهن الذى لا يأتى ابدا..و..**

**كاد يقول " ومفاتيح البيوت التى تحتفظون بها للعمل وقت اللزوم " ثم عدل كيلا يعترف بنقطة ضعفة التى يفترضون وجودها ويحاولون إستغلالها بترو الفرض القائم لاإقدام اليقين القاطع.. مستأنفا حديثة بنفس اللهجة:**

**- أوه.. يا الهى.. لم لا تدعوننى وشأنى..؟!**

**ثم وكأنه يستحثها للكلام بإفاضة تساءل بلهجة أقل حدة:**

**- إنكم تحبون لى الخير.. اليس كذلك ؟**

**وأبدت سارة جمودا غريبا حينما بلغ به الأمر تلك المرحلة.. ونظرت إليه من خلال أصابعها.. ولم تنبس بكلمة فخارت قواه.. والقى بنفسه فوق السرير جالسا وهو يكبح جماح غضبة حتى لا ينتحب كالطفل الذى أبى أن يكون..!.. وزحفت الرهبة الى نبرات صوته وهو يقول:**

**- يا إلهى.. لقد إنغرست عيناك فى شغل الابرة كما ينغرس الذباب فى العسل..!.. أخبرينى بربك.. ما معنى هذه اللامبالاة المقصودة.. أتريدين أن أموت غيظا..! وبغته إمتلأ صوته قوة وتصميما واستدرك:**

**- اذن.. إعلمى اننى لست من هذا الصنف من الفتيان.. وأن أيسر شىء أفعله هو أن أدير لك ظهرى وأذهب كما فعلت بالامس..**

**- اخلع ثيابك..!..**

**- ماذا.. ماذا تقولين.. اوصلت المهزلة إلى هذا الحد..؟!**

**وضحكت سارة ضحكتها الناعمة.. الزلقة.. ثم غمغمت فى ابتهاج وعيناها تلتمعان:**

**- يا للصبى العابث..!.. يا للصبى الماجن!.. انت تبوح برغباتك الدفينة مدعيا الإنكار دون ان تدرى!.. مع اننى لم أعن هذا قط.. ماذا تظننى..؟.. إمرأة ساقطة ؟.. أيكون الأمر فقط هكذا.. نكلف أنفسنا كل هذه المشقة فى استدراجك الينا.. لمجرد هذا الامر..!.. أى فتى خيالى أنت.. إنى أقول لك إخلع ملابسك وذلك من اجل الكشف الطبى عليك.. لا من أجل هذا الجنون الذى ترغبه فى أعماقك!..**

**- اهناك كشوف طبية أيضا..؟**

**- طبعا.. اتظن اننا نلعب..!؟**

**- ومن الذى سيكشف على.. أنت..؟**

**- الديك مانع..؟**

**قالت ذلك ثم وضعت اشغال الابرة على المكتب وهى تتنهد معبره عما يجيش بصدرها من سأم وتحولت ناهضة بتثاقل مفتعل الى الخزانة البيضاء التى بجانبها وفتحتها قم اخرجت منها حافظة جلدية خمن انها تحتوى الادوات الطبية العادية التى تستخدم فى الفحص الطبى ثم سارت نحوه وهى تقول مفتعله الضيق والبرم:**

**- ماذا..؟.. الم تخلع ثيابك بعد..؟**

**فلم يتكلم ولم يبد حراكا.. وكل الذى فعله هو الحملقة فيها مستريبا.. حينئذ صاحت فى ضيق حقيقى:**

**- أتظن فعلا أننى ألهو معك ؟.. قم اخلع ثيابك وكفى بحلقة فى.. لست قطعة حلوى.. انا اجيد فنون الطب.. لكنك لا تدرى..!..**

**ولما رأت إصراره وعناده وضعت حافظة الأدوات جانبا على الفراش.. ثم استدرات اليه واخذت تخلع عنه ثيابه بنفسها حتى تعرى تماما.. واستشعر البرد واصابة بعض الخجل وهى تفحص أجزاء جسده فى آليه ورتابة.. دون ان تعمد الى إثارته.. كما فعلت فى لقاء الأمس.. بل بدت جادة تماما وهى تضع فى راسها أفكارا تفندها فى ذهنها برهة ثم تكتب رموزا غير مفهومة فى دفتر وضعته بالقرب من متناول يدها وهى تجرى فحوصها التى لم تستغرق أكثر من بضع دقائق.. قالت بعدها بلهجة آمره:**

**- أخرج لسانك..!**

**لم يفعل ففتحت فاه عنوه!.. ونظرت الى لسانه ثم الى حلقه وقالت بعين اللهجة:**

**- قم.. تمشى.. أرنى قوامك..!**

**أبى أن يفعل أيضا.. فجذبته من يده جذبة عنيفة ثم دفعته الى منتصف الردهة.. فاستسلم يعروه الخجل ويأخذ بخناقة الضيق والسآمه – فألقت عليه نظرة طويلة متأنية.. ثم قالت بحزم:**

**- يكفى هذا.. يمكنك ان ترتدى ملابسك الآن..**

**وكتبت آخر رمز فى دفترها قم جمعت أدواتها ووضعتها فى حافظتها الجلدية.. وخطت نحو الخزانة الحديدية فى جدية عميقة.. بدت لسامح غريبة غاية الغرابة وتنأى بعيدا عن روح الغواية التى ترسبت فى أعماقه عنها، فارتدى ثيابة فى سرعة وهو يختلس ابان ذلك نظرات التساؤل وعدم الفهم اليها مخرجا لسانه لها.. لكن بارداته تلك المرة!.. على حين ابتسمت هى وهزت كتفيها بإستخفاف ثم أعادت الحافظة الى ماكنها.. وجلست ثانية ثم تناولت اشغالها وانخرطت فى العمل فيها وقد نكست رأسها على صدرها.. كانما تتحاشى نظراته كيلا تضطر الى التسليم له بحقة فى إيضاح أو تفسير.. حينئذ هتف بها فى حنق وكمد شديدين:**

**- وبعد أيتها السيدة..؟!**

**وكأنه أصبح يعتقد انها الانسان الوحيد فى هذا المكان، اذ فوجىء تماما حين دلف من الباب فى تلك الاونة شاب داخلا ثم خطا نحوها دون ان يهتم بالنظر اليه وأسر فى أذنها بشىء لم يسمعه وهزت له هى رأسها علامة على الفهم والموافقة.. ثم انتظرت حتى خرج وهو ينظر أمامة فى لا مبالاه فابتسمت بطريقة مبهمة وغمغمت:**

**- قد إنتهى عمل اليوم.. إنصرف الآن.. ثم عد الينا غدا فى نفس الميعاد.. هيه.. أتفهم.. نفس الميعاد لاجراء بعض الإختبارات الأخرى.. وإياك ان تسألنى اكثر من هذا وإلا فقدت سرروى بشجاعتك وعطفى عليك.. نعم فأنا أعاملك حتى الآن.. معاملة الاخت الكبيرة لأخيها الصغير..إذهب.. إذهب وإلا خلعت عنك ثيابك لأمر آخر واضطررت آسفة إلى تحقيق ظنونك..!!**

**- 11 -**

**مع ان صوت العقل كان يحذر سامح قائلا " انفذ بجلدك من هذا المكان! " فانه لم يتحمس كثيرا لفكرة الانصراف هكذا دون ان يعرف الحقيقة التى أبت " سارة " ان تميط اللثام عنها.. وراح يردد لنفسه فى وقفته الجامدة أمامها " إنها لم تجب على سؤال واحد من أسئلتى يمس من قريب – او بعيد -.. حقيقة الأمر.. وبعد ذلك تطالبتى بالانصراف بعد كل الذى تحملته من مضايقات وتضحيات بهذا الهراء عن معاملة الاخت للأخ وخلع الملابس وتحقيق المخاوف.. لا إننى لن اذهب ثانية وليكن ما يكون! ".. ثم ما أسرع.. ما أسرع ان تراجع عن قراره حين فكر فى انه يستطيع ان يستقى بعض المعلومات باستمالة الشاب الذى خرج منذ نحو دقيقة.. إن إهتبل تلك الفرصة وعجل باللحاق به، بعيدا عن رأس هذه المرأة الصلد.. الذى أيقن أنه لن يلين له مهما حاول..!**

**وفى لمح البصر كان قد إندفع خارجا.. ثم أجال نظره فى أرجاء المكان باحثا عنه فى لهفة.. فرآه يخطو بعيدا فى الطريق المؤدية الى الخروج من الغابة.. ولم يضع وقتا.. طفق يجرى فى إثره وهو يقول لنفسه " انهم جميعا.. جميعا.. يأتون هنا لقضاء حاجة ثم يسارعون بالإبتعاد وكأن فى هذا المكان لعنة تلحق كل من يطيل البقاء فيه.. باستثناء تلك المرأة.. ومن أيضا ؟.. انا لا أدرى بعد.. لا أدرى.. لا أدرى ولاحظ ان خطوات الشاب تبدو أسرع مما قدر فالمسافة بينهما لازالت كما هى تقريبا.. رغم انه كان يجرى وكان الآخر يمشى فقط.. وكأنه قد ركب فى رجليه – وهو يمشى – موتور سيارة.. يا إلهى..!.. فضاعف من سرعته ورفع عقيرته بالصياح مناديا " أيها الشاب.. ايها الشاب ".. بدا له ان صياحة لا يجدى، فقد اختفى الشاب فى منعطف الطريق الذى ينتهى بعد بضعة امتار الى الطريق العام.. بينما لم تزل المسافة بينه وبين هذا المنعطف طويلة على قصرها..!.. وتمنى فى تلك اللحظة لو تسنى له ان يركب فى حلقة مكبر صوت مثلما اتيح لهذا الشاب ان يركب فى ارجله هذا الموتور.. وهو يتسمع بخوف دقات قلبة التى راحت تخفق فى عنف كأنها تقول له فى شماته " سأخذلك.. سأصيبك بالفشل الذريع!" ثم أنفاسه التى راحت تضيق وكأنها تقول له بدورها " سأهرب منك حتى تقع مغشيا عليك!".. فتوقف هنيهة يلتقطها قبل ان تنفذ ما ازمعت من قرار، ثم عاود الجرى وهو يردد لنفسه " مازالت هناك بقية من أمل!" ووصل المنعطف ثم انحرف مغيرا مسار جزئيات جسدة فى حدة فجائية كاد ان يتعثر لها، وقطع الأمتار الباقية فى تلهف وتوتر شديدين ووقف عند " رأس الطريق " يحملق وهو يلهث باحثا وكله أعين ترى عن الشاب.. لا.. إنه لم يقع له على أثر.. وكأن الارض قد انشقت وابتلعته، وهز رأسه بمراره ومضى يضغط قبضتى يديه متجلدا وهو يستشرف بعينيه لجة البحر الزرقاء المترامية الأطراف.. على مدى البصر ويتأمل حواف أذرع الموج وهى تتوالى ويسابق بعضها بعضا لبصق الزبد وصفع وجه الشاطىء الخانع فى مذلة، مستروحا فى نهم الانسام الندية التى تدافعت فى رئتيه لتهدىء سورتها.. ورفت حول وجهه لتلطف من حرارته وتجفف عرقة فى عطف ليس مثله إلا عطف أمه..!.. فانسرق عن نفسه وشرد بعيدا يفكر فى المجهول الذى يوازى التفكير فيه التفكير فى اللاشىء.. شرد طويلا لينتبه على صوت فخيم يصيح به:**

**- ايه..!.. انت.. ماذا تفعل هنا ثانية..؟**

**ونظر الى الجهة التى هب منها الصوت مفزعا إياه فرأى ذلك المهندس " ألون " يقف الى جوار سيارته فى زهو وخيلاء لا يماثلها إلا ما تخيله من إستكانة وأنوثة تلك السيارة الرائعة ولا يدرى لم شعر ببعض الراحة لرؤياه تلك اللحظة.. كان يشعر فى صدره بغضب شديد مكبوت فقال لنفسه " إن بينى وبينه حسابا لم أصفه بعد " ثم هرع اليه وبادرة مصنعا البشاشة قائلا:**

**- ها نحن نلتقى ثانية فى هذا المكان يا سيد الون.. وانى لسعيد برؤياك..!..**

**فافتعل الرجل – بدورة – إبتسامة صافية وقال وهو يعطيه يده ليصافحة:**

**- انى ابادلك نفس الشعور يا بنى..**

**تصافحا.. واضاف الرجل بعد سكتة قصيرة:**

**- وان كنت قد ظننت انك قد غضبت منى بالامس لسبب لا اعلمه حتى الآن..**

**" لا يعلمه.. هه..!.. " همهم سامح متهكيا فى أعماقه ثم قال فى ود مفتعل:**

**- لا تشغل بالك.. ان لى اطوارا غريبة احيانا..!**

**- هكذا الامر اذن..**

**- بكل تأكيد.. ولكى أبرهن لك على صدقى أقول أننى تأثرت تأثرا بالغا بحلمك الرائع فى إقامة هذا المنار على أنقاض تلك ال.. اقصد بعد ازالة انقاض تلك المنازل من هذا المكان المنشود.. فأجريت بعض التحريات الأولية عن مكان تلك المنطقة وخرجت بمعلومات هامة قد تفيدك..!**

**نظر الرجل اليه من ركنى عينية ثم هتف:**

**- رائع..!**

**فاستطرد سامح:**

**- أتعرف..!.. شىء لا يطمئن إطلاقا..!.. فالبيت الذى يتصدر تلك البيوت فوق اللسان الصغير مباشرة يقطنه تلميذ يتيم فى السنة النهائية بالمدرسة الابتدائية مع ام مسكينة تستجدى قوتها بالتهاب الأيدى.. أما البيت الذى يجاورة فتسكنة عانس فى نحو الاربعين.. وهى ليست عانسا بسب قبح فى خلقها او خلقها.. بل لأنها وجدت نفسها ذات يوم وهى فى يفاع’ صباها مخيرة بين الزواج وبين تربية أولاد.. شقيقتها الستة.. الذين فقدوا أباهم وأمهم فى إحدى مذابح التصفية..!**

**- كفى..!**

**- مضت تعمل خادمة فى البيوت الى ان قوى ساعد اكبر الابناء فتولى عنها أمر إعالتهم.. وهو الآن يعمل ساعيا فى مكتب البريد ويخشى ان تقع عيناه على فتاة جميلة فيحبها لانه رغم انه سيكون صادقا فى حبة الا انه لن يستطيع الزواج بها.. ولهذا هو يعيش مع خالته واخوته واخواته فى عزلة مجردا من كل حب..!**

**- كفى هذا..!**

**- اما البيت الذى يقابله تماما فيقطنة رجل كهل مع مجموعة من الاطفال.. لا تربطهم ببعضهم او به علاقة.. سوى تلك التى التقطهم بها من وهدة الجوع والبرد حيث كانوا يسيرون حيارى.. لا يعرفون لهم أبا أو أما.. بعد أن..**

**- كفى ايها الفتى..!**

**- دعنى اكمل لك تحرياتى ففيها تفاصيل جد مسلية..!**

**- قلت لك كفى والا ألقيت بك فى البحر..!**

**لم يبال سامح بتهديد الرجل وسورته المفاجئة واستمر يقول:**

**- اما عن موقع هذه البيوت الذى تحلم بامتلاكه.. فانى أرى أمامنا.. أنظر الى.. تلك الربوة الممتدة فى إستواء تام.. كما لو كانت سكينا غرسته الغابة فى صدر البحر..!.. انظر.. انى اعجب كيف لم تحلم بها مع انها..**

**كان ابان حديثة يشير باصبعة الى الربوة المقصودة حين ضربه الرجل على يده مسقطا إياها الى جانبه مقاطعا:**

**- قلت لك كفى انى لا امزح معك.. يا الهى.. سارمى بك فى البحر ان لم تسكت..! فاستتلى سامح يقول وكانه لا يقدر ان يوقف نفسه:**

**- انى ارى فيها على الاقل.. كل خصائص المكان الملائم لاقامة منار.. فمن ناحية الارتفاع..**

**وفقد الرجل توازن اعصابة عند هذا الحد من الكلام فرفع الفتى بين ذراعيه وسار به ناحية البحر وهو يهمهم فى غضب وكمد بكلام غير مفهوم.. على حين واصل سامح حديثة دون ان يأبه لما يجرى له كما لو كان قد جن جنونه:**

**- هى لا ترتفع الى الحد الذى يجعلها صعبة المرتقى!.. ولا تنخفض الى حد الاستسلام لأكل البحر..!**

**صاح الرجل به بغيظ كاد ان ينشب من شدته أسنانه فى صدرة وهو يجرى به نافذ الصبر الى البحر..**

**- سألقنك درسا لا تنساة.. ساعلمك كيف يكون اكل البحر نافعا..!**

**بينما استرسل الآخر بنفس اللامبالاة المجنونة التى لا تشعر ولا تعى ما يراد بصاحبها:**

**- ومن ناحية تركيب التربة.. أرى..**

**ولم يكمل قولته.. اذ وجد نفسه فجأة يصطدم بالقاع الضحل للبحر، وغطته موجة عاتية كتمت أنفاسه ثم انحسرت عنه وقبل ان تهاجمه موجة أخرى أسرع منتصبا على قدميه وهو يرتعش من البرد والبلل الذى أغرق ملابسه وجسده..**

**وكان الرجل قد انطلق فى ضحك عاصف حين خلص الغلام اقدامه من زبد الامواج التى تدافعت فى نهاية هجومها على حافة اليابسة.. وتقدم الى الارض الجافة مستطردا فى حديثه الذى بدا كأنه لم يقع شىء مخيف يقطعة:**

**- انها تربة صلدة بدرجة كافية لإرساء أساس متين يقاوم عصف الريح.. اما التربة تحت تلك البيوت فهى هشة كأصحابها..!.. فضلا عن أننى أعتقد..**

**وكان قد اقترب تماما من الرجل الذى أغاظه بقسوة شديدة.. أن يتجاهله ويسخر منه الفتى على هذا النحو المخزى فانقض عليه كالباشق وحمله مرة ثانية واندفع الى البحر، فاستأنف حديثة إبان ذلك قائلا**

**وكأنه فقد عقلة وشعوره نهائيا:**

**- إن المنائر شانها شأن أى مشروع يراد له النجاح.. لابد ان تقام فى مكان معزول.. لا فى مكان يكتظ الزحام والضجيج على مقربة منه.. كيلا ترتبك حركة العاملين فيه ويفقدون قدرتهم على تمييز نوع السفن التى..**

**ومرة اخرى.. وجد قاع البحر الضحل الرخو يلطمه بعنف أدمعت له عيناه تلك المرة وأوشك ان ينهار ويتداعى مستسلما للامواج التى كادت ان تبتلعه وتلقى به فى جوفها الى الأعماق السحيقة، غير انه بقوة عاتيه لا يدرى من اين واتته.. قاوم وهب من رقدته وشاء حسن طالعه ان تهب موجه قوية فى تلك الاونة باتجاه الشاطىء فحملته على اوفاضها والقت به الى الارض ثم كادت ان تجرفه معها فى إنسحابها لولا انه تشبث بالارض ونشب فى رمالها أظافرة فنجا منها.. ولأنه كان يعلم انه سيأتى فى أعقابها موجة أخرى لا يدرى مدى قوتها.. أسرع بالنهوض وقفز للأمام بكل جسدة ناحية الرجل الذى كان لا يزال يدوى بالضحك فاستقر من قفزته تماما فى ذراعيه المفتوحتين وسقطا معا على الارض، وانتصب سامح من سقطته مذعورا وهو يغمغم مواصلا ما انقطع من حديثة كالمعتوه:**

**- التى ترسل اليهم الاشارات الضوئية واللاسلكية.. وما اذا كانت سفن شحن ام سفن استجلاب المهاجرين اليهود من شتى بقاع العالم..!**

**فنهض الرجل على قدمية غاضبا ممرورا قد اذهلته السقطة التى نالها بعض الشىء.. واتجه واثبا نحوه ثم رفعه الى أعلى باتساع ذراعية والقى به ارضا تلك المرة.. اذ كان بينهما وبين حافة الماء مسافة.. ابعد من مرمى الذراعين ايا كانت قوتهما وهو يزأر بقوله:**

**- تقول مهاجرين أيها الصبى الاحمق..!.. مهاجرون وهو وطنهم الأوحد الذى طردوا منه ووعدهم  
 به الله..!..**

**ثم القى على الفتى الذى اخذ يتلوى فى ضعف ويئن أنينا خافتا من عنف الصدمة التى قرعت مؤخرة رأسه نظرة زجاجية مقيتة وبصق على وجهه وهو يدمدم قائلا:**

**- كلب...**

**وفى التو رجع الى سيارته فى زهو وخيلاء لا يماثلها إلا إستكانة وأنوثة تلك السيارة الرائعة، وركبها وانطلق بها مثيرا زوبعة من الغبار خلفة.**

**- 12 -**

**" آه.. آه.. يا ربى.. لم يمهلنى.. الرجل.. لأكمل بقية الكلام "**

**كانت تلك الكلمات هى كل ما استطاع سامح ان يقوله بعد ان إستفاق من إغمائه الذى لا يدرى كم من الوقت استغرق فيه، وهو منطرح على ظهرة بين رمال تلك البقعة الخالية من الشاطىء التى القاه الرجل فيها وذهب لا يلوى على شىء.**

**وأدار عينين زائغتين أحرق جفونهما ملح الماء الجاف المتعلق بأهدابه وبددت بؤرة إبصارهما أشعة الشمس اللاهبة الخاطفة ليرى ما إذا كان هنالك أمل فى أحد على مقربة منه يأتى اليه ليساعدة – بلا مقابل – فلم يستطيع وهو فى هذا الوضع أن يرى أبعد مما يراه عادة وهو نائم على ظهره، مما اضطره الى رفع رأسه قليلا ليتيح لعينيه مجال رؤية أعرض.. فاحس كان لهيبا قد تأجج فى مؤخرتها وتأوه.. وتحسسها من الخلف فراعه أن تلمس أنامله طبقة رطبة لزجة يختلط فيها الشعر بالرمل.. سحب يده بسرعة ثم نظر الى أصابعه وهو يهتف فى جزع:**

**- دم..**

**ثم على الفور.. إعتمد بكفية على الارض ورفع أنقاض ظهره رويدا وهو يشعر ان قواه كلها قد تضعضعت وان عظامه قد تكسرت وتفككت، واستدار بجزعه " المخلوع " قليلا.. ثم القى نظرة واجفة على المكان الذى كانت تتوسده رأسه فراعة مرة ثانية ان يرى بقعة من الدم قد تشربتها الرمال وكرر صيحته بفزع اكبر:**

**- يا الهى.. دم..!**

**وخالط رعبة هذا شىء من الذهول وهو يرى فى مركز تلك البقعة تماما.. قطعة مستوية من الزلط غائصة فى الرمال ولا يبدو سوى سطحها الأملس الملوث بالدم.. فأدرك السر الذى افقدة وعية والذى لم تكن للرمال الرخوة أيه جريرة فيه.. وعرج بفكرة الى ما حدث فغاب فى مسارب نفسه برهه إنتبه بعدها ليجد لسانه يردد فى لاوعى:**

**- آه.. يا ربى.. لم يمهلنى الرجل لاكمل له بقية الكلام..**

**وانهمرت دموعة سخية وقتا أدرك انه ينفقة بلا حساب، لا سيما وان عليه ان يقطع مسافة طويلة.. وطويلة جدا وهو بتلك الحال حتى يصل البيت قبل ان تؤوب أمه وإلا ما انطلت عليها " الكذبة الصغيرة " التى سيخادعها بها قطعا لتبقى بمنأى عن الاحداث الحقيقية.. والتى يشترط لإنجاح خطته ألا يأمل فى معاونه أحد، ليس فقط لأنه ليس على ثقة من أن هذا الأحد سيتطوع ليساعدة دون غرض.. وإنما ايضا كيلا يعلم ثالث غيره وغير الرجل انه تعرض لإعتداء فحينذاك يصل الخبر الى مسامع أمه ويجدها فجأة فى يؤرة الاحداث امامه..**

**وعمل التفكير بتلك الوتيرة فى أمه عمل السحر فى بدنه فشعر بفورة من النشاط تتدفق فى أعطافه وترفعه عن الارض رفعا.. وتسرله الى ماء البحر المالح ليغسل جراحه وينظفها مما علق بها من رمل، متحملا بعناد وأمل مصبور تركيزها الملحى الكاوى المطهر.. ثم انقلب الى ثيابة التى جفت تقريبا فاخذ يخلعها وينفض عنها الرمال.. وحين إطمأن الى انه قد ازال حد كبير اثار ما حاق به من أذى إرتداها وهو يرتعد من البرد القارس.. ثم نظر الى السماء ليعرف اين هو من النهار فامتلأت عيناه بضوء الشمس الباهر فاغمضهما وتطامنت نفسه مدركا ان الوقت ما يزال فى صالحه.. ومضى يغز السير حثيثا الى البيت متحاشيا الطرق المزدحمة ويفكر فى لاشىء فقد كان هذا الجرح فى مؤخرة رأسه يؤخزة ويحول بينه وبين إعمال الفكر بتعمق فى امر معين.**

**ولبث هكذا يدفع اقدامه الى المسير ويزجرها إن تباطأت إنهاكا او يأسا الى ان وجد نفسه ولا يدرى كيف امام البيت فتنفس الصعداء فى ارتياح وهو لا يصدق انه قد وصل بتلك السرعة التى لم يتوقعها او يحلم بها، فما زال ضوء النهار قويا يقول له ان بينه وبين اوبة أمه فسحة من الوقت يستطيع إستغلالها فى تهدئة روعه وإراحة جسده وفى أولا وقبل كل شىء تطهير ذلك الجرح بهذا المطهر الذى كان يعجب من حرص امه على الاحتفاظ به فى دولاب الملابس ثم ادرك الآن أنه لم يكن على حق فى عجبة هذا. كان لا يزال يقف امام الباب وهو يفكر هكذا.. وبغته أدرك انه ليس من الحيطة ان يطيل امد وقوفه فى هذا المكان فقد تطل الجارة زينا من نافذتها وترى ملابسه التى لم تكن خالية تماما من اثار البلل والرمال فتستدرجه فى الحديث عن يومه وحينئذ لا يضمن ألا تفهم شيئا من إختلاجة.. او نظرة.. او نبره.. فهى إمرأة ذات فراسه.. فأسرع بفتح الباب ومع ذلك خيل اليه وسط هواجسه انه يسمع صوتا نسائيا يناديه إبان دخوله.. وبالطبع تجاهل الأمر وصعد الى الطابق العلوى ثم اغتسل وغير ثيابة وطهر جراحه فشعر بالدفء وبقواة تعود اليه شيئا فشيئا.. وأيقن أنه لن تعود امه حتى يكون قد استرد حيوته كلية.. فغمرة الفرح وهتف:**

**- لن تعرف شيئا.. لن تعرف شيئا..!**

**ثم بحث عن شىء يتبلغ به فوجد لحسن حظة كمية من الطعام أوفر من التى ألف العثور عليها كل يوم بعد عودته من المدرسة.. ولم يكن بحاجة الى التساؤل عن السر فى هذا لأنه تذكر انه لم يصب غير بضع لقيمات من إفطارة، وحمل الطعام الى غرفته ثم وضعه على المكتب الذى كان لأبيه المدرس، وراح يلتهمه بشدة وشهية لم يستشعر مثلها من قبل، ودن ان ينشغل عنه بالنظر الى منظر البحر كما تعود.. الى أن أنهى عليه فشعر بمزيد من القوة وصفاء الذهن.. ربما لم يسبق له ان احس بمثلهما ايضا.. مما جعله يزيح عنه رغبة فى النوم واتته بعد ان إمتلات معدته بالطعام وشعر بالخدر والإسترخاء لانه كان قلقا فى اعماقه لضياع يوم اخر فى غير الدرس والتحصيل، فأدرك أن أنجع علاج لهذا القلق ان ينطوى على كتبه ويلتهم ما وسعه ذلك ما فاته من معلومات.. وعلى الفور تناول جدول توزيع " حصص الدراسة " على أيام الأسبوع.. ثم حدد لنفسه القدر من العلوم التى عليه ان يذاكرها، وانكب عليها فى تحمس الى ان سمع صوت مفتاح يصلصل فى قفل الباب الخارجى، وكان فى تلك اللحظة قد استوعب الى حد كبير ما فاته من دروس فنهض يستقبل أمه بهمة تحير ان تتوفر له بعد ما مر عليه فى يومه من احداث جسام وبقدر عظيم من الشوق والفرحة ايضا.. راح ينتظر صعود امه اليه فى صبر وتؤده على غير ما تعود الاثنان.. الامر الذى جعلها تسأله وقد امتزج فضول طفيف بابتسامة عينيها العذبة قبل بضع درجات من وصولها اليه:**

**- الست جائعا..؟**

**فأجابها وهو يستقر فى احضانها بشوق وعيناه تشرقان دمعا:**

**- جائع الى حبك فقط..**

**غمغمغمت بصوت يتهدج إنفعالا وحدبا:**

**- يا إلهى.. سامح.. أنت تبدو لى عاطفيا تلك الايام اكثر قليلا مما تعودت ان اراك، ثم صمتت لحظة وتساءلت:**

**- هل حدث شىء ؟**

**-........................**

**- لقد استحممت وغيرت ملابسك.. اليس كذلك ؟!**

**سألته وهى تمرر اناملها على شعره أماما وخلفا فى حنان وحب.. فلمست جرحة لمسة طفيفة جعلته يتأوه حتف أنفه فصاحت وجلا:**

**- إنك تتألم من مؤخرة رأسك.. ماذا حدث لك اليوم يا بنى ؟**

**فتمتم وهو يدارى آلامه جاهدا ليهون من أمر الجرح بتلك الضحكة الصغيرة المفتعلة:**

**- إطمئنى يا أمى.. إنه جرح سطحى أصابنى حين زلت قدمى فوقعت وانا اشارك زملائى لعبة كرة القدم فى حصة التربية الرياضية..**

**- أواثق أنت من أنه سطحى.. أرنى رأسك..**

**ومع رغبته الشديدة فى ألا يريها جرحه كيلا يؤلمها.. فانه لم يمانع لأنه رأى أنها أصلح إنسان للحكم على مدى فداحته فأعطاها رأسه راضيا.. ولم تكد تزيح الشعرات عن مكانه وتراه حتى أطلقت شهقة ألم مكتومة وصاحت به وهى تدق صدرها بقبضة يدها مفلتة رأسه:**

**- يا حبيبى يا بنى. هذا الجرح غائر جدا..**

**فتناول يدها بين يديه وراح يضغطهما ليطمئنها ويقول:**

**- إنك تبالغين كثيرا كعادتك حين يصيبنى مكروه.. مع أنهم فى المدرسة فحصوه وانتهوا الى انه سحطى ولا يحتاج الى اكثر من تطهير بالمطهرات العادية.. ورمقته هى بنظرة تقول " اتمنى ان اصدقك " ثم تمتمت فى صوت خافض:**

**- صحيح..!**

**- اجل والله.. هيا يا امى.. هيا.. الى المطبخ لنذهب من فورنا.. ساعاونك على تسخين الطعام الذى.. آه.. بنفسى ان تصنعى لى الطعام يوما بيدك هنا، قال ذلك وانفعالات شتى تصطخب فى قلبه فانحنى على يدها ولثمها مسترسلا بدموعه:**

**- يا أحب أم.. يا أطهر يد.**

**وانتحب باحتراق بغته دون إرادته فألقته أمه على صدرها وراحت تضمه وتضغطه اليها وتشاركه دموعه واثناء ذلك تغمغم:**

**- انى اعلم مقدار ما تعانيه.. لكن لا تستسلم للحزن.. سيكون لك شأن عظيم غدا وحينئذ تتغير الاحوال وأصنع لك بيدى هاتين الطعام الذى تحبه..**

**- وتستريحين من عذاب العمل فى بيوت الأغراب..**

**- نعم.. وتتزوج انت فتاه طيبة وتنجب اطفالا.. فأصير جدة.. وحينئذ اخدمكم جميعا.. صاح فجأة بخوف مكتوم لا يدرى له سببا:**

**- كلا يا امى.. لن اتزوج..**

**فابعدته عن صدرها قليلا الى الحد الذى اتاح لها تأمل وجهة وتفرسته بعينيها فى شبه لوم او استنكار متسائلة:**

**- ماذا ؟.. الا تريدنى ان اصير جدة ؟ الا تريد ان تنجب ابناء يخلدون ذكراك وذكرى ابيك.. اتريد ان تقضى حياتك راهبا ؟؟**

**- كلا يا امى.. بالطبع اريد ان تكون لى زوجة حين اكبر فهذه هى سنة الحياة..**

**ثم اضاف كالمحموم كأنه يهذى:**

**- لكننى لا أريد أطفالا يذهبون إلى المدرسة..!**

**هتفت فى جزع وفضول:**

**- كيف ؟.. الا تحب الاطفال ؟**

**هنف بنفس اللجهة:**

**- كلا يا امى.. بالطبع أحبهم.. ولكنى...**

**سكت فجأة حين أدرك فى الوقت المناسب ان الكلام يجر بعضه وانه على شفا التصريح لها بسره الخطير فغير لهجته واستدرك:**

**- اخاف عليهم تعب الدراسة..**

**ابترد صدر الام لدى سماعها هذا التعليل المريح وقبلته فى إشفاق وهى تقول:**

**- يا حبيبى يا ولدى.. اهكذا تبدو الدراسة متعبة ؟**

**- اجل يا امى الى حد كبير..**

**- لكن هذا لم يمنعك من ان تتفوق على زملائك.. على سنك ونفسك حتى..**

**- اجل يا امى الى حد كبير..!**

**- 13 -**

**لم يكن نشاط سامح وصفاء ذهنه المفاجئين إلا صحوة نفسية عارضه لها مبرراتها الخاصة فى نفسه وعقلة.. إذ ما كاد يجالس أمه بعد ان حملا طعامهما – كالعادة – الى غرفة النوم فى تلك الأمسية وتناول بضع لقيمات حتى سرت فى جسده كله – لحما وعظاما – رعشة قوية إختلجت لها عضلاته واصطكت أسنانه وتخبطت ركبتاه فى بعضهما، على حين خيل اليه – او توهم – ان جميع دمه يهرب من اطرافه ويجرى صاعدا الى رأسه وهو يغلى فى إتجاه المنطقة المحيطة بالجرح الذى تأجج لهيبا بغتة وأن عينيه – على حد ما توهم – قد إمتلأت دما ورمالا ايضا..**

**حدث كل هذا فى ثوان معدودة، ومع ذلك لاحظت امه كل شىء فتوقفت عن مضغ الطعام وراحت تنظر اليه فى ترقب وتساؤل مشوبين بالجزع.. الأمر الذى لم يتحمله هو فتظاهر بأنه على ما يرام تماما وانه على حد قوله " ليس اكثر من متعب " ثم هرع الى فراشه وهو يتشنج إرتجافا.. وأهال على جسده الأغطية.. ورغم هذا راح ينتفض تحتها وكأنه ينام عاريا فى الصقيع.**

**ولحقت به امه فى التو فشعر بها تقف الى جواره وتغمغم بصوت ملتاع:**

**- انت مريض.. انت مريض يا سامح..**

**اراد ان يقول لها شيئا يطمئنها فخذلته احبال صوته.. وشعر بها تسعى رائحة غادية فى الحجرة باضطراب لتحكم اغلاق منافذها وهى تتحدث اليه بكلمات لم يفقة منها شيئا.. وان كان قد امكنه ان يلم بجزعها وقلقها.. ولبث الأمر على تلك الحال إلى أن جاء وقت خيل اليه فيه ان يسبح عاريا فى بحر من العرق الساخن يبخر عباب الاصقاع الشمالية.. آنذاك تذكر ما كان بينه وبين الرجل على شاطىء البحر، فهيىء اليه انه فقد قدرته على الاستماع بل والاحساس بأمه.. وغشيت عيناه سحابة سوداء وشعر كأنه يولج بغته فى ليل ظليم فصرخ كأن مرحلة الهذيان قد بدأت:**

**- يا إلهى.. لم يمهلنى الرجل لاكمل له بقية الكلام..!**

**وكفت أمه عن الحركة القلقة حوله ثم دنت منه وسألته وهى تترامى عليه لتدفئه:**

**- أى رجل تقصد ؟**

**فخرج صوته خافتا ذاهلا.. كأنه آت من آبار مجهولة لم يكتشفها إنسان بعد:**

**- الرجل.. آه.. والدم.. آه.. فى الرمل.. رمل الكتاب..!.. والبحر.. آه الدم فى البحر ينعكس كالسفن على وجه الماء.. بعد المطر..!**

**واخذت الام البغتة مما سمعت.. طاشت سهامها فأجهشت بالبكاء وراحت تخفى وجهها بيديها محطمة وهى تتمتم:**

**- يا حبيبى يا بنى.. انت تهذى.. ماذا أفعل ؟ ليس معى نقود كافية.. بينما واصل هو هذيانه قائلا:**

**- الدم أغرق الكتب.. الدم أغرق وجه العالم.. الدم فى كل مكان.. فى المدرسة.. فى الحديقة.. فى الغابة.. على جدران الاصلاحية.. الدم خضب وجهك الجميل يا سارة.. ويتساقط من ذوائب شعرك الخلاب.. انظرى.. كلا.. لن أتحسسك.. أنظرى فقط.. يا إلهى ما هذا الرمل الكثير المختلط بالدم الدم والرمل والماء المالح والمنارة والكتب يختنقون فى معتقل أبى.. وأمى تجلس فى صحن المدرسة عارية تتوسل بين فتات الخبز!**

**وفر لون وجه الام جزعا مما تسمع وهى تحكم الاغطية حوله وتحيطه بذراعيها فى احضانها لتدفئة أكثر ناثرة دموعها.. عله يستفيق من حلمه الفظيع هذا، ويبرأ من تلك المصيبة النكراء التى أصابته وهو الفتى النابه المحب للحياة والعلم.. ورغم جهودها المحمومة فى إحياء موات مشاعره بالدفء.. عاد يتمتم بعين اللهجة.**

**- دموعك.. دموعك يا امى.. وشرفك العزيز.. وانت تكشفين عن ساقيك الجميلتين حتى لا يبتل ثوبك بدم ابى فى بيوت الاغنياء..**

**- يا الهى.. سامح.. سأجن فيم تفكر ؟**

**- آه.. افكر.. آه.. نابليون ايضا.. حاصر عكا..**

**- رباه.. تذاكر دروسك أيضا وانت فى هذيان الحمى.. يا بنى أرفق بنفسك قليلا ستقتلك المذاكرة..**

**- اراد ان يستعيد المجد الضائع فغافله أبى وانتحر واغرقنا بالدم..**

**- إنتحر.. من قال هذا.. سامح.. هل صدقت اكاذيبهم ؟**

**- نحروه.. نحروا عنقه الظافر فوق تلك الربوة المباركة التى سيقيمون عليها المنار يا الهى الدم ينثال على جوانب الربوة..**

**- أية ربوة..؟!**

**- إيخ..؟.. ربوة.. ربوة.. أجل ربوة الدين تغص بالصخور الوعرة..!.. مرحى بالدين.. مرحى بالأنبياء.. قد خلفوا لنا فى الرؤوس صخورا طيبة فى اصلاحية الحب والجنس..!**

**واتسعت حدقة الأم هولا مما تسمع فقد ظنته يجيب سؤالها وهو فى فورهة هذيانه الواعى وكأنها تخيلت انه ينصت اليها أسرعت تقول فى لهفة:**

**- يا إلهى.. من أين لك هذا الكفر.. ام انه فرط الهذيان.. اتمنى ذلك.. يا بنى يا حبيبى.. هؤلاء الانبياء تركوا لنا اعينا نرى بها الحياة وما بعد الحياة ايضا لم يتركوا صخورا قط نحن الذين نضع الصخور فى المحاجر بدلا من الأعين..!**

**وأذهلها اكثر ان يجاوبها بصوت صار وادعا فجأة كصوت الاحلام..**

**- نعم.. إنى أحبهم جميعا لأنهم أعطونى أعينا أرى بها الحياة وعلى رأسهم خاتم الأنبياء وسيد المرسلين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.. وما بعد الحياة أيضا...**

**فسكن روعها واطمأنت الى سلامة افكارة بل وابتسمت مشرقة بدمعة إرتياح وقالت تحدثه:**

**- ستصير غدا رجلا.. فيعلم الجميع ان روح ابيك مازالت تحيا فى صلبك.. وترفع رؤوسنا جميعا عاليا وانت تعيد ترتيب الامور وتحقق العدل.. وتبنى وطنك وتأكل وتشرب وتحب وتنجب أبناء مفرحين.. يكونون لى نعم الأبناء والأحفاد ولك ولابيك نعم الذكرى.. اليس كذلك ؟**

**وكانها الصدفة المحضة وحدها التى رتبت تلك الاجابة الغرية على شفتيه المرتجفتين:**

**- اجل سأتزوجها.. تلك المراة المدهشة.. سارة.**

**فدقت الام صدرها مستنكرة وهتفت به:**

**- سامح.. ايها الابن الحبيب.. سارة ؟ انك لا شك تحلم بمستقبل آمن.. لكن.. مع من..سارة التى قتلت أباك..**

**- على السرير.. إجلس.. إنى اقدم لك نوعا من الحنان لم تألفه.. حدق فى عينى يا صغيرى..!**

**- يا إلهى..!**

**- انت فتى نابه.. لا تنسى شيئا.. لكنك نسيت.. للأسف.. واللافته المعلقة على الباب الخارجى تقول ذلك.. عليك ان تقدم بعض البراهين على انك تبادلنا شعورا بشعور..**

**- يا رب السموات..**

**- لكن يا خسارة.. هناك بعض الصعوبات.. انى أحلم بمكان آخر تتوافر فيه كل مواصفات التربة.. لكن يا خسارة هناك بعض الصعوبات.. فعليها تقوم بعض منازل.. ألست معى..؟**

**- رباه.. عدت الى هذيانك بعد ان كنت قد تحدثت عاقلا برهة.**

**- أخرج لسانك.**

**- ماذا ؟**

**- إخلع ثيابك..**

**- ماذا.. ماذا تقول ؟**

**- قم.. تمشى.. أرنى قوامك..!**

**واغمضت الام عينيها كبحا لذلك الشعور الذى لا يحتمل وهى تحلل فى ذهنها بخوف المعلومات التى صرح بها وهو يهذى فى لاوعى.**

**كانت تعلم ان الانسان يكون ذروة الصدق مع نفسه والآخرين وهو يكشف ما يضطرم فى باطنه فى لحظات الهذيان تلك.. فمضت تفند كل كلمة.. كل حرف لكنها وإن تكن لم تخرج بقصة مترابطة من مقذوفات الأعماق هذه.. إلا أنها ادركت أن فى حياة إبنها أسرارا يخفيها عنها.. وأنه لو صح وكان حدسها صادقا فإنه يكون من المستحيل الإطمئنان الى إحتمالات المستقبل إن كان الحاضر يزخر بتلك المخاوف والوقائع الرهيبة.. فأنشأت تبكى وتقول:**

**- يا بنى الحبيب يبدو أنك تتعرض تلك الايام لأهوال لا نهاية لها.. إنها عين أصابتك كنت اخاف عليك الأعين وأنت تتقدم الى منصة الاحتفال لإستلام جائزة تفوقك.. وقد حدث ما كنت اخشاة.. حدث.. حدث!**

**كان سيل الهذيان لم يتوقف ابان تفكير وكلام الام على هذا النحو.. وكان عليها ان تفعل شيئا.. فكرت فى استدعاء طبيب ثم استبعدت تلك الفكرة لانها لم تكن تملك ما يكفى من النقود ولبثت جالسة الى جانبه على الفراش تصغى الى تخاريفه فى ذهر وتسأل نفسها وعقلها يكاد أن يطير " ماذا افعل.. ماذا افعل ؟ " الى أن أمضها السؤال وضجت بتلك التهاريف فتذكرت جارتها زينا حينئذ وثبت من جلستها والقت على راسها وشاحها الاسود.. ثم هبطت الدرج وهى تكاد ان تتعثر من فرط الرهبة والاضطراب، وفتحت الباب ثم خرجت دون تغلقه خلفها فقد قدرت أنها ستعود اليه فى التو.. وهروت الى باب منزل جارتها وراحت تقرعه وتناديها باسمها المجرد قائلة:**

**- زينا.. زينا.. تعال ياأخت.. إلحقينى.. إلحقينى..**

**وأطلت زينا من النافذة فى دهش وتساءلت ينافسها الاطلال رؤوس صغيرة لاطفال شقيقتها:**

**- ماذا حدث يا أخت..**

**- انه سامح.. ستعرفين كل شىء بعد حضورك الينا.. اما الآن فانى ساعود اليه.. انه يهذى.. يهذى سأترك لك الباب مواربا.**

**قالت ذلك ثم لم تنتظر لتسمع رد صديقتها وهى تقول:**

**- سامح يهذى.. أبعد الله الشر.. إنى قادمة حالا.. حالا..**

**ودخلت البيت وهى تسمعها تقول للاطفال مستطردة:**

**- وانتم يا اولاد.. عودوا الى المذاكرة.. ولا يأت احد معى.. او يلحق بى فيما بعد.. اتفهمون ؟**

**ولم تسمع اكثر من ذلك.. لانها كانت قد ارتقت السلم وأصبحت بعيدة.. ودلفت الى الغرفة ثم جلست جلستها السابقة وهى تحاول التماسك.**

**كان سامح قد كف عن الهذيان.. ونام أو راح فى غيبوبة.. إنها لا تعلم.. وبعد دقائق معدودات جاءت زينا وكشفت عنه الغطاء ثم تحسست جبهته وقالت:**

**- ياه..!.. إنه محموم..**

**- ماذا سنفعل ؟**

**- نحضر طبيبا طبعا..**

**- ليس معى نقود كافية.**

**- معى انا..**

**- اكثر الله خيرك يا أخت.**

**ثم خرجت زينا وغابت.. غابت طويلا حتى كادت الام ان تفقد وعيها خوفا.. ثم عادت بصحبة الطبيب الذى فحصه وضمد جرح رأسه وأعطاة حقنتين.. ثم كتب قائمة العلاج وأخذ أتعابة من زينا وخرج فتظاهرت زينا بأنها ستصحبة الى الباب الخارجى ثم توجهت الى إحدى الصيدليات وعادت بالأدوية والام حائرة كيف تشكرها لم تجد شيئا تعبر به عن عرفانها بالجميل سوى أن ألقت برأسها على صدرها وراحت تبكى باحتراق وتقبلها حتى إضطرتها هى الاخرى للبكاء فمضت تقول:**

**- لا.. لا يا اخت.. ليس هكذا.. سامحك الله.. ابكيتنى انا ايضا.. ليس هكذا نحن لبعضنا وقد سبق لك مرة ان قدمت لى نفس العون.. حين مرض خليل أكبر أبناء أخى.. وتعطل عن عمله.. إنه دين أرده..لا ليس هكذا..**

**ثم سكتت برهه وكفكت دمعها وسألتها وكأنها قد تذكرت أمرا هاما:**

**- ماذا قال لك عن هذا الجرح فى رأسه ؟**

**أجابتها الأم من خلال نشيجها:**

**- قال أنه كان يلعب مع زملائه الكرة حين زلت قدمة ووقع..**

**- ليس صحيحا..**

**- كيف ؟**

**- ساقول لك شيئا أتيح لى مصادفة ان أقف عليه أول أمس.. لنفكر فيه سويا.. فقد يكون.. آه.. هدئى روعك أولا.. وأمسكى أعصابك فإن ما سأقوله خطير..**

**كررت وعيناها تسهمان فى اللامرئى:**

**- خطير..!**

**- 14 -**

**أجل.. طبعا.. أخبرت زينا الام بكل تفاصيل ما دار بينها وبين سامح والرجل الغريب، فى ضحى هذا اليوم الذى خالت فيه ان كليهما – التلميذ والمعلم المزعوم – قد زوغا من المدرسة وفى بادىء الامر وجدت الام صعوبة كبيرة فى تصديقها وابقت المسالة معلقة على اساس انها ستذهب الى المدرسة فى اليوم التالى وتتقصى الحقيقة بنفسها.**

**لكن.. حدث مساء نفس اليوم الذى مرض فيه ما وفر عليها مشقة التحرى فقد طرق بابها وفد مكون من بعض التلاميذ ورائد الفصل ليعود سامح فى مرضة حاملين اليه تحيات الأخوة والزمالة التى تمثلت عمليا فى هدية رقيقة قوامها بعض الفواكة والزهور فاستقبلتهم بالترحاب الواجب وأدخلتهم غرفة الضيوف التى لم تنل منها يد الخطوب مثل الذى نالته من أصحابها وهى تعلن لهم أسفها لعدم إمكانها إدخالهم إليه فى غرفته لأنه لم يزل فى غيبوبة الحمى فتركوا هديتهم على مقاعد الحجرة ثم استأذنوها فى الانصراف فأذنت لهم وفى اثناء الجلبة التى صاحبت خروجهم أسرعت باستدراج تلميذ خجول يمشى وئيدا فى المؤخرة وسألته بلهجة لا تنطوى على شىء ظاهر:**

**- من أخبركم بمرضه ؟**

**فرد عليها قائلا وهو ينظر الى صدره خجلا:**

**- إفترضنا ذلك من تغيبه المفاجىء..**

**كان جوابا مختصرا ومؤثرا فأدمعت عيناها تأثرا وتحسرا ايضا لأنها أدركت بوعى تام ذلك التباين الشاسع المرير بين ما افترضوه وبين الحقيقة المخزية ولذا لم تستطع وهى تتلقى تلك الإجابة القاصمة أن تعلق بشىء وتركت الفتى يلحق بزملائه الذين راحوا يستعجلون خروجه اليهم.. ولم تستطع كذلك ان تذوق للمنام طعما فى تلك الليلة فقضتها ساهرة الى جواره تترقب لحظة استفاقته من غيبوبيته وتفكر فيما عسى أن يكون من أمرة تلك الايام وأى شيطان رجيم إنتعل إرادته واضطره للهروب من المدرسة وهو الذى لم تكد حرارة الإعجاب بتفوقة تبرد على الأكف..**

**وكانت ليلة مشحونة بالجزع وبالقلق وبالألم وبالخوف من المجهول الذى لم يكشف وجهه بعد..**

**ثم قبيل الفجر تحرك سامح فى فراشه وأفاق من غيبوبته طالبا جرعة ماء فوضع حدا لعذابها وإن يكن لم يضع نهاية.. وكانت فرحة مفاجئة اشرقت لها عيناها بالدموع انفعالا فقامت وهى تنهنه وتحبس مدامعها فى مآقيها كيلا يراها وأحضرت له كوب الماء الذى شربه الى آخر قطرة ثم شملها بنظرة تساؤل عاطفة وانية عما يسهرها الى هذا الوقت فيما بدا لها من معنى فى نظرته وأخلد الى النوم لطيته فتطامنت وجففت له عرقه السائل الذى كان قد توقف عن التفصد ثم أحكمت الأغطية عليه ورأت حينذاك أن من الأصوب أن تغفو عيناها ولو بضع دقائق ففى النهار ينتظرها عمل كثير ومجهد فقامت الى فراشها وغلبها النعاس من شدة التعب.**

**ثم فى ضحى اليوم التالى إستيقظ سامح وبدا على محياه كما توهمت - او أحبت ان تتوهم - أنه قد استرد الى حد ما حيويته ولونه الطبيعى غير انه لم يكون يقوى على مبارحة فراشة فلم يغادره إلا بعد يومين لم تتركه فيهما لحظة واحدة واحاطته قدر استطاعتها بالعناية والحب اللذين تكفلا فى الاسراع بشفائه.. ويبدو ان هناك عاملا آخر ساعدها فى ذلك يتعلق باستجابة سامح القوية للإبلال السريع فقد كان يعلم ان كل سعادة امه فى الحياة تكمن فى ان تراه يكرس وقته كله للمدرسة والتحصيل العلمى ولما كان المرض لا يحقق تلك الغاية رغم انه لا حيلة له فيه فانه صمم على قهرة باقصى سرعة ليسعدها وكذلك كيلا يضطرها البقاء الى جانبة لرعايته الى أى نوع من التنازل - أو التورط – فى تدبير شئون معيشتهما بالإضافة الى أعباء علاجه والتى كان يعلم يقينا أنها سترتبك بانقطاعها عن العمل البسيط الذى يكفى بالكاد لتوفير ما يقيم الأود ويستر الجسد.**

**ولذلك.. لم يستشعر أيه غرابة فى ذلك الترحيب الذى قابلته به حين رأته يرتدى ملابسه توطئة للذهاب الى المدرسة بمجرد أن شعر ببعض القوة وغادر فراشة ولم يقل لنفسه ان حبها له اقل من حب بقية الامهات.. وإن كان ثمة غرابة حقيقية إستشعرها بكثير من التوجس ففى إبدائها رغبتها فى مرافقته حتى بوابة المدرسة فتأمل وجهها مليا كأنما يروم أن يقرأ افكارها وتساءل فى نفسه " علام يدل هذا..؟ أتكون قد عرفت شيئا خلال هذين اليومين ؟.. أتكون الخالة زينا قد ثرثرت لها بشىء عنى لتسرى عنها فى الاوقات التى كنت اغفوا فيها ؟.. انها كانت تزورنا عدة مرات اثناء النهار موزعة نفسها بين العمل فى بيتها وبين المجى للإطمئنان على.. ثم كانت تقضى شطرا كبيرا من الليل.. إنها جارة مثالية من تلك الناحية.. لكن لابد ان هذا أتاح لها وقتا طويلا تثرثر فيه تزجيه للفراغ على الأقل.. ولابد اننى كنت فى كثير من الاحيان مادة الثرثرة بحكم كونى موضوع الساعة.. فلم لا تكون قد حنثت بوعدها ألا تخبر أمى ؟.. إن كان قد حدث هذا وهو لا شك قد حدث فانى استطيع ان افهم مغزى طلبها مصاحبتى الى بوابة المدرسة.. وحينئذ يمكننى ان اعتبر ان متاعبى الحقيقة قد بدأت!"**

**صاح بغضب مناديا أمه التى كانت ترتدى ملابس خروجها فى غرفتها:**

**- أمى..!**

**فجاءه صوتها يقول ناعما.. عطوفا:**

**- نعم يا حبيبى..**

**قال لها فى شبه توسل وبلهفة:**

**- أرجوك يا أمى.. أرجوك.. لا ترافقينى الى المدرسة..!**

**وتخافت صوتها فجأة كأنما ادركت شيئا وهى تغمغم متسائلة:**

**- لماذا..؟**

**ومع أنه شعر بعدم اطمئنان للطريقة التى انخفض بها صوتها فإنه وجد الإرادة ليقول لها:**

**- لأننى لا أريد ان يهزأ بى زملائى حيث يرونك ترافقينى هكذا كما لو كنت طفلا فى الروضة..!**

**تضاحكت.. او هكذا تخيل انه سمع ضحكا.. ولم تعلق بشىء.. ومضت برهة ثقيلة.. ثقيلة ساورته فيها مختلف الهواجس والمخاوف قبل ان ترحمه بظهورها اليه على باب غرفته التى كان يخاطبها منها وهو واقف أمام المرآة التى تواجه الباب تماما يتأمل نفسه وآثارالمرض فرآها.. حينئذ إندفع اليها، كان يعلم الوسيلة المؤكدة التى يستطيع بها أن يؤثر فيها فالقى نفسه فى أحضانها وقبلها وبعد ذلك تساءل مستميلا إياها بنظرة حب:**

**- ألست معى ؟**

**ولدهشته وجدها تومىء له برأسها مغمضة عينيها على إنطابقة تفهم ونشوة إدراك وحب متمتمة إبان ذلك بابتسامة عذبة:**

**- طالما ان هذا يرضيك..**

**فأغرق وجهها بالقبلات حتى اضطرها لأن تقول فى طرب:**

**- حسبك.. ستأكل وجهى.. آه يا ماكر..**

**واختطف حقيبته المدرسية التى ورثها عن أبيه.. وأطلق لساقيه العنان وهو يقول لنفسه ان الله وهبه أجمل وأطهر أم فى الوجود، وسمح لنفسه أن يضيف الى ذلك قوله " أنه أسعد إبن لأحب أم "..**

**ومع أن سروره هذا قد احتواه الى حد أنه كان اقل يقظة فإنه خيل اليه ولا يدرى لماذا.. ان هناك اقداما تقفو أثرة، ومع وجاهة أسباب الوهم فإنه لم يكلف نفسه عناء التوقف عن السير ليتأكد، لأنه اعتبر مجرد تفكيره فى هذا مدعاة لافساد سعادته وهى لحظات قلما تسعى إليه فكيف يفسدها بتلك الهواجس التافهة ومضى يقفز فى سيره ويوزع الإبتسامات على كل إنسان يلقاه وسواء إن كان يعرفه أو لا يعرفه الى أن وصل الى الشارع الذى تقع فيه المدرسة وكان طبيعيا ان يفكر ابان اختراقه إياه فيما اذا كان تمة رجل سيجد فى إنتظارة أمام بوابتها هذه المرة ايضا.. غير انه فى هذا الصباح نسى او تناسى هذا الامر ايضا.. وانفلت من البوابة تلقائيا كما كان يفعل فى ايام الرخاء.. واقبل على واجباته اليومية المعتادة فى توقد وشغف ضاعف من جيشانهما فى نفسه هذا العطف والتشجيع اللذين لمسهما لمسا فى قلوب مدرسيه وزملائه وهم يرحبون به وبعودته لدرجة انه بكى انفعالا فى احدى فترات الراحة بين الحصص ولما سأله زميله الذى يجلس الى جواره عما به أجابه بكل بساطة أنه يبكى لأن الحياة رائعة ولان الناس يبدون له طيبون بصورة فات عليه طويلا أن يدركها..!**

**ثم انقضت أياما بعد ذلك، نسى سامح فيها تماما كل شىء عن " الون.. وساره.. والإصلاحية " ونسى كذلك المخاوف التى كانت قد إنتابته من أن تكون زينا قد كشفت لأمه عن شىء.. بل نسى زينا نفسها واستغرق فى تحصيل علومة وفى تعويض ما فاته منها ابان محنته ومرضة فبدا فى احسن حالاته وفى أوج تألقه الدراسى وكانت امه تراقب خطواته عن كثب فقد كانت صاحبة الاقدام التى أهمل عامدا معرفة شخصية صاحبها فى ذلك الصباح الذى خيل اليه فيه ان احد يفتقى اثرة ثم لما تأكد لها أنه عاد الى سابق ما عهدته فيه وعهد الجميع من اجتهاد ومثابرة وحرص شديد على الانتظام فى الدراسة تطامنت وتركته لحالة لأنها كانت تتكلف وقتا وجهدا فى تلك المراقبة فضلا عن القلق والتوتر اللذين كانت تسببهما لها.**

**ولكن.. حدث فى صبيحة أحد الأيام شيئا لم يكن سامح يحتسبة او يتوقعه فقد رأى أمامه فجأة رجلا ما إن وقعت عيناه عليه حتى تحرك صوبه مبتعدا عن بوابة المدرسة ليقابلة قبل أن يصل اليها.. وتوقف سامح بمجرد ان لاحظ ذلك مبهوتا ومتحفزا فرسم الرجل ابتسامة على شفتيه ذكرته بهذا الرجل الذى إعترض سبيله أول مرة ثم مد اليه يده مصافحا وابتدره قائلا:**

**- حمد الله على سلامتك يا اخ.. لقد علمنا أنك عوفيت من مرضك منذ ايام..**

**فحدجه سامح بنظرة كراهية واعطاه يده دون رغبة وهو يسأله بحدة:**

**- ماذا تريد ؟**

**غمز الرجل بعينيه غمزة ذات معنى وأردف:**

**- أنت أدرى منى..**

**حينئذ إنفلت الزمام من سامح فصاح غاضبا:**

**- كلا.. لا ادرى..**

**- امسك اعصابك.. سارة تريدك..**

**وكان رائد الفصل يدخل المدرسة فى تلك الآونة حين استرعى إنتباهه أن ثمة شىء غريب يجرى بينهما فتريث ينظر اليهما بفضول لم يلحظه سامح فصاح ثانية تحت وطاة حنقة لدى سماعه هذا الاسم قائلا:**

**- لكنى لا اريدها..**

**وقبض الرجل على ذراعة كأنما يقسره على السير معه او ليفرغ روعه لا احد يدرى فنزع ذراعة عنه فى اهتياج.. الامر الذى اثار الريبة فى نفس معلمه فهرول اليهما وسأله وهو يرمى الرجل بنظرة حادة قائلا:**

**- هل يضايقك احد يا سامح ؟**

**وفوجىء التلميذ بتدخل معلمه الذى لم يقم له حسابا - وكان يريده ولا يريده فى ذات الوقت - فلم يجد ما يجيبه به غير الصمت وهو ينظر اليه متحيرا.. ومع ان دواعى الحذر كانت تقتضى من كليهما.. سامح والرجل ان يفعلا او يقولا شيئا يزيل الريبة من نفس المعلم الا انهما وان لم يفت على ذكائهما ذلك لم يفعلا وكأن الامر لا يعنيهما مما شحن الموقف بالتوتر وأصبح من السهل ادراك ان إحتكاكا وشيكا سيقع بين الرجلين لولا انه - ولعلها الصدفة المحضة - حدث ان دق جرس المدرسة فى تلك اللحظة بالذات وكانه ما دق الا انقاذا للموقف فالقى المدرس نظرة أخيرة تحمل معنى الإستفزاز على الرجل ثم جذب تلميذه من ذراعه ودعاه لمرافقته للدخول دون ان يقول شيئا فاستسلم له هذا وهو لا يصدق عينيه تاركا الرجل واقفا فى مكانة يعض على نواجزه غيظا.. ولا يدرى لماذ سر لمنظره هذا وهو يختلس النظرات اليه**

**اثناء عبورهما البوابة التى اغلقت بمجرد دخولهما.. حينئذ سأله رائد الفصل مبتسما:**

**- ماذا كان يريد منك هذا الرجل ؟**

**فاجابه وهو يتلعثم:**

**- لا.. لا شىء.. كنت اسير مندفعا حتى اصل البوابة فى موعدى حين اصطدمت به عفوا فغضب منى ظانا اننى تعمدت ذلك..**

**- فى المرة القادمة.. انظر امامك جيدا حتى لا تصطم بمثل هؤلاء الحمقى..**

**- حسنا يا سيدى..**

**وود سامح بكل كيانه وهو يتأمل لمدى لحظة ابتسامة معلمة الحبيية الودودة بنظرة عرفان وامتنان ان يبوح له بالحقيقة.. الا انه جبن ولا يدرى لماذا ؟**

**- 15 -**

**تمكن سامح بارادته فى هذا اليوم من تركيز تفكيرة فى واجباته الدراسية فلم يقع فى ادنى خطأ ولم ير معلموه الذين يحيطونة باهتمام خاص لنبوغة غير الانوار البراقة فى عينية التى تعودوها دوما، ولكن اتفق فى اثناء قيام رائد الفصل بشرح احد ابواب مادة الطبيعة التى يتولى تدريسها لهم ان لاحظ ان سامحا قد ارسل بصره الى الشارع عبر النافذة التى تقع الى شمالة مباشرة وهو جالس فاستقرت عيناة على شىء اربدت له سحنته فجأة لدى رؤيته.. فتوقف عن الشرح وتقدم الى النافذة واطل منها لتقع عيناة على آخر ما كان يمكن ان يفكر فيه.. فالرجل الذى اعترض طريق الفتى فى الصباح لا يزال واقفا فى مكانه كما لو كان ينتظر خروجه بعد إنتهاء يوم الدراسة ليصفى حسابة معه على حد ما اعتقد المدرس الشاب الذى ساوره غضب لا حد له فاندفع خارجا من الفصل مخالفا بذلك اللوائح التى تحرم على المدرس مغادرة فصلة دون عذر قوى اثناء قيامة بالعمل.**

**حينذاك.. وضع التلاميذ اقلامهم وانخرطوا فى اللغط والثرثرة دون ان يدركوا السبب الذى من أجله بارح مدرسهم مكانه، فاندلعت بذلك الضجة غير المقبولة من أى فصل وسط سكون الفصول الأخرى التى تعمل فى هدوء وبد الامر كما لو ان احد تجار الماشية قد اقام سوقا هنا، فى الوقت الذى كان فيه سامح ينظر بخليط من الخوف والذهول والإعجاب الى معلمة الذى رآه يتجه ناحية البوابة الخارجية المغلقة مزمعا الخروج الى الرجل لمناقشته.. ولما كانت موصدة فقد لمحه يدور حول نفسه امامها كما لو كان يبحث عن البواب الذى لم يكن متواجدا فى مكانة لسبب ما فى تلك اللحظة وابان ذلك يرمى الرجل من خلال قضبانها الحديدية المتشابكة بنظرة عدائية كأنه الأسد فى قفص بحديقة الحيوان على قدر ما تخيل سامح الذى رأى – لدهشته وارتياحة – ان الرجل قد فهم حقيقة الامر على وجه السرعة فاسرع بالتناهى من المكان.**

**ولا يدرى لماذا سرة كثيرا للمدرة الثانية فى هذا اليوم ان يضطر الرجل الى الظهور بمظهر الجبن المتغيظ وكان معنى هذا ان الامر قد انتهى باختفاء الرجل او كما بدا لعين المدرس الهمام أنه قد انتهى فأسرع بالعودة الى مكانة وهو يهرول ليتدارك الامر قبل ان تلفت ضجة التلاميذ نظر مدير المدرسة.**

**وقد كان وتحققت مخاوفة - ومخاوف سامح كذلك – فانه ما كاد يستقر فى مكانة فى الفصل حتى أطل المدير بوجهه من الباب وسأله بصوت عال وبلهجة مستبدة عن سر هذا الضجيج الذى أقلق تركيز الفصول الأخرى وما اذا كان لا يعرف كيف يسيطر على تلاميذه فى تلك اللحظة إضطر رائد الفصل لحرج موقفة إلى مقابلة غضب المدير بالمرونة الواجبة واعتذر له فى لهجة وديعة ومهذبة فرجع الرجل من حيث أتى وهو يصعده بنظرة إنذار وتحذير، ذكرت سامح بنظرة ذلك المهندس " الون " التى رماه بها قبل ان يقرر إلقاءه فى البحر.. وبدت الازمة كما لو انها قد مرت بسلام فران على القاعة السكون المألوف ثانية وبدا المعلم يكمل درسه.. لكن الوقت كان قد فات ودق الجرس فقام الجميع متجهين الى البوابة الخارجية فقد كانت تلك آخر حصة وقام سامح ايضا وهو يبذل جهدا خارقا للسيطرة على عضلاته وغالب كيلا يفهم الرائد إضطرابة اثناء مروره عليه خارجا بدوره لكنه – أى الرائد – فاجأه مناديا إياه بقوله:**

**- سامح.. إبق لحظة من فضلك..**

**وتشتت ذهن سامح وجف اللعاب فى حلقة وألفى بنفسه يهتف بصوت خافت وعلى إستحياء:**

**- سيدى.. إنى أخشى أن أتأخر عن ميعاد عودتى فتقلق أمى..**

**قالها بوضوح ودونما إرتباك ولكن بطريقة جعلتها تشى – كما توهم – بكذبه اذ قال المدرس:**

**- إنى أعلم أن والدتك لن تكون فى البيت قبل مغيب الشمس.. إبق لحظة واحدة.. أريد أن اسألك – هل حقا ان الرجل إصطدم بك فى الصباح ؟**

**سأل سامح وسط وجيب قلبه الذى تصاعد إلى أذنيه:**

**- أعندك شك فى قولى يا سيدى ؟**

**فاجابه الرائد:**

**- كلا.. ولكن يبدو لى أن الأمر ليس هينا الى هذا الحد..**

**قال سامح مستردا بعض هدوئه:**

**- وما ذنبى انا فى ذلك ؟**

**وتأمل الرجل وجهه متفرسا برهة ثم سأل فى النهاية:**

**- هل حقا انت لست فى حاجة الى مساعدتى ؟**

**فأجابه بلهفة قاطعة:**

**- بالتاكيد.. لكن ارجوك الا تعطى هذا الامر اهمية اكثر مما يستحق فالرجل قد إنصرف وربما ادرك خطأه الآن..**

**فقال المدرس وهو يجمع كتبه ويضعها فى حافظة اوراقة منصرفا:**

**- آمل ذلك..**

**وهرع سامح خارجا الى الطريق وهو يتساءل " ترى هل إنصرف الرجل لينتظرة فى مكان آخر.." ثم جعل بحدق أمامه فى كل مكان باحثا عنه وسط زحام الشارع التجارى الذى كان يدب فيه متجها الى المنزل.. بيد انه بدلا من أن يراه رأى بغته المهندس الون يخرج من أحد محال بيع الحلوى بصحبة زوجته وطفله حاملا صندوقا كبيرا من الورق المقوى يلتف حوله فى أناقة ورفاهية شريط من الحرير الاحمر وقد اتجه ثلاثتهم نحو سيارتهم المنتظرة بجوار الافريز.**

**كان طبيعى ان يختفى عنه او يسرع بالفرار من المكان.. لكنه لسبب مالم يفهمه شعر بالرضى والإرتياح لرؤيته وردد لنفسه لا إراديا:**

**- ها هى فرصة سانحة لكى اكمل له الحديث الذى لم يمهلنى لإكماله..!**

**ثم دون ان يفكر او يقصد التطفل او التهريج ركض اليه، ثم وضع يده على ساعده وهو يفتح باب السيارة الملاصق لعجلة القيادة وبعد ما ركبت زوجته وابنه وبعد ان وضع الصندوق على رف المقعد الخلفى.. وقال وابتسامه عامرة تملأ صفحة وجهه:**

**- انها مفاجاة سارة ان اقابلك يا سيدى فى هذا المكان..!**

**فأرخى السيد الون يده عن مقبض الباب وتحول اليه موزعا نفسه بين الحيرة منه وبين السرور الذى إصطنعه له كما لو ان شيئا لم يحدث بينهما وقال:**

**- انت مرة اخرى.. انها مفاجاة سارة حقا.. عن اذنك الان..**

**وكانت المرأة والطفل قد تحول إهتمامهما الى ما يجرى أمامهما فمضيا يستعجلان صعود الاب بتأفف ونفاذ صبر ولكن سامحا اسرع وقد ادرك ان الفرصة توشك ان تنساب من بين يديه وقال بنبرة ذات مغزى مستبقيا الرجل:**

**- لدى بعض المعلومات الأخرى يا سيدى وأرى انها قد تفيدك..!**

**فتنهد الرجل بإستياء وغمغم:**

**- حسنا.. ألا ترى ان الوقت غير ملائم لذلك..؟**

**تجاهل سامح قوله وفاجأه قائلا:**

**- إكتشفت من تحرياتى ان البيت الذى يقطنه التلميذ.. ليس ملكا خالصا لهم.. فللأم شقيق يملك ثلثى البيت لكنه لا يستطيع واسرته الاقامة به.. لانهم فى مخيم اللاجئين بجباليا..!!**

**حينئذ أفتر ثغر الون عن ابتسامة باهته وغمغم قائلا بنفس الطريقة التى يتحدث بها سامح وكأنه يدلى لى باقتراح وجيه:**

**- حسنا.. لا بأس ان يجتمع شمل الاسرة..!**

**هتف سامح وقد تألفت عيناة ببداية فرحة متسائلا:**

**- صحيح.. ستعيدونهم الينا..؟!**

**فاطلق الرجل ضحكة عابثة تنطوى على بعض التهكم والرثاء وتمتم وهو يركب سيارته:**

**- بل سنرسلكم اليهم..!**

**صرخ سامح وعيناة تقدحان شررا:**

**- مستحيل..**

**فى الوقت الذى إندفع فيه الون بسيارته ينهب طريقة وسط الجموع فى مهارة فائقة.**

**- 16 -**

**تملكت كلمات الرجل الغريبة التى القاها فى يسر من رأس سامح وراحت تتردد فى اذنيه وتختنق فى صدرة بفيض من الانفعالات المتناقضة، تبدو الكلمات غير كافية اطلاقا لتصويرها فهى شىء اكبر من الذهول والحيرة والقنوط والتوعد والغيظ والرعب. شىء يقصر الفكر عن تخيله ان لم يمر الا صاحبه بتجربة مماثلة.. فراح يجرى الى البيت ويستحث قواه ليصل فى سرعة كما لو كان يبغى الفرار مما يشعر حيث لا مفر.. ففى البيت وراء الباب مباشرة كان الرجل الذى احتك به فى الصباح ينتظره باسترخاء على اول درجة من السلم ثم بعد حوالى الساعة كان يقف متحيرا أمام تلك المرأة فى " الاصلاحية " يسأل نفسه " كيف حدث اننى استسلمت ؟! " وهو يتأمل وجهها الرصين المضجر وسط السكون المفزع منتظرا فيما يبدو اوامرها ولما طال به الانتظار تكاثرت عليه الكآبه وجرفه الضيق فندت عنه تنهيدة عميقة أودعها كل متاعبة وآلامه.. وهتف:**

**- ألن نبدأ بقية الإختبارات اللعينة ؟!**

**فنهضت واقفة واومأت اليه ان يتبعها ثم دفعت الباب الذى كانت من قبل تحرص على ابقائه مغلقا وتقدمته داخله فهرول وراءها وهو لا يكاد يصدق ان ينفتح هذا الباب اخيرا والذى اثار خياله كثيرا قبل الآن متسائلا عما يخفى..**

**ولم يكن ما يخفيه شيئا يستحق إعمال الخيال والتساؤل، فقد لقى لحظة إختراقه ردهه أخرى أصغر.. يقوم على جانبيها بابان احدهما محكم الاغلاق الى شماله والآخر ليس مفتوحا ولا مغلقا إنما موربا الى يمينه..وطالعه فى الصدر حائط يتوسطه باب ثالث مغلق باحكام ايضا.. فتساءل فى نفسه قائلا " يا للسماء.. ماذا يخبىء هذا الباب ومتى ينفتح لى ايضا ؟! " وفيما عدا ذلك فالردهة تغرق فى ظلام دامس فى حالة إغلاق الباب المؤدى اليها وتشع منها رطوبة تذكره برطوبة المخابىء الآسن الخانق هواؤها..! وشعر بدوار خفيف يداعب رأسه ثم رأى سارة تتجه الى الباب الأيمن فتبعها بفضول وساوره بعض الخوف ونضحت من جسمه بعض قطرات العرق البارد، غير انه لم يسمح لنفسه رغم هذا بالتردد لحظة فهاهم الآن وقد إطمأنوا اليه أو ضجوا منه - لا يدرى - يكشفون قليلا وجوههم الحقيقية ويخطون به الى الامام خطوة بدت له فى هذا الآن كبيرة وأكبر مما كان يتوقع وأسلمه الباب الى حجرة صغيرة عالية الجدران.. ليس بها نافذة واحدة وإنما يدخل الضوء فى حزم متراصة مستقيمة من كوة مستديرة تشبه الى حد كبير تلك التى فى قمرات السفن تقع فى أعلى الجدار بالقرب من السقف وينصب هذا الضوء المتجمع على إسطوانة دائرية الشكل من خشب الجميز المصمت تذكر لدى مرآها تلك التى يقطع عليها الجزارون اللحم باختلاف بسيط هو ان هذه تبدو اكبر قليلا واكثر قوة وصلابة.. وفوق تلك التى يحسن أن ندعوها منضدة رأى قطعة من الحديد الصلب بسمك أربع بوصات تقريبا.. وإلى جوارها رأى منضدة ثانية عليها نفس قطعة الحديد بعين السمك إلا أنها منبعجة قليلا من طرق يائس.. وعلى الجدار خلف كل من المنضدتين رأى مطرقتين من الحديد تستندان عليه بزاوية قائمة.. ولا شىء فى الحجرة غير هذا، ووإنتابت سامح قشعريرة مما يرى فحول عينيه الى المرأة التى كانت تقف بجوار الباب معتمدة بكلتى يديها عليه وهى تنظر اليه كما لو كانت تفحصة او تدرسه وقال بفتور:**

**- لا افهم شيئا..**

**فتخلت المرأة عن وداعتها وخطت بضع خطوات نحو الجدار وتناولت اقرب مطرقة اليها وهى التى تلك التى تخص قطعة الحديد التى لم تطرق بعد ثم رفعتها عاليا وأهوت بها فى عنف فوق قطعة الصلب قائلة وسط صوت الطرق الذى صلصل:**

**- تفعل هكذا..**

**وفتح سامح فاه مأخوذا.. لكنه لم يستطع الكلام.. أما هى فقد إستدركت قائلة فى رتابة يبدو أنها قد إعتادتها فى مواقف أخرى مماثلة:**

**- واثناء ذلك ترفع عقيرتك بالصياح قائلا المهندس الون هو الذى بنى بيتنا..!**

**لم يصدق عينية أو أذنية.. خيل اليه أنه مع تلك المرأة القوية فى تلك الحجرة المستديرة الأركان التى تسبح فى الظلام باستثناء هذا الضوء الساقط من تلك الكوة على هاتين المنضدتين العجيبتين اللتين لا تصلحان لطرق الحديد عليهما.. ليس الا خيال جامح فى رأس فنان مأفون يهوى الظلال الكئيبة والأطلال الخربة والوجوه الضاحكة الباكية والمجسمات الهلامية.. الشيطانية..و.. المهندس ألون هو الذى بنى بيتنا.. يا إلهى..!**

**كرر بصوت محتبس:**

**- لا أفهم شيئا..**

**- أحقا.. كنت اظنك اذكى من هذا.. حسنا.. سأعيد التجربة أمامك حتى تفهم.. أم أنك لا تريد أن تفهم إنى أحذرك ففى تلك الحال ستفقد عطفنا جميعا..!**

**قالت المرأة ذلك وهى تصوب عينيها فى عينيه مباشرة ثم تحولت الى المطرقة ورفعتها عاليا وهى تقول:**

**- ترفع المطرقة هكذا واثناء ذلك تقول: المهندس ألون..**

**ثم جعلت تهبط بها على سطح قطعة الحديد تدريجيا كما لو كانت تغالى فى إفهاماة أو تعذبه وأضافت وهى تهوى بها محدثة عين الصوت المجلجل:**

**- ثم تضرب قطعة الحديد بقوة وانت تردد: هو الذى بيتنا..!**

**وألقت بالمطرقة على الارض وهى تنفض عن يديها اللدنتين آثار الثلوت الذى علق بهما وغمغمت وكأنها لا تقول شيئا:**

**- الفعل بسيط كما ترى.. ولا يحتاج لمن فى مثل ذكائك!**

**أحس كأنه يختنق فاندفع يسأل محتدا:**

**- واذا كنتم تعلمون انه عمل لا يحتاج الى من هم فى مثل ذكائى فلماذا تقسروننى عليه ؟.. أهو نوع من العقاب على جريمة إقترفتموها أنتم ؟!**

**فقطبت سارة حاجبها وابتسمت ابتسامة ذات مغزى وقالت تتصنع الاستنكار:**

**- عقاب.. ابدا.. لم نفكر فى هذا قط..**

**فارتسمت الحيرة مع مزيج الغيظ والحنق فى عينى سامح وتساءل:**

**- اذن لماذا ؟**

**- ماذا ؟**

**- ألا يكفيكم ما تعلموه لنا فى المدرسة.. إننا نردد كثيرا امثال تلك الكلمات عنكم..**

**- آه.. ترديد الكلمات لا يكفى.. للأذكياء..**

**- ماذا ؟**

**قالت:**

**- آه..!.. يبدو انك لم تقرأ اللافتة التى على الباب الخارجى قراءة رشيدة..!**

**- قرأتها مائة مرة..!**

**صاح بها سامح فى مرارة واستدرك فى شبه إحتجاج:**

**- إصلاحية المتفوقين الإسرائيليين العرب..**

**ثم أضاف لنفسه:**

**- آه.. ان هذا يذكرنى بشىء فقد احتاج ابى من قبل للانتحار ليثبت انه حر فى المعتقل..!..**

**وسكت لحظة يفكر ثم استرسل لها فى سخرية مريرة:**

**- أتعرفين ان هذا شىء غاية فى الغرابة.. تلك الحجرة بظلام أركانها وهوائها الفاسد ورطوبتها المرتفعة والضوء الذى ينساب من تلك الطاقة قرب السقف وقطعة الحديد التى لن ترتفع حرارتها الى درجة الإحمرار الكافية لجعلها لينة للطرق رغم وجود تلك المداخن فى أعلى المبنى و.. المهندس الون الذى بنى بيتنا ولا أدرى متى وكيف ؟..**

**اللهم الا فى درس " أين تتجه " الذى نلت فى الاجابة على اسئلته الدرجة النهائية بالمدرسة.. ومع هذا يبدو الامر غير كاف فحشو الاذهان لا يكفى بالنسبة لى انا وإن يكن يكفى لبقية التلاميذ الاقل ذكاء.. والمجىء هنا وما يعنى من إهمال المدرسة التى تعنى المزيد من النبوغ!.. وناهيك عن أننى لا أرى تلميذا آخر غيرى وكأننى النابغة الوحيد فى تلك المدينة.. والكاهن الذى تزعمين وجوده ولم أره أبدا.. اننى لا أفهم لا أفهم.. ماذا تريدون ؟.. ما اشد حبكم للغموض..!**

**ربتت ساره على كتفه بعطف مفتعل وتمتمت وهى تزمع الخروج فى عدم إكتراث:**

**- أطرق يا بنى بدلا من الثرثرة..!**

**فتغيظ وأمسك بالمطرقة ثم رفعها الى اعلى بحركة أربكتها معتقدة انه سيهوى بها على أم رأسها فتراجعت الى الوراء وهى تكتم صرخة وتتساءل فى جزع:**

**- ماذا انت فاعل..؟**

**وأدرك هو خوفها فطابت نفسه وانتعشت روحه وتنهد ثم اطلق ضحكة ساخرة وتساءل وهو يرطم قطعة الحديد بمقدمة المطرقة بنفس لهجته السابقة:**

**- انتم تتوقعون اننى ساطيعكم بضيق وحزن.. أليس كذلك ؟**

**أجابت وهى تتنفس الصعداء وتلعق سخريته من خوفها:**

**- بالطبع.. فمن المستحيل على النفس البشرية أيا كان تركيبها أن تقبل ذلك بشغف ومرح!**

**- آه..!**

**ووضع سامح يدا فى خصره على حين إعتمد باليد الأخرى على المطرقة مسترخيا وشرد بذهنة يفكر فى إجابة عملية حكيمة لهذا السؤال " هل أطيعهم.. وإن فعلت.. فكيف أعبر عن غضبى ؟" فكر طويلا وبرقت عيناه من شدة التفكير ثم أخيرا تهللت أساريره وقال وهو يكتم شهقة سرور طاغية كأنما قد اكتشف كنزا:**

**- ليكن.. سأطرق.. سأردد الأكذوبة.. سأستسلم راضيا.. لكن بوعى.. بفرح..**

**سألته فى فضول:**

**- كيف..؟**

**رد عليها بمنتهى البساطة:**

**- لانكم تتوقعون أننى سأحزن..**

**صاحت فى إستنكاف شديد وتوعد:**

**- هكذا..!**

**فقال وعيناة تغيمان بعيدا.. بعيدا.. كأنما الى حيث أبيه وبصوت خفيض لكنه واضح:**

**- نعم.. هكذا..**

**اما هى فقد قلبت شفتيها الى داخل فمها ورددت بعين اللهجة وهو تخطو خارجة:**

**- حسنا.. سنرى..**

**وخرجت وانتبه سامح لنفسه على صوت دبيب أقدامها وهى تتباعد فمضى ينصت اليه ويردد لنفسه فى نشوة وشبه إنتصار " كان لقدميها الجميلتين وقعا كالموسيقى الناعمة أما الآن فهى كقرع الطبول الأهوج " ثم قبض على المطرقة بكلتى يديه ورفعها بهمة غير عادية الى أعلى وهو يقول بصوت مدو:**

**- المهندس الون..**

**وهوى بها على وجه قطعة الحديد فى ابتهاج غضوب كما لو كان يفتت وجه ذلك المهندس مستطردا وسط الضجيج الذى ملأ أذنيه:**

**- هو الذى بنى بيتنا..**

**ومع فرحته وغضبة أغرورقت عيناه بالدموع..**

**- 17 -**

**ظل سامح فى تلك الحجرة يطرق مدفوعا بقوى الإستسلام الواعى والتحدى بالرضا، تلك التى فجرت فى أعماقه الأصوات الصارخة التى غطت على كل صوت إلا صوت ذاته، وجعلته يشعر أنه يجابة إمتحانا تؤكد نتيجة إجتيازة بنجاح الرابطة الوحيدة التى تربطة الى الحياة ويوشك أن يفقدها.. رابطة انه سيد مصيره.. بمحاورها الثلاث: أمه وبيته ومدرسته " تلك الرابطة التى اليها يعزى هذا السرور الباطنى الغريب الذى إجتاح نفسه فأضاء روحه وقوى عزيمته على الطرق ولو بلا نهاية.. بل وشدد من عضلات ذراعية وأحبال صوته أيضا فراح يطرق بلا هوادة يردد تلك المقولة عن المهندس الون، ونداء سعادته بالنتيجة التى تبلج عنها الواقع يدوى فى إصرار منتزعا سلطان الكآبه والإحباط عن عرش روحه الذى تسنى له ان يتربع عليه زمنا طويلا.**

**على أن الأمر فى الحقيقة لضعف بنيته ولأنه كان يقضى فترة طويلة بين الصباح والمساء دون أن يأكل شيئا لم يكن خاليا من الإرهاق ولهاث الأنفاس وقد تفصد عرقة وزمت وجهه من فرط ما جهد مع الحديد، فجعل يتوقف بين الفينة والفينة ليلتقط أنفاسه بعمق رئيته.. وفى تلك الهدنة القصيرة.. كان احيانا يردد لنفسه " لقد وجدتها.. نفسى!.. هذه هى الحقيقة الكبرى التى أتاحوا لى رؤيتها فشكرا لهم! " أو " لقد عرفت من أنا وماذا أكون.. إننى اقوى من حديدهم البارد.. أسمى مما أرادوه لى.. ولهذا لن اتخلف عن المجىء الى تلك الغرفة يوما واحدا.. وسأعرف كيف انظم حياتى بين الدراسة وبين الطرق على الحديد البارد وبين الذود عن شرفك يا امى!"...**

**وبالفعل.. إستطاع تنظيم وقته فأدخل بعض التعديلات الجوهرية عليه فى تلك الأمسية التى لبث يطرق فيها الى أن صارت الاضواء الآتية من تلك الكوة قرب السقف إلى شحوب وخفوت فأدرك أن أوان ذهابه آن وعليه أن يسرع بالعودة قبل جثوم الظلام وقبل – الأهم من ذلك – أن ينتاب أمه القلق عليه أو تساورها الشكوك.. فلابد أنها عادت الآن الى البيت ولم تجده فى انتظارها كما تعودت طوال حياتهما السالفة.. فأسند مطرقته فى مكانها على الجدار وبالزاوية التى كانت عليها إمعانا فى إبداء الرضى والبراء وخرج دون ان يقول شيئا لساره التى كانت ماتزال جالسة فى وداعة مع اشغال إبرتها وتابعت مروره الصامت عليها بكثير من الدهشة والفضول " الفتى يبدى خنوعا لا يريح!" هذا ما كان يروغ فى رأسها قبل أن تسرع بتذكيره الى أن موعدهما فى الغد.. فاشار لها بيده وهو خارج دون ان يدير ظهره اليها اشارة انه يعلم ثم اطلق لساقية العنان هروبا من وحشية وسكون الغابة الصغيرة التى بدت له رهيبة فى أضواء الغسق الرمادية وحتى يبلغ البيت بالسرعة الواجبة لوضع حد لقلق امه..**

**كان يجرى فقط دون ان يرى ما أمامه ودن ان يفكر فى شىء سوى امه وحين وصل بعد هبوط الظلام كان التعب وتقطع الأنفاس فد وصلا الى أقصى مدى فجلس امام الباب برهة ريثما تنتظم أنفاسه ويجف عرقه لئلا يدخل عليها وهو بتلك الحال فتضطرة الى التمادى فى الكذب عليها ليريح افكارها.. وبعد ان اطمأن الى ذلك قام وفتح الباب ثم صعد الى حيث وجدها جالسة فى انتظاره على تلك السجادة ذات النقوش الباهتة امام الطعام الذى فقد حرارته وقد اتكأت برأسها على راحة يدها فى وضع اخذ بمجامع فؤاده.. فاندفع اليها بكل جوارحه.. ورفع رأسها اليه وراح يلقى عليها سيلا من الإعتذارات عما سببه لها من إضطراب وألم، وردت عليه هى بأن حبته بنظرة تتحدث كثيرا دون ان تقول شيئا ثم اقعدته الى جوارها وراحت تدس الطعام فى فمه ناسية نصيها منه، فاستسلم لها وهو يحاول جاهدا ان يبدو مرحا سعيدا ويثرثر مرتادا موضوعات شتى لا رابط بينها مبقيا إياها فى حالة إستماع مستمرة اليه كيلا تجد فرصة لسؤاله عن المكان الذى خرج اليه وحمله على البقاء فى الخارج كل هذا الوقت مع انه يعلم انها لن تتذوق لقمة واحدة حتى يعود، ومع انه نجح فى تشتيت افكارها بعيدا عن هذا الامر بعض الوقت فانه فوجىء بها تسأله اثناء قيامه الى حوض الغسيل بعد أن سد غائلة الجوع مسرعة بإهتبال فرصة سكوته عن الكلام برهة:**

**- أين كنت ؟..**

**ولأنه كان يتوقع مثل هذا السؤال على أيه حال فإنه لم يجد صعوبة فى ان يقول لها انه خرج يتمشى بعد أن ناله بعض السأم من المذاكرة ثم هرع الى حوض الغسيل وهو يردد لنفسه " لقد صدقتنى.. حمدا لله.. حمدا لله!.. ولاحظ انه سكب على يدية فى هذا المساء كمية كبيرة من الماء على غير المألوف، الأمر الذى جعله يتساءل " لماذا ؟".. ولم يدرك إجابة هذا السؤال إلا بعد أن إعتكف بغرفته ووضع كتبه أمامه وراح يقرأ فاكتشف وقلبه يسقط بين ضلوعه أن أمه لم تنخدع بأكذوبته لأنه نسى وهو ينهى اليها ان خرج ليهدهد سأمه من طول ما ذاكر ان يتذكر حقيبته التى كان قد تركها على السلم فى المكان الذى كان يجلس عليه الرجل فى إنتظاره ومع حساسية الأم ووقوع هذه المخالفة للمألوف والعادة فإنها لابد قد إستنتجت من هذا انه لم يصعد الى غرفته وان امرا إقتضاه ان يرمى بحقيبته على اول الدرج ليخرج على وجه السرعة واذن فهذا هو تفسير ذاك الوجوم الذى رآه يرسم أماراته العابسة على محياها ففضلت ألا تعلق على إجابته وكلها يقين انه سيعلم حالا انه يكذب عليها تلك الأيام لأمر تجهله.. وهكذا وجد نفسه يدرك تلك الحقيقة المؤسفة التى لا إصلاح لها سوى أن يقوم ويصارحها بالأمر كله، وخاصة أنه يعلم أنه الذى حدث الليلة سيتكرر غدا وبعد الغد.. الى ما شاء الله.. وان الوضع سيتغير تماما عما كان عليه.. فبعد ان كان ينتظرها متعجلا حضورها بالطعام فى لهفة.. ستنتظرة هى وسيطول إنتظارها وستقوم بتسخين الطعام اكثرمن مرة.. فبماذا يعلل لها الامر حينذاك ؟ من المستحيل عليه بل من رابع المستحيلات ان يصارحها.. واذا فالحل الوحيد هو ان يفرع من دق قطعة الحديد تلك فى " الإصلاحية " على عجل ثم يؤوب قبل ان يسقط قرص الشمس فى البحر وهو وقت أوبتها اليومية ولأن الفترة الزمنية التى تنحصر بين خروجه من المدرسة وبين مغيب الشمس لا تزيد عن ثلاث ساعات فى الصيف وساعة ونصف فى الشتاء.. والمفروض انه سيقضى شطرا منها فى المسير الى " الاصلاحية " والعودة منها لا يقل عن ساعة ونصف الساعة من الخطو السريع الذى لا يعطله شىء فانه بحسبة بسيطة أمكنه أن يدرك انه لن يتاح له اكثر من ساعة ونصف يقبع فيها بتلك الغرفة " بالإصلاحية " صيفا.. أما فى الشتاء فانه لن يكاد يصل اليها حتى يبارحها ليلحق الوقت قبل أن يفوت وتأوب امه.**

**فماذا يكون الحل..؟**

**أيختصر يوم الدراسة فيبقى بالمدرسة حتى تنتهى الفترة الاولى ثم يتخلف عن حضور الفترة الثانية فيوفر بذلك حوالى ثلاث ساعات اخرى ؟.. انه ان فعل ذلك فسيمكنه تعويض تلك الساعات الثلاث بمجهودة الذاتى وسيسعفه ذكاؤه ولن يبذل جهدا مرهقا فى المذاكرة كما ان ادارة المدرسة لن تعترض على شىء لأنه على حد قول سارة له فى اول لقاء " لن تقيد غائبا فالدراسة فى تلك الاصلاحية تكمل دراستك بالمدرسة! " ولكن.. إن كان يضمن الأمر من تلك الناحية الروتينية التى لا تهمه فى شىء فكيف يضمن ألا يلحظ المعلمون أمره وفيهم رائد الفصل مثلا وهو رجل أعطى الدليل على إستعداده لمشاحنه الغير من أجله.. واذن تبدو تلك الفكرة على وجاهتها صعبة التحقيق..**

**واذا كان الامر كذلك فماذا يفعل ؟**

**عليه ان يقضى ساعة. على الاقل فى تلك الغرفة شتاء ليتحاشى تدخل ساره فى تنظيم وقته وحينئذ يفقد قدرته على التوفيق بين متطلبات صموده ومعنى هذا انه تبقى لدية نصف ساعة على الاكثر يقضيها فى الذهاب والإياب فهل يستطيع بوسيلة ما ان يجعلها كافية.. يبدو الامر سهلا.. لو كانت امه تنفحه بنقود تكفى لركوب " اتوبيس " فى رحلة ذهابه وعودته من المدرسة.. فانه انذاك كان يمكنة توفيرها لرحلة ذهابه وعودته من الإصلاحية غير أنه للاسف ليس هناك نقود كافية لمعيشتهما فكيف لركوبة ؟..**

**مستحيل.. ينبغى ان يجد حلا وإلا إنهار كل شىء.. ولا حل بغير الاعتماد على الحلول الكامنه فى ذاته.. وهذا يعنى انه سيكون عليه ان يسابق نفسه ويجرى عشر دقائق فى الطريق من المدرسة الى " الاصلاحية " وثلث الساعة فى الطريق من " الإصلاحية " الى البيت فالمدرسة أقرب قليلا من البيت..**

**فهل يستطيع ؟..**

**يستطيع انه لا حل غيره.. وعلى هذا – وحيث ان الوقت الان شتاء – فيكون تخيلة لنشاط يومة على النحو التالى " فى الصبح يذهب الى المدرسة ويستغرق فى التحصيل الى ان يدق الجرس دقته الاخيرة.. فيحرص توفيرا للوقت على ان يكون فى طليعة الخارجين.. ثم يجرى الى الاصلاحية ليقطع المسافة فى عشر دقائق بأية وسيلة.. وأيا كان التعب الذى حل به من جراء ما بذل من جهد فى العدو فإن عليه ان يحمل فى بدنه من إمكانيات القوة والنشاط ما يحقق له طرق قطعة الحديد اللعينة والصياح بمقولة " الون " بفرحة هذا " التمرد الراضى " الذى أزمعة إلى أن يأتى أوان عودته فيلزم نفسه بقطع المسافة بين الإصلاحية والبيت فى ثلث ساعة على الأكثر ليصل قبل أوبة أمه.. فيتناول معها الطعام ثم يستريح بعض الوقت.. وينشط الى دروسة ليستوعبها بنفس الهمة والتركيز الذى تعودهما.. تخيل الموقف كله على هذا النحو كما لو كان واقعا تحت حسه وبصره وبطبيعة الحال أدرك انه سيتكلف مجهودا جسيما فوق الطاقة.. وانه لهذا قد يبوء بالفشل الذريع لاسيما انه يقضى النهار كله دون ان ياكل او يشرب شيئا يجدد حيويته ونشاطه.. ولكن هل لديه حلا آخر.. إن عليه ان يحاول ويجرب ذلك غدا.. أما الآن فليدع التفكير فى هذا الأمر وليذاكر دروسه باستغراق كإستغراق البوذى أو ممارس رياضة اليوجا!**

**وفى الغد التالى ما كاد جرس المدرسة يرن رنته الاخيرة حتى كان سامح اول من خرج من المدرسة.. ولحسن حظه إكتشف طريقا فرعيا يوصلة الى الإصلاحية دون ان تعطله حركة المواصلات والناس فى الطريق الرئيسى وفضلا عن انه طريق لا يعج بالحركة فانه يتميز بميزة أخرى أهم وهى أنه أقصر كثيرا فراح يركض فيه مغلقا فمه ومركزا عملية التنفس وسحب الهواء فى طاقتى أنفه فحسب حتى لا يلهث.. ويركز أفكاره أيضا.. وكانت نتيجة ذلك سارة جدا فإنه ما لبث ان وصل فى الوقت الذى قدره او تجاوزه قليلا.. ودفع الباب ثم تجاوزه مخترقا الردهة الى الباب الذى كانت سارة تجلس أمامه تحملق فيه وتنظر الى ساعتها وقد رفعت حاجبيها دهشة من ان يصل بتلك السرعة فهى تعلم ميعاد إنتهاء اليوم الدراسى الذى لم تتوقع ان يحرص سامح عليه الى آخر دقيقة فيه بالإضافة الى دهشتها من هذا الحماس الذى كان واضحا عليه من إقباله على طرق الحديد والذى يبدو انها لم تكن لتتوقعه ايضا وحياها بايماءة من رأسه ثم إنسل داخلا وفى الحال إرتفع ضجيج الطرق ممتزجا بصياحة وهو يردد تلك المقولة واستمر ذلك بلا توقف وكأنه لم يشعر بالتعب ولم تهرب منه أنفاسه لحظة ليتوقف مما أضاف الى دهشة المرأة التى واصلت شغل الابرة على حين كانت تنصت اليه – الحيرة من أمره.. ثم جاءت لحظة توقف فيها فلم تعد تسمع شيئا وخيل اليها لأول وهلة أنه بعد هذه الجولة الطويلة قد توقف ليلتقط أنفاسه لكنه فاجأها بانه قد وضع نهاية مبكرة قليلا لعمله فى هذا اليوم بظهورة خارجا.. حينئذ وقعت عيناها على أقسى وأبشع منظر لإنسان بذل جهدا عضليا ونفسيا فى إنجاز عمل فقد فر لونه تماما حتى أصبح بلا لون بعد ان تعدى مرحلة الإحمرار الدموى التى تشى بالإرهاق الى مرحلة ما بعد الإرهاق التى تهرب فيه ألوان الوجه.. وقد أغرق العرق ملابسه حتى بدا وكأنه قد إستحم بها وأنفاسه التى كانت تتلاحق فى سرعة مخيفة وكأن فى رئتيه شيئا يتحشرج داخلها ويوشك ان يخنقه.. وقد تدلى لسانه.. وسال لعابة وعن لها ان تقول له " يا إلهى إسترح على السرير لحظة.. نحن لا نريد أن تجود بأنفاسك الأخيرة!" لكنه أذهلها مرة أخرى.. بأن يجد - وهو يلتقط تلك الانفاس بالكاد - بقايا قوة على إلتقاط حقيبته التى كان قد وضعها على المكتب أمامها ريثما ينتهى.. ثم فى جريه على هذا النحو وقد ضم الحقيبة الى صدره ليمسك بها روحه التى ستنسرق منه لامحالة أو ليساعد نفسه فى العدو.. لا تدرى.. منصرفا.. فنهضت مسثارة ووقفت بالباب وهى تقول لنفسها انه لن يلبث ان يسقط مغشيا عليه بعد امتار قليلة من ابتعادة عن المبنى ومرة اخرى أخطأ ظنها.. فقد كان يعدوا مبتعدا باقصى سرعة كما لو كان فى كامل قواه، فخبطت أخماسا فى اسداس وظلت تتابعه بناظريها الى أن إختفى وهى تتوقع سقوطه تعبا بين لحظة واخرى.. ثم عادت الى مكانها واثناء ذلك غمغمت وهى لا تكاد تصدق ما رأت:**

**- هذا الفتى مجنون ولا شك.. لقد أنجز عمل اليوم فى نفس واحد ولمدة ساعة كاملة كما لو كان يملك قوة ثور يخور خوارا متصلا تحت وطأة ما يشعر به من عنفوان ضاغط.. ثم أسرع يجرى وهو يكاد يموت تعبا كما لو كان يخشى أن يفوته قطار.. ومع ذلك لم يتوقف ليسترد أنفاسه.. لماذا.. وما سره ؟ ثم إلام إنصرف اليوم ومازال الضوء فى غرفة الطرق قويا لبضع دقائق أخرى ؟.. صحيح أنه أنجز اليوم أضعاف ما أنجزه بالأمس لكنه حرص على الإنصراف مبكرا بحوالى نصف ساعة... فلماذا.. لماذا ؟ إنى حائرة من أمر هذا الفتى العجيب.. إنه مجنون ولا شك..!**

**أما عن سامح فان أصدق تصوير لحالته وهو يجرى فى ماراثونه الخاص انه كان يحاول شيئا ليس فوق طاقته المحدودة فحسب وإنما فوق طاقة البشر.. ومع ذلك لم يقف هنيهة.. تهالكت قوى ساقية ومع ذلك لم يتوقف.. لم يعد يرى شيئا امامه ومع ذلك لم يتوقف.. كان يجرى بقوة إرادته فحسب.. ويبحث داخل نفسه عن مصادر قوى جديدة غير قوى الجسد التى إنهارت تماما ونفذت.. فأمدته نفسه بدفعه من القوة الكامنة والتى اكتشفت الآن أنها تغنى عن قوى الجسد وإلا فلماذا لم يصرعه فقدان قواه الجسدية.. ولماذا ما يزال يجرى بدونها..؟..**

**ومازال سامح يتساءل هكذا الى ان بلغ أعتاب البيت فاصطدم بالباب صدمة عنيفة كما لو كان تيار العزيمة الجارف قد سيطر على مركز الحركة فى عقلة فلم يعد يعمل وفات عليه أن يصدر أمرا الى ساقية لتتوقف فى الوقت المناسب.. مما جعله يبدو فى صدمته بالباب كما لو كان كرة دفعها صبى بقدمه.. ولكن هل توقف هذا التيار بعد ان إطمأن الى أنه قد وصل قبل مغيب الشمس.. كلا لأنه أدرك أن الخطر- كل الخطر- فى أن يستسلم لهذا الإرهاق الذى لا يوصف فيتصرم وقته الغالى وتعود أمه وتجده – على غير العادة ايضا – ينتظرها بالباب.. فتعلم من هيئة ملابسه ووجهه وحقيبته انه لم يعد الى البيت إلا الآن.. وحينئذ تضيع جهودة المستحيلة عبثا.. ولذلك.. فلينفتح هذا الباب فى سرعة حسنا قد إنفتح الباب.. وليصعد السلم مدفوعا بقوة هذا التيار.. حسنا ها هو يصعد.. ثم ها هو يفقد تلك القوة بغته على قيد خطوات من حجرته.. ويسقط على الأرض منهارا كالجدار.. ثم ها هو يريح حطام تلك الأعضاء ويخطف بقايا تلك الانفاس.. مشبعا بنشوة الانتصار.**

**- 18 -**

**وبعد بضع دقائق كانت الام قد دفعت مفتاحها فى قفل الباب.. وسمع سامح صوت الخشخشة التى صاحبت فتحة فانتصب على قدمية من رقدته امام باب غرفته ثم فى التو رمى حقيبته فى أى مكان داخلها وهرول الى رأس السلم ليستقبلها ويتعجل صعودها بالطعام فى جلبة ونفاذ صبر كما ألف هو ان يفعل وكما ألفت هى ان تراه.. وأحس إبان ضجيجه هذا أنه سعيد يغمره الرضا بكل شىء.**

**كان سعيدا راضيا لانه عرف الطريقة المأمونة التى يعامل بها هؤلاء الناس دون ان يفرط فى واجباته المدرسة ولان امه مازلت على الرغم من هواجسها جاهلة بكل شىء ولانه اكتشف فى اعماق نفسه مصادر جديدة للقوى.. وان قطعة الحديد فى تلك الحجرة المظلمة الاركان لن تفل عزمة.. على العكس.. ستقوى عضلاته.. ولان رائد الفصل على اتم إستعداد للتضحية بنفسه من أجله إن أراد.. بل كان راضيا حتى عن ساره.. غير أن رضاه وفرحته بنجاحه تلك الأمسية فى لقاء أمه على رأس السلم كان أكبر وأعمق من فرحته ورضاه بهذا كله.. وعندما بلغت الأم آخر درجة تمهل قليلا حتى تستقر فى وقفتها تماما، ثم دفع نفسه فى صدرها فصحبته الى الداخل و..**

**تكرر ما يحدث كل مساء باختلاف طفيف لا يغير من رتابة الاحداث هو ان سامحا فاجا امه وفاجا نفسه – ابان تناول الطعام – بسؤال غريب " عمن بنى بيتهما " وتوقفت الام عن المضغ برهة تنظر اليه بفضول.. وبانت على محياها البدايات الاولى لتكوين علامة إستفهام او إستهجان.. لا يدرى.. فاسرع هو يقول مفسرا:**

**- إنى أعلم ولا أشك ان جدى هو الذى بنى هذا البيت منذ نحو نصف قرن..**

**قاطعته بحرارة:**

**- واكثر..!**

**فاستدرك:**

**- لكنى لا أسال عن ذلك.. إنى أسال إن كنت تعلمين اسم المهندس او المقاول الذى قام ببنائه..!؟**

**وتبادل الاثنان نظرة تفاهم.. فى توقيت واحد.. كانما هناك اتفاق متبادل.. ثم حولت الام عينها الى الجدار الذى يواجهها.. وشردت قليلا كأنما تستعيد ذكريات الايام الخالية ثم قالت فى بطء وحزن:**

**- ما كان اعظم جدك يا سامح.. كان رجلا بمعنى الكلمة..!**

**ثم التفت اليه واسترسلت وهى تتنهد وتبتسم إبتسامة عذبة حنونة:**

**- لم أكن قد ولدت بالطبع حين بنى جدك هذا البيت.. فقد بناه وهو بعد شاب لم يتزوج.. لكن.. ياللأسف لا اقدر الآن على تذكر الاسم الذى تسأل عنه.. وإن كنت أؤكد لك أننى أعرفه.. لكنه لا يحضرنى الآن.. وأعدك أن أخبرك به ذات يوم بمجرد أن أتذكره لكن.. أخبرنى أولا.. لماذا تسأل هذا السؤال العجيب ؟!**

**ووضع سامح اخر لقمة فى فمه ثم استعد للنهوض وهو يقول:**

**- لا.. لا لسبب معين.. لكن حاولى ان تتذكرى اسم هذا الرجل.. فانى احب ان اعلم كل شىء..**

**واستدار خارجا.. ثم أوى الى غرفته وفكر فى أن ينكب على دروسه ومطالعاته.. ثم تذكر ذلك المجهود الخارق الذى بذلة اليوم فخامرته نشوة وأرجفته فى ذات الوقت رعشة لإدراكه انه سيتحتم عليه غدا ان يجتاز نفس المحنة ويجابه ذات الإختبار لقدراته.. واستولت تلك الرجفة عليه تماما وهامت بافكارة ومشاعره بعيدا عن التفكير فى المذاكرة.. لانه حينما تذكر قطعة الحديد البارد وساره والمطرقة والمهندس ألون هدر فى اعماقة صوت يقول " ستنجح.. ستهزمهم جميعا.. لا تخف " ثم سمع فى أعقاب هذا الصوت صوت أمه وهو يقول ما كان أعظم جدك.. كان رجلا بمعنى الكلمة فغمره فيض من إنفعالات الزهو والرضى واستدار بجسده الى حيث كانت صورة أبيه المعلقة على الجدار خلفة.. ووقف حيالها وقتا يتأمل شاربة الكث.. المستقيم.. وملامحه الهادئة الرصينة.. وعيناه الثابتتين الراسختين.. والتهبت خيالاته فالقت به فى افاق شاسعة.. وطفق يتخيل نفسه فى صورة جندى هبط من السماء حاملا مدفعا يطلق نوعا من الاشعة الكونية الى مسافات بعيدة فيذيب كل شىء.. البيوت والرمال والسيارات والطائرات والاشجار تجرى ممتزجة بمصهور المعادن والأحجار فى كل مكان.. آخذة طريقها الى البحر لتتطهر.. ثم بدا له وهو يفكر لا شعوريا ان قد ساوى فى حلمه بين الطيب والخبيث فبدأ يعيد ترتيب الأوضاع ويركز أشعته الساحقة على الدبابات والطائرات الحربية والسفن المحملة بالأسلحة فى عرض البحر فقط ودون ان**

**يريق تلك المرة نقطة دم واحدة.. واستمر يحلم على تلك الوتيرة الى ان تبلجت وسط الحطام وسحائب الدخان صورة أبيه فانتبه لنفسه وقال بعد ان إنقشع الحلم تماما عن تقاطيع وجه الأب السمحة الأبية " كان رجلا بمعنى الكلمة هو الآخر " ثم تضاحك فى أعماقه ساخرا من حلمه.. واتجه راضيا مغتبطا الى فراشه وفى الحال راح فى سبات عميق ثم كان يومه التالى عاديا ككل الايام من بداية إستيقاظه فى الصباح الى ان دق الجرس معلنا انتهاء اليوم اليومى الدراسى.. وبالطبع.. كان فى مقدمه المنصرفين يجرى فى سرعة وعزم ومثابرة صوب الإصلاحية ويمنى نفسه بالفوز بتلك النشوة المريحة التى ظفر بها بالامس القريب وما إن بلغها فى الوقت المحدد حتى شعر لفرحته ان إرهاقه أقل مما شعر به البارحة وهو يدنو من الباب وكأن جسدة بكل أعضائه وأجهزته قد بدأ يتكيف ويتعود على هذا المجهود.. ولذلك الفى نفسه أكثر إمتلاكا لإرادته وتفكيره.. فلم يدفع الباب فى ضجر كما كان يفعل سابقا بل نقر عليه بعد أن إجتذب من الهواء نفسا عميقا أعاد به الى رئتيه إنتظام حركتها.. نقرا مهذبا.. وسمع صوت سارة يناديه من الداخل قائلا:**

**- أدخل يا سامح..**

**فدخل بخطو وجنان ثابتين.. ثم ألقى عليها تحية المساء بإيماءة من رأسه أكثر وداعة تلك المرة فأومأت**

**له بمثلها ثم انتظرت حتى جاورها فى سيره ناحية الباب فأمسكت بيده لتستبقيه قليلا وأثناء ذلك قالت:**

**- إنى أراك فى خير حال تلك الايام.. لكنك تنتظر بالمدرسة الى نهاية اليوم وهذا يؤثر على دراستك هنا.**

**هتف متمالكا اعصابه:**

**- انى...**

**قاطعته مستطردة:**

**- انت لا تكاد تسمع آخر جرس حتى تجرى الينا.. لتمنحنا ساعة من وقتك الذى تسرف فى إنفاقه هناك بينما تقتر هنا.. الى حد انك تسرع بالانصراف لسبب لا ندريه فى الوقت الذى يكون فيه الضوء قويا بدرجة كافية لعدة طرقات أخرى.. فلماذا ؟**

**- سيدتى..**

**- اتظن انك تأتى هنا لتمرين عضلاتك!.. انت يا فتى فى غفلة من أمرك.. ولا تريد ان تفهم ان الدراسة هنا لها اهمية الدراسة هناك.. إن لم تكن أكبر.. وانه سيعقد لك امتحان وستضاف درجات نجاحك فيه الى جانب درجات المواظبة وحسن السير والسلوك الى درجاتك بالمدرسة.. فهل تعلم ذلك ؟**

**- سيدتى..!**

**- سحقا لسيدتك.. إننا نطالب.. بل نأمرك بقضاء ثلاث ساعات على الأقل هنا لا ساعة واحدة..**

**إنخلع قلب سامح وهو يسمع قولها الاخير فصاح:**

**- ثلاث ساعات..**

**فردت عليه قائلة وهى تتجاهل صيحته ببرود:**

**- أجل فى الشتاء.. وتضاف ساعة رابعة فى الصيف.. لحين صدور تعليمات أخرى اليك.. فقد نزيدها! والآن إذهب سنصفح عنك تلك المرة فقط.. لكن.. إياك.. إياك ان تمكث بالمدرسة غدا الى نهاية اليوم.. فدراستك هنا..**

**قاطعها محتدا وهو يمسح بأنفه:**

**- أية دراسة تلك التى تزعمين ؟.. الطرق على الحديد البارد وترديد المقولة الفارغة! أتسمين هذا الهراء دراسة..؟!**

**وسادت بينهما دون توقع لحظة من الصمت.. فقد كان عليها ان تعلق بشىء على قوله الخطير.. لكنها مضت تتفرس وجهه وتنظر فى غور عينية بالطريقة التى عودته إياها حينما يقع منه أمر يستدعى إنعام النظر لعجم السريرة، ثم قطعت صمتها قائلة:**

**- إذن فأنت تعلن إحتجاجك وسخريتك مما نقدمه لك يا فتى!.. أجل هكذا إظهر على حقيقتك.. إظهر!.. وانا التى كنت اظنك..**

**فقاطعها ثانية قائلا بضيق:**

**- دعك من إستنتاجاتك وظنونك.. فقد تحسنت أحوالى فعلا فى اليومين الأخيرين.. لقد فهمت!**

**وسكت لحظة تنفس فيها الصعداء ثم أردف:**

**- وأظن أن الوقت قد حان لهذا..!.. لم أكن أعرف شيئا أبدا قبل أن أدخل تلك الغرفة..أوه..لا!.. كنت أعرف أشياء كثيرة عما يراد بنا.. ولكنى لم أكن أعرفها معرفة كاملة.. وما أظنكم تستطيعون معى ذلك ابدا.. وإن كنتم قد أصبتم بعض النجاح مع غيرى إلا أنكم لن تقدروا على!.. ان كل من فى المدرسة حتى أولئك الذين لا يحموننى.. يعتبروننى أذكى طالب هناك.. وأنا أرى نفسى ذكيا إلى حد يزعجكم.. إننى لست كغيرى.. انا أفهمكم كثيرا.. كثيرا..!..**

**صاحت مغضبة فجأة:**

**- أنت مغرور كبقية قومك!.. مغرور وغبى لا تفهم شيئا..**

**فضحك ضحكة مرحة طويلة لأنه أفلح فى إخراجها عن طورها وغمغم:**

**- مغرور كبقية قومى.. لم لا تقولين ومختلف أيضا عنهم..!.. حسنا.. انا مغرور وغبى لا أفقه شيئا.. لكنى فى ذات الوقت مخلص ومطيع لاننى أفقهكم جيدا..!.. فأرجوك يا سيدتى لا داعى لهذا القذف والتجريح الذى لا طائل من ورائه.. لئلا يضيع الوقت الذى على أن أنفقه فى البرهنة على أننى أبادلكم حبا بحب..!..**

**وسكت عن الكلام هنيهة ليرقب الأثر الذى تركه فى نفسها.. بدا له أنها إستعادت هدوءها ولم تعد تكترث به.. فانحنى لها مستأذنا فى الإنصراف بحركة دمثة مغالى فيها وأضاف:**

**- عن إذنك الآن.. المطرقة تدعونى..!**

**ثم توارى داخلا.. واستطاعت هى من صدى صوته فى أذنيها ومن وقع خطاه ان تستشف خنوعا غير مريح فغمغمت لنفسها وهى تقضقض اسنانها:**

**- إنه يتخاضع..!**

**وما لبث صوتها أن ضاع وسط صياحه وضرباته.**

**- 19 -**

**توالت الاحداث بعد ذلك سراعا فى الايام التالية وتصاعدت وتأزمت لأن سامحا لم يمتثل لأمر ساره بتقسيم وقته بين المدرسة والإصلاحية.. بحيث يقضى ثلاث ساعات على الأقل فى غرفة الطرق ومضى ينظم وقته بالطريقة التى قررها والتى كلفته غاليا من صحته فشحب وجهه واحتدت ملامحة وبدا كأنه كتلة من الإرادة فقط.. كان يوشك على الإنهيار الصحى ومع ذلك لم يتحرك عن موقفة قيد أنمله مما أزم الأمور بينه وبين تلك المرأة التى إكتفت فى اليوم التالى بلفت نظره.. ثم لما لم يذعن أنذرته فى اليوم الثالث.. ولما صعر خده ورفع أرنبه أنفه الى السماء فى إستعلاء أعدت له فى اليوم الرابع مفاجأة لم يكن ليتوقعها.. فقد وجد فى انتظارة امام باب الاصلاحية رجلا مفتول العضلات يكشف عن ساعدية القويتين رغم برودة الجو وحين رآه تسمرت أقدامه بالأرض رعبا ودهشا ففوت على نفسه فرصة الهرب من هذا الرجل المخيف الذى وثب عليه ودفعه الى إحدى الاشجار ثم ربطه بها ربطة الكلب وأخرج من تحت قميصه سوطا لاهبا كان يتخصر به ثم جعل ينهال عليه ضربا دون أن يميز الأماكن التى يقع عليها سوطه ورغم أن السوط كان يسرسع فى الهواء ويلذع سامحا حتى العظام فإنه تماسك.. لم يصرخ أو يبكى.. راح يتلوى فقط.. ويئن أنينا خافتا مكتوما.. مما أهاج الرجل فانهال عليه كالمجنون يضربه فى كل مكان.. الى أن افقده رشده..**

**وكانت سارة واقفة اما الباب تنظر عن كثب بابتسامة عريضة على شفتيها.. فلما رأت أنه فقد وعية أمرت الرجل الذى بدا كأنه فقد عقلة.. بأن يكف وإلا رفض الغلام أن يخرج من غيبوبته الى تلك الحياة بعد الآن فلبى الرجل أمرها صاغرا.. وصرفته هى.. ثم دلفت الى الداخل وعادت بعد نحو دقيقة حاملة دلوا صغيرا يمتلىء الى حافته بالماء المثلوج وألقت ما فيه على وجه سامح دفعة واحدة فأغرقته وبللت ثيابه وفى التو أطلق سامح شهقة كاد ان ينفطر لها قلبة ثم بدأ رأسه الذى كان قد إنحنى على صدره كرأس المشنوق يتحرك.. وشيئا فشيئا إسترد وعيه ورفع عينيه ليراها واقفة أمامه ترنو اليه فى شماته وبيدها الدلو كأنها تقول " حرمت!" وتبسم له بسمة مقيتة فصرخ وهو يشعر ان كل جسده يلتهب:**

**- فكى وثاقى يا غليظة القلب..!..**

**فأطلقته من أسره وهى تحذره أن يأتى عملا طائشا ينتقم به منها.. فليس صحيحا أنها وحدها فى هذا المكان بل إنها تستطيع وقتما تشاء ان تستدعى عشرات الرجال التى تنشق عنهم الارض او الجدران على حد قولها، فكان رد سامح غريبا غاية فى الغرابة.. إنه لم يهرب أو يرميها بحجر أو أى شىء من هذا القبيل.. بل حث خطاه فى ضعف.. وهو يكظم أنينه من الآلام التى كان يشعر بها تتضاعف كلما تحركت عضلاته وخطا خطوة نحو الباب فظنته يلوذ بالسرير ليريح جسدة المنهوك.. المضعضع.. ودلفت خلفه لترى أنه ليس على السرير وليس فى أى مكان بالردهة.. وقبل أن ترتسم على محياها أمارات الفضول والتساؤل إرتفع من باطن الحجرة الداخلية صوته جريحا مكلوما يردد مقولة الون.. على حين كان يصرع قطعة الحديد بخبطات بدت لها طائشة ثقيلة من فرط تعب فاكتنفها الحنق والكمد من تصرفه هذا الذى رأته فى هذا الوقت فظيعا لا يحتمل.. ثم إندفعت الى الغرفة وصاحت به بمجرد دخولها:**

**- ماذا تريد ان تثبت ؟**

**فتجاهلها ومضى يضرب ويصيح بحماسة أكبر.. غير آبه بآلامه التى كانت تندلع كلما تحركت عضلاته فصرخت به مكررة:**

**- ماذا تريد أن تثبت ؟**

**ولما رأت تصميمه على تجاهلها.. حدجته بنظرة مقت وحقد أضاءت لها عيناها.. ثم إنقلبت عائدة وهى تغلى وتفور ولا تستقر على حال.. وظلت هكذا تروح وتجىء فى الردهة وهى تصيح فى نفسها:**

**- يا إلهى.. وحش قد خلقناه لأنفسنا!.. وحش إنطلق من قفصه ولن نستطيع إمساكه بعد الآن.. لن نستطيع أن نخرس صوته.. إنه يحاربنا بنفس سلاحنا..!**

**وبعد حوالى الربع ساعة خرج سامح محطما.. يئن فى صمت من آلامه.. وكل همه أن يستحث أقدامه على المسرير الى البيت قبل أن ترجع أمه.. فقد إنصرف مبكرا فى هذا اليوم لانه رام ان يكسب الوقت وهو بتلك الآلام.**

**وما كاد يطمئن الى أنه قد ابتعد الى الحد الذى لا يسمعه فيه أحد، حتى أفلت لصوته الحبيس العنان فراح يصرخ وينفث آلامه ويبصق الى أن خرج من الغابة وأصبح على الطريق الرئيسى فألجم صوته مرة اخرى**

**ثم مرت تلك الليلة كما اراد لها ان تمر ولكى يفوت على الام فرصه تأمله طويلا وسؤاله عن أحواله راح يثرثر بقصة مختلقة عن زميل له ينافسه وهو يزدرد طعامه ثم أنهى اليها أنه متعب قليلا من عمل اليوم بالمدرسة وفزع إلى غرفته وأغلقها على نفسه.. ونام نوما أرقا متقطعا يكتظ بالكوابيس وتباريح الاحلام وفى الصباح التالى.. شعر ان قواه لا تسعفه بالخروج الى المدرسة هذا اليوم.. لكنه تحامل على نفسه كيلا تظن امه شيئا – ودائما أمه – وخرج وهو يغالب ويكبح آلامه التى لم تكن قد سكنت بعد.**

**ولسبب ما إضطربت الدراسة فى هذا اليوم على اثر نشوب عراك بدأ بمشادة كلامية بين مدرس يهودى وآخر مسيحى ثم تطورت حتى شملت بقية المدرسين من مختلف الطوائف.. فهاجت المدرسة وماجت.. وتجمهر التلاميذ أمام الفصول يتفرجون على المهزلة التى يمثلها معلموهم أمامهم.. وذهبت الجهود سدى فى تهدئة النفوس.. وجاءت الشرطة فوضعت حدا لهذا الشجار لكن بعد ان بدا مستحيلا مواصلة الدراسة فى هذا اليوم.. فأمر مدير المدرسة بفتح الأبواب لخروج التلاميذ.. الذين كان معظمهم قد إنتهز الفرصة وتسلق الأسوار وهرب.**

**ووجد سامح نفسه فى الطريق لا يجد مكانا يذهب اليه بعد ان انتهى اليوم الدراسى ولم يكد يبدأ.. ودون أن يفكر أين يذهب هذا الصباح!.. أخذ طريقة الى الإصلاحية وهناك ألفى سارة فى إنتظاره دون أن تعجب أو تقول لنفسها " أنه إستسلم " لأن خبر تلك الفوضى التى وقعت بالمدرسة كان قد وصل اليها.. ولهذا توقعت حضورة مبكرا.**

**ودخل سامح الغرفة وأمضى بها بضع ساعات.. ثم خرج بنفس الطريقة التى دخل بها دون ان ينظر اليها وسار الى الباب الخارجى مزمعا الإنصراف.. فلحقت به هى وأمسكته من كتفية وأدارته اليها ونظرت فى وجهه لحظة ثم قالت بابتسامة صفاء وود:**

**- لماذا لا تريد ان تخاطبنى او تنظر الى ".. اما زلت غاضبا منى..؟!**

**فنزع نفسه منها بامتعاض واولاها ظهرة ذاهبا.. ولم يعجبها تصرفه هذا فاسرعت تذكرة قائلة بضيق:**

**- غدا عطلة نهاية الأسبوع وعليك أن تأتى من بداية النهار لتقضيها معى..!**

**بيد انه فى اليوم التالى جاء متأخرا بعد الظهيرة.. ثم قضى ساعتين فى الغرفة الداخلية وخرج فقالت له محذرة:**

**- تذكر انك غدا ستختصر وقت المدرسة لتقضى هنا ثلاث ساعات على الاقل..!**

**فلم يبد إهتماما بها وانصرف على عجل.**

**ثم عاد فى اليوم التالى بعد أن إنتهت الدراسة ومتأخرا أيضا عن الميعاد مما أوعز اليها بانه قطع الطريق ماشيا على مهل.. وهذه كانت - فى نظرها – بادرة غير طيبة منه أفهمتها انه لا جدوى معه من إتباع القسوة فى معاملته لأنها لن تزيده إلا عنادا وأن عليها ان تروضه بطريقة أخرى.. ولذلك أسرعت تسقبله بابتسامة مصطنعة لم تنطل بشاشتها على ذكائه فأمعن فى الصمت والتجاهل وهو يتجاوزها داخلا من الباب الذى خلفها عندئذ أمسكته من تلابيبه وألقته مباشرة على ركبتيها وتمتمت وعيناها تغوران فى عينية بنبرة صوت إستشعر فيه – لحيرته – نشوة حقيقية:**

**- أنت تدعونى لحبك يا فتى.. رباه.. تتجاهلنى هكذا.. كل هذه الأيام.. كلا انا لا اطيق خصامك!..**

**فخلص نفسه من بين ذراعيها وهو يهمهم بنفور وتقزز:**

**- أووه.. دعينى وشأنى.. لم نتفق على هذا.. ليس بينى وبينك من أسباب الحب سوى تلك المطرقة وهذا الحديد..!**

**واستدار ذاهبا لحال سبيلة.. تاركا إياها تلعق شعورها بالمهانة والإحتقار.. ثم ما كادت تمر بضع دقائق على الطرق والصياح حتى خرج فجأة يبغى الإنصراف، وكان يتوقع ان تحتج على هذا التصرف فتعبس فى وجهه وتقول له مثلا انه وقد جاء متأخرا فإنه ينصرف مبكرا.. غير انه وجدها تتأمل ذهابه بهدوء وابتسامة صريحة راضية تلاعب شفتيها.. فهز لها كتفية فى لا مبالاة.. وانصرف.. ثم راح يسير فى الطريق بين الاشجار.. يفكر فى معنى إبتسامتها ويطلق من بين شفتيه صفيرا مرحا.. وقد وضع يديه**

**فى جيوبه.. وفى بعض الأحيان كان يروق له أن يضرب بمقدمة حذائه فى جسارة غير معهودة على هذا الحذاء قطع الحصى والطوب التى كان يقابلها.. وعيناه تدوران حوله.. كما لو كان يود لو رأى إنسانا او حيوانا حتى.. ليبادله الحديث وتحقق له ما كان يصبو اليه من محادثة إنسان.. حين خرج الى الطريق العام لطيته فرأى عجوزا محدودب الظهر يتكىء بذقته الرخوه على عصاه التى قبض عليها بكلتى يدية محملقا فى الطريق ناحية الداخل كما لو كان يرقب شخصا آتيا من الغابة.. حينئذ لوح له بيدة فى مرح قائلا:**

**- هيه..!.. أيها الجد الطيب.. ماذا تنتظر فى هذا المكان المقفر..؟**

**وأطل العجوز عليه بنظرة تحوى عمق تجربته الطويلة مع الحياة وكان مجيبا كأنه يداعبه او يلاطفه:**

**- أنتظرك أنت..!**

**وتلقى سامح دعابته فى حسن نية وتساءل:**

**- تنتظرنى انا..؟**

**- اجل يا بنى.. فقد شعرت بك وانت قادم من هذا الطريق.. فحدثنى قلبى بانك فى حاجة الى.. فقلت لنفسى انتظرك لترافقنى فى رحلة العودة الى داخل المدينة.. فأستفيد أنا صحبتك الفتية.. وتستفيد أنت حكمتى العجوز..!**

**- وماذا كنت تفعل هنا..؟**

**- أضيع هذا الوقت الباقى من حياتى..!**

**- ماذا ؟**

**ودعاه العجوز الى السير ممسكا يده فى عطف لا يماثلة إلا عطف أمه.. على حين توكأ باليد الأخرى على عصاه.. دون ان يجيب سؤال سامح الذى ساير خطواته الوئيدة بكثير من الإشفاق والألفة..ومضت برهة صمت رمقه العجوز أثناءها بنظرة تأمل آسرة طويلة من ركن عينه ثم تمتم:**

**- يبدو لى أنك تعانى شىء ما يا بنى..**

**فهمس سامح قائلا فى إيجاز وهو يزفر:**

**- بالفعل..!**

**وحياه العجوز بنظرة اخرى عميقة تدعو للإئتناس والاطمئنان قبل ان يقول:**

**- اذن.. لماذا لا تقص على حكايتك ؟.. قل لى ماذا يجرى فى هذا المكان ؟.. وماذا يضطر فتى مثلك إلى إرتياد مثل هذه الاماكن المنعزلة التى لا يفضلها سوى عجوز مثلى يقضى أيامه القليلة الباقية فى الحياة دون هدف أو أمل.. اللهم إلا فى أن يأتيه داعى الموت بوجه لا يخيف..!**

**وانتابت سامح مشاعر العطف التى يمكن تخيلها على هذا العجوز " الذى يقضى أيامه القليلة الباقية فى الحياة دونما هدف أو أمل غير أن يأتيه داعى الموت بوجه لا يخيف! ".. وفكر فى الأمر لحظة.. ثم**

**قال:**

**- دعنى أصارحك بان هنك اسبابا قوية تمنعنى من ان اقص عليك حكايتى.. لكن لا بأس بصفة عامة من ان اقول لك اننى وقعت فى حبائل قوم لا.. لكن.. أخبرنى أولا.. ما اسمك ؟**

**كان سامح يقصد من معرفة اسمه ما إذا كان يهوديا ام لا.. كيلا يندفع فى حديث يؤذى شعوره.. وفهم العجوز ما يرمى اليه فضغط على يده مطمئنا وهو يغمغم بانفعال:**

**- كلا.. إطمئن.. آه.. حتى أنتم أيها الصغار تولون هذا الامر عنايتكم قبل ان تقدموا على شىء.. إطمئن.. انا عربى مثلك..**

**- وشردوا عائلتك ايضا..؟**

**- وشردوا عائلتى ايضا..!**

**- وانتزعوا أرضك أو بيتك ؟**

**- انتزعوا كليهما..!.. والآن انا أعيش أيامى الباقية عالة على بعض الاصدقاء القدامى الطيبون..بلا اقارب وبلا ابناء.. اولادى جميعا.. وقد كانوا سبعة رجال أشداء لا يسع المرء إلا ان يفخر بهم.. قتلوا أو إعتقلوا.. لا أعرف شيئا عنهم.. أنا وحيد..!**

**قالها بطريقة أوجعت منها سامح وشعر بكل كلمة تنفذ الى قلبة وتمزقه كأنها طعنة فى الصميم وامتلأت عيناه بالدموع واغتصب إبتسامة خادع بها العجوز ثم قال مهونا:**

**- لا تحزن يا جد.. نحن جميعا مثلك.. انا ايضا فقدت ابى.. واوشك ان أفقد امى وبيتى ومدرستى..!**

**- انت ايضا ايها الصغير البائس..!؟**

**- اجل يا جدى العزيز.. والله.. انا ايضا..!**

**صمت العجوز لحظة ينعم الفكر كأنما يبحث عن نصيحة غاليه ينفح بها الفتى الطيب المعذب ثم اخيرا أغمض عينه المواجهة له نصف إغماضه وتمتم وهو يتنهد تنهدة ضعيفة تناسب وقار سنه وتجاربه:**

**- وماذا انت فاعل..؟**

**- اهذا سؤال.. سأقاومهم طبعا.. لكن بطريقتى الخاصة..**

**- حماقة!**

**صاح بها الرجل بنبرة مرتفعة أربكت سامح وجعلته يشعر بشىء من التحرج والتحير ثم استدرك الشيخ وهو يضغط يده فى نبضات دافئة متتالية:**

**- انت يا صغيرى تبدو لى فتى طيبا.. من اسرة طيبة.. ويعز على ان.. آه.. مازلت صغيرا على ذلك!**

**فهم سامح أنه يقصد الموت المبكر بالنسب اليه.. فنظر اليه لحظة يتأمل غضون وجهه.. وتهدل تلك الشعرات البيضاء التى تطل على إستحياء تحت طاقيته الصوف.. ثم قال له هامسا فى رقة تنطوى على بعض الاستنكار:**

**- أتريدنى ان استسلم ايها الشيخ العجوز..!؟**

**- أريدك ان تبقى على قيد الحياة فقط!**

**هنا سحب سامح يده فى إشمئزاز مفاجىء وألهب العجوز من قمة رأسه الى أخمص قدمية بنظرة أوعها كل ألمه وحيرته وعذاباته ثم هتف متبرما:**

**- سحقا للحياة..!.. قد دفع أبى حياته ثمنا لكرامته وحريته ولن أكون أقل منه.. أجل.. لن أحنى رأسى ابدا..!**

**فهز العجوز هامته فى غير ارتياح ثم تناول يده مرة ثانية وقال:**

**- لا يا فتى.. ابدا.. لم اطلب منك احناء راسك فى مذلة.. انكم يا اولادنا لا تعرفون الحقيقة التى عرفناها ولهذا تنطحون رؤوسكم فى الجدران الصماء و....**

**وسحب سامح يده من جديد.. ثم حدج العجوز بنظرة تقطر ريبا وقال مقاطعا إياه:**

**- اذن فهذه حكمة السنين!.. ايها العجوز.. انت تحاول معى شيئا يفقدك إحترامى.. كما فقده إناس اعرفهم جيدا.. ولهذا فانى استأذنك فى التخلى عن صحبتك فى أدب..**

**ثم أسرع فى سيره مبتعدا عنه فى تأفف وأضاف لنفسه:**

**- وغضب..!**

**وهنا حاول العجوز ان يناديه:**

**- أيها الفتى.. أيها الفتى.. إنتظر لحظة انت لم تفهمنى..!**

**فإن مئات الأقدام كانت قد نبتت له وحملته بعيدا.. فلم يعد يسمع نداءات صوته الواهن.. المرتعش.**

**- 20 -**

**إنطلق سامح هائما على وجهه وصورة العجوز وصوته يملآن رأسه كله.. وبعد قليل كان فى غرفته امام النافذة يرقب البحر والسماء ويحصى عدد الأمواج ويتطلع الى أضواء الشمس الغاربة.. وغرق فى شبه حلم.. ثم أقبلت أمه بعد دقائق ودخلت عليه غرفته فلم يشعر بها.. واسترعى شروده نظرها فدنت منه مبتسمة فى رفق وابتدرته متسائلة:**

**- مالك سامح..؟**

**أجابها فى بغتة المفاجأة وهو على حاله لم يغير وقفته وفى صوته رنه إخفاق وتوجس:**

**- مالى.. مالى..؟**

**- نعم.. أحوالك تلك الأيام لا ترضى أحدا.. لماذا لا تبوح لى بذات صدرك كما كنت تفعل.. أتظن اننى لم الحظ شيئا..؟**

**قال وهو يواجهها:**

**- أوهام يا أمى.. أوهام برأسك..!**

**وتضاحكت هى بمرارة وقالت:**

**- هون عليك..!.. أنت لن تستطيع خداعى باكثر من ذلك.. أتظن أننى آخر من يعلم ؟!**

**- أقبل عليها وهو يتساءل فى خوف:**

**- كيف..؟**

**أجابته دفعة واحدة:**

**- هذا الشغب الذى نشب فى المدرسة منذ يومين بسببك..!**

**صاح فى ذهول:**

**- بسببى ؟**

**- اجل..**

**- كيف ؟!**

**- هذا الرجل الذى يقال انك اصطدمت به أمام البوابة.. ورائد الفصل الى تدخل لأجلك..!**

**شعر برهبة تهبط عليه فغامت عيناة وقاطعها بصبر نافذ متسائلا:**

**- وما علاقة ذلك بما حدث..؟**

**وسكت لحظة يستجمع افكاره ثم تساءل مفتعلا عدم الإكتراث كيلا تفهم شيئا من إهتمامه بالأمر:**

**- وهل عرفوا شخصية الرجل ؟**

**وفى إرتياح بالغ إستقبل إجابة أمه وهى تقول:**

**- كلا.. الرجل لم يكن موضوع الشجار.. ولكن أحدهم وشى برائد الفصل لدى المدير.. زاعما انه منحك درجة لا تستحقها فى الإختبار الذى..**

**ولم يهتم سامح بالإصغاء اليها أكثر من ذلك.. فقد تدحرجت كرة الأمور خارج ملعبة!.. كان أخوف ما يخافه أن تكون شخصية الرجل قد إنكشفت.. ولكن ها هى ذا تصرح له بأن الأمر كله لا يعدو مجرد وشاية عادية مما يحدث غالبا بين الزملاء فى العمل.. حينئذ رمى بنفسه فى حضنها وقد تملكته نوبة سرور وارتضاء وغمغم:**

**- معذرة يا امى.. كنت افكر أمام النافذة فنسيت أن استقبلك كعادتى على رأس السلم.. ألن نأكل..؟**

**ولم تكن الأم قد إنتهت من حديثها بعد فسألته:**

**- لكن.. اخبرنى.. من هذا الرجل الذى إحتككت به.. أنا لا أخال الأمر مجرد صدمة عفوية مما يحدث..**

**قاطعها متضايقا برفق وهو يفرك رأسه فى صدرها:**

**- أمى.. أريحى نفسك من تخيل أوهام لا أساس لها..!**

**- سامح!.. أنت بهذا لا تريح قلبى قط.. لقد تناقشت فى الامر مع زينا وانتهينا الى أنه ثمة علاقة بين الرجل الذى رأته زينا معك فى هذا اليوم الذى..**

**ولسبب ما توقفت فجأة كأنما غيرت رأيها عن الإفصاح له بسر.. او تحدثت اكثر مما يجب مخالفة خطة رسمتها لنفسها فاحتبست انفاس سامح وهو يمعن فى إخفاء وجهه فى صدرها حتى لا تلم بحقيقة إنفعالاته وصاح فى أعماقه:**

**- اذن فقد تحققت مخاوفى وحنثت زينا بوعدها..!**

**وحولت الام مجرى الكلام متسائلة:**

**- سامح.. اذا كان هناك من يطاردك تلك الايام فلماذا لا تخبرنى بالحقيقة ؟**

**-.....................................................**

**- أتخفى أسرارك ومتاعبك عن أمك.. حبيبتك ؟**

**-.....................................................**

**- سامح.. تأكد أنك إن لم تخبرنى الآن فسأعرف ذلك من مصدر آخر.. وحياة أبيك.. أخبرنى لتوفر على الجهد..!**

**وعند هذا الحد من الكلام ومن إنفعالات أمه أيقن أنه إن لم يقل شيئا يبدد به مخاوفها تماما فإنها لا محالة ستعرف.. وفى ذات الوقت إعتملت فى صدره رهبة عارمة فى إفراغ وتسكين سورة قلبها لدرجة انه أوشك أن يعترف لها بكل شىء وينتهى.. ولو إستطاع أن يهزم نفسه ويفتك بمشاعره فيقول لها وهو مغمض العينين:**

**- يا أحب أم.. ينقطع لسانى إذا قلت: كم أنت حمقاء إذ تفسدين تدبيرى..!**

**ولكن نجوم الفجر كانت أقرب اليه من تعنيف تلك الام الحبيبة – وانهارت مقاومته وراغ الدمع فى عينيه فأدار لها ظهره وأخفاهما بعيدا عنها ينظر الى البحر عبر النافذة.. ولاحظت الأم أنه ينتحب من إهتزاز كتفية فصاحت بجزع:**

**- أتبكى وتخفى عنى دموعك أيضا ؟!.. هذا كثير.. كثير!**

**فقال لها ببرود مصطنع دون ان يستدير اليها:**

**- امى.. انت تبالغين كثيرا.. فارجوك ان تذهبى لتسخين الطعام.. انا جائع.. وابكى من شدة الجوع!**

**فانفجرت الام فى نوبة بكاء ونشيج واندفعت على هذا النحو خارجة قبل ان تقضى منه غرضها.. اذ انه عرف كيف يتخلص منها بتلك الحيلة عن بكائة من فرط الجوع.. والتى كان يستحيل عليها ان تتجالها ولو كانت تعلم انها مجرد وسيلة ذكية لصرفها.. ولم تضايقه بعد ذلك بالالحاح على هذا الامر فى تلك الامسية التى اعتكفت فيها بغرفتها متحاشية الظهور أمامه وكأنها أزمعت تسقط الأخبار من مصدر آخر.**

**ثم انها فى الصباح التالى اخلدت الى الصمت ولم تبادله سوى تحية الصباح وتركته يخرج الى مدرسته وهو ينظر اليها نظرة مستريبة واجفة فتساءل فى نفسه " ترى ماذا قررت ان تفعل وعلام يدل صمتها القهرى!؟ " وظل هذا السؤال يطارده طوال يومه بالمدرسة مشتتا تركيزة فحلق بأفكارة بعيدا وسأله رائد الفصل ما به أكثر من مرة.**

**وحين دق الجرس دقته الأخيرة.. مضى من فورة الى الطريق ولازال هذا السؤال يقلقه ويطوح بافكاره العاجزة عن إدراك اجابة:**

**ثم لم يغادر هذا السؤال رأسه لحظة واحدة فيما بعد.. وهو يولج " الإصلاحية " ثم وهو يمر على سارة صامتا.. ثم وهو فى الغرفة يطوح بالمطرقة ويخبط قطعة الحديد خبطا عشوائيا ثم وهو يقرر الإنصراف قبل الميعاد وقد ضج بهذا السؤال المطارد.**

**كان ذاهلا.. مصبورا.. يمشى ناظرا فيما أمامه بشرود كأنه فى عوالم أخرى فلم ير ذلك الشاب الذى أخفق عندما حاول - عقب رؤيته أول مرة - أن يلحق به ليستدرجة الى حديث يفهم منه شيئا عما يراد به وهو يداعب سارة ويناوشها محاولا تقبلها.. ومر عليهما كالصخرة الجامدة او كالتمثال المتحرك فى اقاصيص الاطفال الخيالية المرعبة..!.. إنه حتى لم يسمع تلك الضحكة الساخرة التى اطلقاها فى أعقابة وخرج يستقبل الطريق ويعب من هوائه النقى بنهم آلى.. وما هو إلا ان شعر بيد توضع على كتفه من الخلف فالتفت جزعا يتساءل:**

**- من.. من..؟**

**وراعه ان يرى وسط ضجيج السؤال القارع فى رأسه.. الرجل العجوز ينظر اليه نظرته المجهدة الوانية الاضواء..الخبيرة.. مبتسما فى رقة وبشاشة وعمق رهيب..هبط على سامح فالقى فى روعه أن الحركة التالية التى سيجيب بها نظرته وابتسامته هى أن يخر راكعا..!.. فهمس فى روع:**

**- سيدى من أنت.. ماذا تريد منى ؟.. انا لا أريدك.. لا أريدك..!**

**فقال له وهو يربت على كتفية فى الفة وتودد:**

**- هدىء نفسك يا بنى.. أنت لم تفهمنى بالأمس.. انا أريد مساعدتك!**

**هتف سامح متسائلا بفضول وحيرة شديدين:**

**- تساعدنى على ماذا..؟**

**- اتظن اننى معهم ضدك.. اسمع..!.. إنهم يريدون إسرائيل يهودية صافية.. وانت مخطىء فى ظنك بى لاننى عانيت اضعاف ما تعانيه انت.. رغم ان أبى يهودى مثلهم لكنهم لا يعتبروننى كذلك لان أمى ليست يهودية وزوجتى ايضا..!**

**ثم سكت وفرك عينية بطريقة تدعو للإشفاق التام عليه.. وراح يديم النظر اليه فاستاء سامح وصاح به مغضبا:**

**- لا تنظر الى تلك النظرة العميقة..!.. أخبرنى بلا لف أو دوران.. ماذا تريد منى أنت الآخر..؟!**

**قال العجوز:**

**- ينبغى اولا ان تفهم اننى خمنت...**

**قاطعة ضجرا:**

**- تخميناتك كلها فى محلها.. فماذا تريد انت منى ؟!**

**واستجمع العجوز انفاسة ثم قال:**

**- اريد ان اقدم لك نصيحة.. اسمع.. بالامس سمعتك وانت تقول انك توشك ان تفقد امك وبيتك ومدرستك فهل هذا نوع التهديد الذى يمارسونه عليك إن لعبت بذيلك اوهربت من قبضتهم..!..لقد سمعتك أيضا وأنت تقول انك ستقاومهم على طريقتك الخاصة.. والآن أرى انك تفكر بطريقة غير سليمة.. فهم سينتصرون عليك حتما ولو اضطروا الى قتلك..!**

**وتوقف لحظة حتى يتسرب لنفس سامح اثر هذه الكلمات المرعبة ثم كررهامسا:**

**- نعم.. قتلك.. قتلك..!**

**وتململ سامح ضجرا نافذ الصير متلهفا على العودة لبيته وساءل نفسه متعجبا " ولكن لم هذا الإصرار على نغمة القتل..؟.. صحيح ان هذا الاحتمال قائم وبقوة.. لكن لم يكرره ويؤكد العجوز على هذا النحو.. اهو مأجور لهم..؟! واسترق اليه نظرة ثاقبة ثم إستدرك لنفسه " ربما.. وان كان ظنى هذا فى محله.. فهل من الحكمة ان أصده وأبصق فى وجهه قائلا له انا افهمك انت ايضا.. أم أصبر عليه حتى يفرغ كل ما فى جعبته ويكشف وجهه الحقيقى كلية ؟!"**

**ساد بينهما الصمت حين كان سامح يحدث نفسه بهذا.. واخيرا هز رأسه كأنما قد وصل الى قرار وقطع الصمت قائلا:**

**- انها نصحية غالية يا جدى.. وتأكد اننى فكرت فى الامر منذ لحظة فرايت ان الحق معك فعلا.. ينبغى ان اعرف كيف احافظ على حياتى.. ان لم يكن لى فلأجل أمى المسكينة التى سيقضى عليها الحزن حتما إن أفقدتها إياى.. بعد أن أفقدها أبى إياه!.. ولهذا يسرنى أيما سرور أن اعبر لك عن شكرى وعرفانى بالجميل و....**

**إبتسم العجوز فى إغتباط للنتيجة التى توصل اليها وتمتم وهو يومىء برأسه فى تواضع مقاطعا:**

**- لا شكر على واجب يا بنى.. نحن العرب ابناء طائفة عذبها الاضطهاد طويلا! وما كاد سامح يسمع تلك الكلمة " طائفة " حتى تأكد لديه فعلا ان ظنونه كلها صادقة فها هو العجوز الغبى الذى صرح له بالأمس وكرر الآن أنه عربى مثله..يعتبر نفسه وقومه مجرد طائفة فقال فى نفسه " إنه يتحدث كما لو كان بلسان القوم الذين لا يعترفون بإنتمائه اليهم!" ثم قال له ممعنا فى خداعه:**

**- ولهذا أريد ان أعبر لهم بطريقة عملية عن إستسلامى التام.. فبماذا تنصحنى يا جد ؟**

**اجابة العجوز على الفور كما لو كان قد أعد تلك الاجابة سلفا:**

**- حجة ملكية البيت.. انت تعرف أنها فى دولاب أمك.. وهم أيضا يعرفون أنك تعرف!..**

**- هكذا.. آه.. تقصد..**

**- اجل بالطبع حتى يتأكد لديهم أنك لم تستسلم لهم فقط بل وتثق فيهم ثقة عمياء!**

**- اذن فأنتم تعرفون ان حجة البيت فى دولاب امى!**

**- ماذا تقصد بقولك أنتم ؟**

**- وتعرفوت ايضا اننى اعرف.. حسنا.. واذا كنتم تعرفون فلماذا لم تسرقوها بانفسكم ولديكم مفاتيح لكل البيوت..!**

**- ايها الفتى انت تتحدث بطريقة غريبة.. ماذا تعنى بقولك انتم ؟**

**فكشر سامح عن انيابة وهدر صارخا وعيناه تقدحان شررا:**

**- ايها الشيخ.. لا تتغابى.. نحن نفهم بعضنا جيدا.. والله لولا كبر سنك وصغر سنى لعرفت كيف القنك درسا ينفعك فى آخر أيامك.. وبعد هذا تنتظر ألا يأتيك داعى الموت بوجه مخيف!.. لعنة الله عليك.. لعنة الله عليك!**

**ثم اولاه ظهره واسرع منصرفا فى تقزز واضاف لنفسه:**

**- ولعنتة ايضا على الأوغاد جميعا..**

**وعبثا حاول العجوز ان يناديه:**

**- ايها الفتى.. ايها الفتى.. انتظر لحظة.. انت لم تفهمنى!**

**فان مئات الاقدام كانت قد نبتت لسامح وحملته بعيدا.. فلم يعد يسمع نداءات صوته الواهن المرتعش..!..**

**- 21 -**

**ثم تواصلت الأحدات تترى بعد ذلك...**

**فمن ناحية توصلت الأم إلى خبر الإصلاحية ولعلها سعت هى إليها بإقتفاء أثر سامح.. أو لعل أحدا من رجال الإصلاحية سعى إليها هى فاخبرها بالأمر لإستدراجها الى هناك وصولا الى أغراضهم عن طريقها وكان مفروضا أن تواجه إبنها بما كشفته من أموره.. لكنها آثرت أن تعمل جهودها لإنقاذه دون أن يعرف شيئا مخافة أن يعرقل مساعيها بغيرته ومخاوفه التى كانت تعرفهما فيه خير المعرفه فأخذت تطرق مختلف الأبواب الممكنة والمتاحة.**

**طرقت باب زوجة رئيس البلدية أولا.. باعتبار أنها مفعمة بإعجاب لا تخفيه بإبنها.. وعلى إعتبار أنها زوجة رجل له فى أوساط السياسة كلمة مسموعة.. فوعدتها الزوجة بمساعدتها ثم طلبت منها أن تمهلها بضعة أيام ريثما تقنع زوجها بالتدخل وريثما يصل الى نتيجة ثم نصحتها فى ذات الوقت ألا تقدم بلاغا الى الشرطة.. بحجة أنهم لن يفعلوا لها شيئا لأن بعض رجالاتها ينتمى الى عضوية تلك الإصلاحية المزعومة فعملت الام بنصيحتها وفوضت لها الأمر كله – بعد الله - وانتظرت على أحر من الجمر - كما يقولون - حتى انقضت الأيام التى طلبتها منها الزوجة.. بل وحتى أضيفت إليها عدة أيام أخرى.. وبدا الأمر كما لو أن الزوجة قد توصلت الى نتيجة غير محمودة وأنها تراوغها فقط.. فألحت عليها الأم أن تخبرها بالحقيقة مهما كانت قاسية فإنها لم تعد تطيق صبرا.. فكانت إجابة المرأة لا تخرج عن ان زوجها وقد بذل مساعيه المشكورة عرف أنه لا خطر ولا خوف من أمر تلك الإصلاحية بدعوى أن دراساتها تكمل دراسته بالمدرسة وأنه لن يحصل على الشهادة الإبتدائية - وهو على وشك الحصول عليها - بدونها.. وأنها ينبغى ألا تتخوف أو تعطى هذا الأمر أهمية.**

**ولم تقنع تلك الإجابة الغريبة الأم.. فذهبت الى المدرسة وقابلت مديرها لتسمع عين الإجابة...**

**حينئذ تحيرت أين تذهب بعد ذلك وقد عرفت ان إلتجاءها إلى الشرطة لن يجديها فتيلا...**

**أتذهب الى تلك الإصلاحية وتتوسل الى القائمين عليها أن يدعوا إبنها وشأنه من أجل دموعها ؟...**

**وترددت فى الإقدام على تلك الخطوة المشكوك فى نتائجها طويلا.**

**ومن ناحية أخرى كان سامح يراقب صمت أمه الذى تلفعت به تلك الأيام وتجاهلها أمر السؤال عن حقيقة هذا الرجل الذى كلمتها عنه زينا.. بمزيد من الحيرة والتوجس.. ولم ينقطع عن الذهاب الى الإصلاحية يوما.. وحافظ على وقت المدرسة المحافظة التامة.. فلم يخضع لضغوط سارة التى مارستها عليه معالجة معه كل الوسائل المؤثرة.. بلا جدوى.**

**وإن كان هذا العجوز لم يره وجهه مرة أخرى منذ هذا اليوم.. فإنه رأى فى ردهة الإصلاحية مرات كثيرة ذلك الشاب الذى يمشى مركزا نظراته أمامه فى لا مبالاة والذى سبق أن رآه فى أيامه الأولى وفكر أن يكسب صداقته ويعرف منه شيئا يبدد له سحائب غموض تلك الأيام.. رآه.. أكثر من مرة.. يمارس مع سارة الحب فى أوضاع – مخجلة- بالردهة.. وخيل إليه أنهما يتعمدان ذلك أمامه فقط.. لأنه كان يتصنت اليهما.. بعد دخوله غرفة الطرق فلا يسمع صوتا.. ولا شهقة مهموسة من تلك الشهقات الشبقة المبالغ فيها.. التى كانت سارة تطلقها فى هوس كلما دخل ورآهما معا..!..**

**وذات مساء.. بينما كان يدفع باب الإصلاحية داخلا على سجيته.. وهو لا يتوقع أن يرى أو يسمع شيئا غير العناق والقبلات والأصوات البهيمية التى كانت تصبغ وجهه الشاحب بحمرة الأرجوان.. ولا تصبغ شيئا – غير العبث والمجون – على وجهى سارة والشاب.. خيل اليه لدى أول نظرة يلقيها داخلا.. أنه يرى.. ويرى ماذا.. وقد ارتجفت أوصاله " لا.. محال " وارتد الى الوراء مذعورا فجاوز عتبة الباب الذى إنصفق بفعل تيار الهواء.. أو أن ثمة يد أسرعت بإغلاقه - لم يكن يدرى - فقد كانت الارض تميد تحت أقدامه.. وأشجار الغابة تدور من حوله.. فلم يعد يرى إلا ضبابا.. ولم يعد يسمع من الداخل إلا دويا.. وأصابه غثيان.. فجلس على قدمية واستسلم للقىء غير ذات مرة وهو يمزق شعره وبعض شفته السفلى حتى أدمت.**

**كان قد رأى فى لمحة خاطفة إمرأة من الظهر.. تحسر عن ساقيها وتنحنى على الأرض أمام أعين سارة والشاب – والشاب بوجه خاص – فى هذا الوضع الذى ذكره بأمه.. فوقع فى وهمه أن هذه الشغالة التى تمسح البلاط ليست إلا أمه.. وساعده على الإنسياق فى تيار هذا الوهم الجموح.. أن المرأة كانت تحمل فى تكوينها من الخلف نفس تكوينات أمه.. فحدث له ما حدث.. ولبث وقتا طويلا.. فى الخارج.. يتقيأ أو ينثر دموعه.. بينما يدير فى رأسه خوانس الأفكار ويشعر بالرعب كلما فكر فى الدخول.. إلى ان إنفتح الباب.. فخيل اليه ان فؤاده هو الذى يتفتح منشقا إلى نصفين.. ظانا أن أمه وقد عرفت أنه إنقلب مذعورا على عقبيه فقد أتت تطيب خاطره.. أو..لا.. إنها ساره.. التى وقد طال انتظارها لدخوله ثانية خرجت تستطلع جلية الأمر.. راسمة هذا الشداه المصطنع من غرابة اطواره.. يا الهى..!**

**- ماذا هناك يا فتى..؟**

**- ماذا هناك ؟.. أنت أول إنسان فى هذا العالم المسكين يعرف ما هناك..!**

**وخيل اليه ان ملكا من السماء قد تهادى الى الارض واخذ يتمرغ فى حمأة الأوحال.. فاندفع داخلا ليناقش أمه الحساب فى غل وعنف ولكن.. ماذا يرى..؟.. إنها ليست هى.. أيكونون إمعانا فى الكيد له قد خبأوا أمه فى تلك الغرفة المغلقة دائما.. ووضعوا بدلا منها تلك المرأة التى راحت تلاقى نظراته النهمة الفاحصة بفضول.. يرتسم التعب فى عينيها.. وهو يحدق فى وجهها آنا.. ويدور حولها من الخلف ليتأمل تقاسيم ظهرها آنا آخر..لا.. هذه واحدة أخرى لا ريب.. فهو وإن كان لم ير وجه الأولى.. غير أنه يكتشف الآن.. أنها لا تحمل نفس الظهر الذى لأمه..!**

**صرخ:**

**- اين ذهبتهم بها..؟!**

**إقتربت منه ساره فى تردد وسألته مأخوذة:**

**- من تقصد ؟..**

**- هى..؟**

**- هى من ؟**

**- أأ..**

**فى تلك اللحظة أدرك – لحسن الحظ – أن إحتمال أن يكون ما رآه مجرد أوهام وخيالات تأججت فى نفسه بسبب ذلك التشابه الكامل والوضع الذى كانت عليه " الشغالة " وبين ما يتخيله من وضع لأمه وهى تمسح بيوت الموسرين فقال لنفسه " وإذن تكون الإجابة المريحة على سؤالك يا سارة ليست من العقل والحصافة فى شىء.. فإنى بهذا أعطيكم طائعا.. سلاحا ناجحا لكسر شوكتى.. وحتى إن كانت لا قدر الله ظنونى صحيحة.. فإنهم حتى الآن يجربون تلك الوسيلة معى إن كانت تنفع.. او بمعنى آخر يجسون نبضى.. بدليل انهم أسرعوا بتبديل أمى بتلك المرأة "..**

**وأضاف لنفسه " أنه وإن حدث واعترفت لهم يمكنون صدرى.. فسيكون ذلك دليلا أكيدا على النجاح المحتمل لتلك الوسيلة معى.. وإذن.. إن أردت إنصاف نفسى فعلى أن أنسى ما رأيته نسيانا تاما!.. "**

**ولم يشأ ان يحدث نفسه أكثر من ذلك.. لأن سارة كانت تنتظر إجابته فأسرع يقول موضحا:**

**- آه.. لا شىء.. إنى أشعر بالإجهاد والغثيان اليوم.. ولما خيل الى وانا داخل أن رغبتى فى القىء قد أصبحت عند حلقى.. فلقد خشيت أن ألوث نظافة الصالة وأضيع جهود تلك السيدة الطيبة عبثا.. ولذلك خرجت لأتقيأ بعيدا.. أما عن هذه التى أسأل أين ذهبتهم بها.. فإنى أقصد تلك المنضدة الصغيرة التى كانت أمام السرير دائما.. والتى ربما وضعتموها فى مكان آخر ريثما تنتهى السيدة من..**

**- كفر ثرثرة!...**

**صاحت بها سارة مستاءة من لباقة الفتى.. ومن دقة ملاحظته.. فهو لا يفوته شىء ابدا.. ثم استتلت:**

**- والآن يا فتى.. أنت لا تنصاع لأوامرى.. وتصر على المجىء متأخرا بعد إنتهاء دراستك بالمدرسة.. فأشر على أنت ماذا أفعل حتى تطيعنى وتكف عن معاندتى ؟!..**

**فتدخل الشاب متكلما لأول مرة قائلا وهو يسدد قبضة يده نحوه مهددا:**

**- قلت لك الف مرة هذا الولد رأسه صلبة مثل المرحوم أبيه!.. دعيه لى وسأعرف الطريقة التى ألين بها رأسه!**

**قالت كأنما تروم أن تلقى الرعب فى قلبه:**

**- يبدو أنك على حق.. وأنه لم تعد لدينا حيلة أخرى.. إنى أتركه لك.. إفعل به ما تشاء..!**

**وفى الحال تقدم الشاب خطوة للأمام ثم اسر فى أذن " الشغالة " بشىء فانصرفت لتوها.. وأصاب سامح مما سمع ومن تلك الحركة بعض الخوف.. وراح ينتظر وهو يرتعد الخطوة التالية وأغلق الشاب الباب خلف المرأة بالمفتاح ثم وضعه فى جيبه.. فتركزت إضاءة المكان فى تلك الأضواء الصفراء التى يشعها هذا المصباح الكهربى فى السقف.. ولم يعد هناك أمل فى الهرب ايضا.. على حين خطت سارة على مهل نحو المكتب وجلست ثم تناولت أشغال إبرتها ومضت تتنسج دون ان يبدو عليها أدنى اهتمام بما سيجرى هنا.. حينئذ أيقن سامح أنه واقع – لابد – فى حبائل هذا الشاب المتعجرف النزق.. الذى أبدى فى الأيام السالفة مجونا فى مداعباته لسارة لا يحتمل.. والذى دنا منه.. ثم أمره بفظاظة:**

**- إخلع ثيابك..!**

**وتقهقر سامح الى الواراء حتى اصطدم بالحائط.. وصرخ هلعا:**

**- يا إلهى.. ماذا أنت فاعل..؟**

**فأطلق الشاب ضحكة عابثة متهتكة.. وقال وعيناه تبرقان:**

**- لاتخف.. سأفعل بك ما كان أبوك يفعله بأمك..!**

**- يا إلهى.. الحقينى يا...**

**- إخلع..!**

**- ستفعل ذلك أمامها ؟**

**- إخلع يلعنك الله.. وإلا إضطررت إلى تمزيقها عنك..!**

**- رباه غفرانك.. غفرانك..!**

**ولما بدا على سامح أنه لن يفعل ذلك راضيا بأيه حال.. غرس الشاب فى لحمه الجاف قبضة من برد.. ثم تولى بنفسه خلعها.. ولدهشته وحيرته لاحظ ان الصبى لا يغامر بمحاولة إتيان أقل مقاومة.. وكأنه قد فوض أمره لخالقة فتركة ينتزع عنه ثيابة قطعة بعد قطعة.. لأنه كان يخشى إن قاومة أن يحقق تهديده بتمزيقها.. وهذا وإن يكن أكرم للنفس أن يتم الأمر بعد مقاومة يائسة.. إلا أنه أدرك بوعى تام أنه لن يجنى منها غير تمزيق ثيابه التى لا يملك سواها.. فضلا عما سيحدث حتما من خسائر أخرى..!.. فاختار ان يخفف خسائرة الى أدنى درجة وأذعن له.. على حين كان يختلس الى المرأة نظرات يتنازعها الشعور بالمهانة والتأنيب والتوعد..**

**وبغتة أوقفت الشاب بإشارة من أطراف أناملها فامتثل ساكنا لايلوى على شىء.. بعد أن بلغ من خلع الثياب القطعة الأخيرة ينتظر أوامرها.. على حين قامت هى فى رصانة أخاذة ومقيتة إلى خزانة الأدوية وراءها.. وتشاغلت فى إعداد إبرة حقن دقيقة أو نحوها.. ثم إستدارت بنفس البرود بل الجمود وخطت نحوه وحقنته فى خفة وهى تتبسم لخنوعه الفجائى ولتلك النظرة التى يصعب تصويرها فى عينيه.. وفى لحظة شعر بدوار من نوع آخر يتلاعب برأسه.. دوار يمتزج فيه الألم ببعض الصور المريحة!.. وما لبث أن غلبه النعاس.. وعندما إستيقظ وجد نفسه منسدحاعلى السرير وساره إلى جانبه ببسمتها الرصينة المقيتة وأشغال إبرتها الأبدية ولا أثر للشاب العتل.. وتحير " ماذا حدث ؟.. أكان حلما ماوقع.. ؟ أم أنه حقيقة أليمة ؟.**

**- 22 -**

**مرة أخرى أجدنى مضطرا لأن أقول.. إن الكلمات تبدو غير كافية إطلاقا لتصوير شعور سامح الموزع بين الريبة واليقين.. بعد ان سمحوا له بارتداء ثيابة وبالانصراف فى هذا المساء فهو شىء أكبر من الذهول والحيرة والقنوط والتوعد والغيظ والرعب.. شىء يقصر الفكر عن تخيله إن لم يمر المرء بتجربة مماثلة! ولكن قد يكون فى الإمكان ان نضيف بحذرأن الشك إنزوى وانحسر فى النهاية لأسباب لا حصر لها.. أهمها رغبته الجارفة فى تأثيم أعدائه!.. الذين عمقوها بكبرياء وصلف وذكاء أفضل من الغباء.. لأنهم ظنوا أنهم بذلك يحسنون صنعا.. فاستولى عليه شعور بغيض بأن جسده بوجه ما من الوجوه لشدة حساسيته قد دنس.. وأنه أصبح لا يليق بروحه أن تسكن به.. وأن أقل شىء يفعله للتخلص من شعوره.. هو أن يخلع عنه هذا الجسد ويرمى به فى البحر ليتطهر.. ثم يعود فيرتديه.. أو يبحث لروحه عن جسد آخر.. ولكن حتى إن استطاع ذلك وهو مستحيل.. فكيف يمكنه ان يمسح عن ذاكرة الشاب وسارة بنوع خاص.. ذكرى ما حدث.. هذا هو المستحيل بعينه.. فهل يبكى وماذا يفيد البكاء ؟.. أم هل يصرخ هاتفا بسقوط الأوغاد جميعا.. وماذا سينال الصراخ من علو الاوغاد الشاهق ؟.. واذن لم يبق إلا أن يضحك.. ليضحك.. يضحك من صميم فؤاده ساخرا من ملهاة الحياة.. ضحكة لم يضحكها قبلا.. يضحك بمرح كئيب..!**

**\*\*\*\*\***

**- ماذا تفعلون هنا يا اخوان ؟**

**- الا ترى... نصلى...**

**- تصلون لمن ؟**

**- أخرجوا هذا الوغد المجنون!**

**- لا عليك.. أردت فقط أن أضحك!**

**\*\*\*\*\***

**- سيدى.. ماذا تفعل..؟**

**- أبيع..**

**- تبيع ماذا ؟**

**- ألا ترى.. برتقال.**

**- ولماذا لا تبيع البلح ؟**

**- لأن موسم البلح قد إنتهى.**

**- وهذا البرتقال ما لونه ؟**

**- أصفر من الخارج طبعا..**

**- ومن الداخل.. أصفر أيضا.. أم أحمر دموى ؟**

**- أتمزح.. أغرب عن وجهى أيها الوغد المجنون..**

**- لا عليك... أردت فقط ان اضحكك..!**

**\*\*\*\***

**- أين أنت ذاهبة يا سيدتى ؟**

**- الى مستوصف رعاية الطفل والامومة..**

**- وأين هو الطفل ؟**

**- فى بطنى لم ألده بعد..**

**- ولماذا هو ببطنك ؟**

**- اهذا سؤال ؟**

**- ولماذا هذا سؤال ؟**

**- اتسخر منى.. أبعدوا عنى هذا الوغد المجنون..**

**- لا عليك.. اردت فقط ان اضحكك..!**

**\*\*\*\***

**- سيدى.. ماذا تحمل فى تلك الحقيبة ؟**

**- ساعة وجهاز ضغط الدم.. وبعض الحقن والادوية..**

**- طبيب..؟**

**- اجل..**

**- كنت أظنك محاميا..**

**- لماذا ؟**

**- ظننت لاول وهلة انك تحمل فى تلك الحقيبة ملفات وقضايا..**

**- والآن..؟**

**- أنت تقول أنك طبيب..**

**- ولماذا تقول اننى اقول ؟**

**- لانك قلت..!**

**- أتمزح معى.. البك عنى ايها الوغد المجنون..**

**- لا عليك.. اردت فقط ان اضحكك..!**

**\*\*\*\***

**- سيدى.. لماذا تجرى ؟**

**- دعنى.. اريد ان الحق بالاتوبيس..**

**- لماذا.. اين انت ذاهب ؟**

**- امى تحتضر.. اريد ان الحق بها حتى ترانى!**

**- ولماذا تراك..؟**

**- اتهزل.. اذهب عنى والا رفستك فى بطنك ايها الوغد المجنون!**

**- لا عليك.. اردت فقط ان اضحكك!**

**\*\*\*\***

**- لمذا تمديدك هكذا..؟!**

**- أشحذ!**

**- ولماذا تشحذ ؟**

**- لأننى لا أعمل..**

**- ولماذا لا تعمل..؟**

**- لان ذراعى الأيمن فقدته فى الحرب..**

**- ولماذا فقدت ذراعك الأيمن فى الحرب ؟**

**- لاننى لم أفقده فى مكان آخر..؟**

**- ولماذا لم تفقده فى مكان آخر..؟**

**- نصيبى..!**

**- ولماذا هو نصيبك..؟**

**- أتضيع وقتى فى الثرثرة.. أبعد عنى ايها الوغد المجنون!**

**- لا عيك.. اردت فقط ان اضحك!**

**\*\*\*\***

**- فتاتى.. ما هذا الوجة الجميل.. لمن..؟!**

**- لحبيبى..!.. انت ايضا تغازلنى يا صغيرى..؟**

**- ولماذا لا يكون زوجك..؟.. اغازلك كيف..؟**

**- سيكون طالما اريد.. تغازلنى كما تفعل الان..!**

**- ولماذا لا يكون عشيقك ؟.. وماذا فعلت ؟!**

**- لاننى رفضت.. ثم انت غازلتنى..!**

**- ولماذا رفضت.. ولماذا تسمينه غزلا ؟**

**- حتى أتزوجه.. ولأنك وصفت وجهى بالجمال أسميه غزلا..**

**- ولماذا تتزوجينه.. ولماذا لا تتزوجينه..؟..**

**- أيهما تعنى الزواج أم السؤال ؟**

**-الزواج والسؤال.. او السؤال والزواج..!**

**- أتهزل..!**

**- قولى إبتعد عنى ايها الوغد المجنون.. حتى أنصرف..!**

**- حسنا.. ابتعد عنى ايها الوغد المجنون.. حتى تنصرف!**

**- لا عليك.. اردت فقط ان اضحك..!**

**\*\*\*\***

**- أمى.. أمى.. أمى العزيزة.. لا لن ارتمى فى احضانك الليلة!.. انا اليوم قذر.. وانت ايضا.. انت يا امى.. يا للحسرة.. لا.. لا اريد طعاما.. انا وانت أكلنا من حفرة الغائط.. كفانا ما أكلنا..!.. كلا.. لا تنظرى الى تلك النظرة البرئية..!.. أنت لن تخدعينى بعد اليوم بطهارتك يا عاهرة!.. آه.. معذرة.. أقصد يا عفيفة..!.. يا أعف عاهرة.. يا أعهر عفيفة..!.. ماذا تستجيرين بالله.. مم ولم..؟.. تقولين رحماك يا رب السموات السبع.. ومن أدراك أنها سبع ؟.. يالها من كلمة معبرة حقا!.. سأعاود أنا أيضا إستعمالها!.. قد كنت لبؤة اليوم لأحد السباع..!.. أما أنت.. أنت يا أمى.. آه.. اخبرينى أين ذهبت.. وإلى أى منطقة إنحسر ثوبك..!.. هيه.. رباه.. تأخذك البغتة.. تنشقين رأسا لقدم.. يصفر وجهك كالليمون.. هيه.. لم لا ترتجفين ايضا..؟!.. أجل.. كما إرتجفت تلك الرجفة اللذيذة فى.. آه.. الغيظ يقتلنى.. الخزى ينهشنى.. العار يجذب أنفى الى الطين.. يا إلهى.. ما هذه الأوحال التى أغوص فيها برأسى..!.. الطين يحتوينى من الداخل والخارج.. وفضلات المجارى أيضا.. لن ارى الشمس بعد اليوم الشمس أيضا عاهرة!.. سأسبح فقط فى مواسير المجارى! ماذا.. ماذا ؟.. رباة مرة أخرى.. قد جن ولدك الوحيد..!.. كلا.. بل انا العاقل وهم المجانين.. دعينى.. دعينى..آه.. كم اتمنى لو استطعت أن أشق جسدى إلى الذيل.. كما تفعل العذارى فى ليلة الزفاف.. او التكالى فى ليالى المآتم!.. آه.. أنظرى.. أنظرى البحر الجميل.. انظرى يا أمى كيف يترقرق الماء الطاهر..!.. هيا بنا يا امى.. هيا نستحم معا فى البحر.. هيا نخلع عنا أبداننا ونغسلها كما تغسل الملابس.. وبعد ذلك ننشرها على حبل الغسيل لتجف.. ثم نرتديها بلاكى.. لأننا لا نملك أجر الكواء.. هيا لا تخافى لن يرانا أحد فالليل ستار أربب..!.. ماذا.. ماذا تقولين ؟.. لا يطهر الخطئية سوى بحر من الدم.. او ماذا ؟.. الموت..!.. بكل أسف يا أمى.. الدم شريان الحياة.. وزفير الهجر.. الدم عرق الشمس.. هيا يا قصيرة الذيل.. حتى أنت يا أمى تفوح منك راحة وعرق الليل ايضا! الخطئية النتنة!.. قلت لك هيا معا نطالب بحقنا فى التطهر.. أنت ممسحة كل البيوت ولابد ان خطيئتك تفوق خطيئتى.. لا تريدين.. تودين الصراخ.. حسنا لن يسمعك احد.. الصراخ لا يكفى.. البكاء لن يفيد.. لنضحك.. نضحك من صميم قلبينا.. نضحك سخرية من ملهاة الحياة.. ضحكة لم نضحكها قبلا.. نضحك بمرح كئيب.. " أنا.. أنا ".. أم.. " أنا لست انا " هذا هو السؤال..!!..**

**- 23 -**

**أعقبت حالة الإكتئاب المرح التى إكتنفت سامح فى تلك الليلة.. حالة أخرى أمر وأدهى وصحيح أنه فى تلك الحالة الجديدة لم يكف عن الهذيان.. لكنه هذيان الغياب بعد الوعى والذهول بعد الادراك.. التى كادت الام ان تتشتت لها لبا.. وهى ترى عقل ابنها الوطيد ينهار من بعد قوة ويتخبط فى الضباب من بعد نور.**

**وفى تلك الامسية التى رفض فيها احضانها وطعامها.. جلس الى نافذة غرفته ساكنا السكون كله.. شاحبا شحوب الموت.. يحدق بعينين زائغتين فى أمواج البحر التى تتلاطم فضية تحت أضواء القمر.. وبين الحين والحين يحدث نفسه بخليط من الاقوال غير المفهومة.. التى راحت الام تصيخ السمع اليها وتبكى وتنهنه فى صمت وهى واقفة بالباب ترقب أطواره هلعا والغريب أنه كان ينهى كل نوبة إلتياث بسؤال واحد كانما فيه سر علته هو " أنا..أنا..أم أنا لست أنا..؟! " وفى كل مرة حاولت الام ان تلقيه فى أحضانها وتؤكد له قائلة " يا بنى الحبيب أنت أنت!" كان يدفعها بعيدا عنه فى نفور وهو يكاد ان يتقيأ.. وكأن بها أو به قاذورات او ميكروبات لا يريد ان تنتقل من أحدهما الى الآخر.. وابان ذلك يتهته كالمعتوه " هل أنت نقية.. هل أنت جميلة ؟.. إن كنت نقية وجميلة فأنا إذن لست إبنك.. وان كان العكس فانت اذن لست امى..!**

**- يا إلهى.. يا رب السموات..!**

**- السبع.. هيه.. السبع يا.. اذهبى الى فراشك بعيدا عنى.. وارقدى على ظهرك..!**

**فتعود الام وهى ترتعد رعبا من المعنى الخبيث الذى حوته كلماته الضاربة فى الجنون.. الى وقفتها بالباب وترسل اليه دموعها ونظرات اللوم ايضا..**

**ثم بغته تتذكر شيئا هاما فتذهب الى المطبخ وتغيب بعض الوقت ثم تأوب حاملة طعاما.. وتضعه أمامه على المكتب وهى تغمرة بنظرات التوسل والضراعة ان يفعل خيرا ويتناول ولو بضع لقيمات ان لم يكن من اجله فمن اجلها هى.. وعبثا تحاول.. فإنه آنذاك كان يمعن فى جموده وشروده.. او يقول او يفعل شيئا يعيدها به ثانية الى الباب مجللة بالشعور بالعار والرعب.**

**وأمضت الليلة على تلك الحال.. ليلة سحقتها حتى العظام.. ووزعت فيها نفسها بين الإنصات الى هذيانه وبين محاولات إغرائه لا بحنان صدرها.. فقد كان موبوءا بحساسية خاصة نحو كل ما يمت للأجساد بصلة.. وإنما فقط طعامها إلى الذى توفرت على تسخينة مرات عديدة وبين البكاء فى صمت مصبور.**

**ثم اشرقت الشمس فى صبيحة اليوم التالى.. وملأت اشعتها وحرارتها عينيه وهو جالس عين الجلسة.. فنهض خارجا من الغرفة.. وسمعت امه حركة اقدامه وهى فى المطبخ تعد له الطعام الذى لم يدخل معدته منه شىء منذ افطاره البارحة.. فهرعت خارجة والفته – بكل الامل والدهشة والتوتر – قد تجاوز الردهة التى يطل عليها المطبخ الى راس الدرج.. ولحقته به فى لهفة وسألته " أستخرج هكذا دون افطار ايضا ؟" فلم يجبها وفى لحظة كان قد هبط السلم وانفلت خارجا.. فوضعت يديها على عينيها وأنشجت تبكى محطمة لا تدرى سر هذه المصيبة النكراء التى حطت على ابنها الوحيد.. اليتيم بينما كان هو يستقبل وجه الشارع ويسير فى زحام الناس المتوجهين الى اعمالهم كما يسير النائم.. وخيل اليه عندما أفاق لحظة من غيبوبته انه يرى عند إحدى اشارات المرور الوهاجة التى تجمعت امامها السيارات فى انتظار الضوء الاخضر.. سيارة المهندس " الون " تقف فى مقدمة تلك السيارات.. واتقدت عيناة.. ثم تساءل لكن من هذا الذى يقودها.. إنى أرى زى ضابط.. ومع ذلك يلوح لى انه يحمل وجه هذا المهندس.. فكيف ذلك ؟" واراد ان يستوثق من شخصية الرجل فهبط الافريز ثم خطا امام سرب السيارات على مهل غير عابىء بانها قد تنطلق فى ايه لحظة وتدهمه.. الى ان بلغ السيارة المقصودة.. فوقف اماما يحدق فى قائدها من خلف الزجاج الامامى.. " انه هو.. هو!" وفى الحال اضىء الضوء الاخضر وانطلقت ابواق السيارات المنتظرة تزعق فيه.. وأيدى اصحابها تلوح له من النوافذ فى غضب وتنذره ان يبتعد والا اضطروا الى دعسه فهرول مبتعدا وهو ينظر خلفة فى رعب مكبوت.. ولا زال يسائل نفسه " انا انا.. ام انا لست انا ؟" ثم تأمل اندفاع السيارات برهة.. وواصل سيره النائم اليقظ.**

**كان يمشى على هذا النحو وبتلك المشاعر فى اتجاه المدرسة.. وسرعان ما بلغها.. ثم سرعان مادق الجرس والفى نفسه يساق الى الدخول الى فصله مدفوعا للامام بفعل الصدمات التى كان ينالها من التلاميذ فى اندفاعهم الى فصولهم.. ثم بعد لحظات سكنت الاصوات من حولة فعرف ان المدرس قد دخل.. وغاب عن نفسه برهة ثم إنتبه الى صوت المدرس يقول تلك العبارة:**

**- لقد تحصن الدروز فى قراهم لكثرة أعدائهم مما إضطرهم الى الدفاع عن أنفسهم ضد هجمات الاعداء..!**

**فتساءل فى نفسه:**

**- اعداء.. من هم الاعداء ؟..**

**ثم حملق فى وجه المعلم الذى كان يواصل الشرح دون توقف هنيهة رأى فيها على هذا الوجه خيالات وطيوف غريبة.. فضحك.. ثم صمت فجأة.. ولم يدر ما حدث بعد ذلك.. فقد يكون المدرس وقد ساءه ان يضحك احد التلاميذ مقاطعا اياه.. توقف متسائلا عمن إجترأ وارتكب تلك الفعلة الشنيعة.. وقد يكون التلاميذ لم يذكروا اسمه لديه حفاظا على حقوق الزمالة.. فلما راى المعلم ذلك عاد الى درسة مرجئا استطلاع الامر الى وقت آخر.. قد يكون.. لم يعرف سامح ذلك.. فقد انزلق الى إغمائه أفكارة مباشرة بعد ان صمت هذا الصمت المفاجىء ولم يشعر كذلك بأعين التلاميذ التى انشغلت عن متابعة الدرس بالنظر اليه.. وكان المدرس فى تلك الآونة قد رفع أمام أعين تلاميذه صورة كبيرة ملونة لآله زراعية حديثة.. مكتوب تحتها بخط عريض " الآلات الزراعية دخلت القرية العربية " وطالبهم بان يرددوا خلفة تلك العبارة فرددها بعضهم.. وتلعثم او تخلف البعض الاخر.. وفى اللحظة التى أدرك فيها المعلم سر إنشغالهم عنه افاق سامح ثانية على الاصوات التى رددت.. افاق بعنف ودهشة.. ثم ساد الصمت فاطلق ضحكة ثانية.. وشعر بالمدرس يدنو منه ويسأله ما به ولماذا ضحك فدار بينهما الحوار التالى:**

**- سيدى المدرس.. ماذا تفعل..؟**

**- الا ترى..؟.. اشرح درسا فى العلوم الاجتماعية.**

**- تشرح درسا لمن.؟؟!**

**- لكم...**

**- ولماذا.**

**- هذا عملى.. أم أنك تشك فى ذلك ؟**

**- وهؤلاء التلاميذ.. ما عملهم..؟!**

**- اهذا سؤال ؟**

**- لابل سؤال السؤال..**

**- اتمزح.. تفضل بالخروج..**

**- أخرج أين هذه مدرستى!؟**

**- مدرستك.. أخرجوا هذا الوغد المجنون!**

**- لا عليك.. أريد فقط ان اضحك!**

**- تضحك..!**

**قالها المدرس وهو يصفعه على وجهه.. ودن ان يفكر سامح فيما هو فاعله وجد نفسه يبصق الدم الذى إنبثق من عنف الصفعة التى إنغرست لها اسنانه فى شفتيه.. ودن ان يحترز وربما دون إرادته.. فى وجه هذا المدرس.. الذى تلوث بالدم.. واهتاج.. وفقد اعصابة فانهال عليه ضربا وهو يصرخ:**

**- المجنون.. المجنون.. المجنون..!**

**ثم ما لبثت صرخته أن دوت فى أرجاء المدرسة.. فتوقفت الألسن وارتسم الفضول فى الأعين وتعطلت بهذا حركة التلقين والدرس.. وجاء مدير المدرسة يتساءل " ماذا حدث ؟".. ثم امر المدرسين فى الفصول الاخرى بمواصلة العمل.. فلبوا أمره وبدا الأمر كأنه إنتهى.. وكان قد انتهى فعلا بالنسبة للجميع.. فيما عدا سامح الذى إصطحبه المدير الى مكتبة بعد ان تبادل مع المدرس الهائج بضع كلمات.. خيل الى سامح فيها ان المدرس يلوك شيئا عن جنونة البادى ويطالب بطرده من المدرسة.. وفى المكتب انهال عليه المدير بالاسئلة ليستنبطن دخيلته ويستوثق من توازن قواه العقلية فكانت ردود سامح على أسئلته محيرة تماما.. ولا تخرج عن " لا أدرى " " وقد يكون " وأنتم اعلم منى بما تريدونه لنا! " و " ربما " مع ان الاسئلة كانت تقتضى اجابات محددة بنعم او لا.. ثم انه كان يضيف احيانا بعض الكلمات غير المفهومة التى تعبر عما يفور فى باطنه من إنفعالات مثل " البحر جميل وطاهر!" ومثل " ينبغى ان نستحم جميعا كل صباح فى ماء البحر قبل ان نخرج من بيوتنا ثم كل مساء قبل ان نعود اليها!" ومثل " سأجعل الحديد البارد ساخنا.. لن افرط فى لحظة واحدة من وقت الدراسة!" ومثل " كنت القى بنفسى فى أحضانها كل مساء.. لكنى لن افعل ذلك ثانيا لانها أعف عاهرة!" ومثل " الشمس ايضا عاهرة!" ومثل " كلا.. اننى افهمكم جميعا.. افهمكم اكثر مما افهم نفسى!" مما اضطر المدير فى الحال الى استدعاء طبيب من الوحدة الصحية التى تتبعها المدرسة.. وجاء الطبيب ثم جس نبضة وتسمع الى دقات قلبة ونظر فى حلقة واذنية!.. ثم وجه اليه بدوره بعض الاسئلة الأكثر تحديدا وتخصصا.. ورغم ان إجابات سامح عليه لم تختلف كثيرا عن اجاباته السالفة للمدير.. فان الطبيب اومأ براسه قائلا له فيما سمع:**

**- انت مرهق نفسيا..!**

**ثم التفت الى المدير واوجز النتيجة التى توصل اليها من فحوص بقوله:**

**- مجرد إضطراب عصبى.. يستحسن ان تعطوه اجازة لكى يهدأ.**

**ثم كتب قامئة بالدواء اللازم.. ودسها فى جيب سامح.. وهو يربت على ظهره.. وخرج بصحبة المدير مودعا حتى الباب وهما يتساران بكلام لم يسمعه سامح.. الذى انتهز فرصة خلو الحجرة الا منه فاخرج الورقة الطبية من جيبة ثم القى عليها نظرة استخفاف واستياء ومزقها ثم رمى بها من النافذة وراح يتامل الوريقات الممزقة وهى تطير فى الهواء ثم تهبط الى الارض.. الى ان عاد المدير وأمره بان يخرج حالا من المدرسة فهو فى إجازة مفتوحة من الآن حتى يبرأ من مرضه..**

**" حينئذ يمكنك ان تأتى الينا لنفحصك ونرى ما اذا كنت صالحا لتلقى العلم "**

**ولم ينس المدير ان يزوده بنصحية غالية مؤداها أن يتفانى - تشجيعا لهم على الاستجابة لطلبة بانهاء إجازته - فى الذهاب الى تلك الاصلاحية " كيلا يضيع وقتك كله هباء وينحدر مستواك العلمى الرفيع.. اتفهم..؟! " فاجابة سامح وهو يبتسم ساخرا ممرورا:**

**- افهمكم تماما يا سيدى المدير..!**

**ثم انصرف.. ولبث يتسكع فى الشوارع والحدائق الى ان غاب النهار او اوشك دون ان يفكر مجرد تفكير فى الذهاب الى تلك الاصلاحية اللعينة!**

**وحين قرر العودة الى البيت تناهى الى سمعه اثناء مرورة على إحدى الكنائس صوتا يجلجل فى أعماقه واعظا.. فادرك لطيته أن الصوت لقس قوى البنيان واستخلص تلك النتيجة من قوة الصوت الذى إخترق هديره الجدران السميكة للكنيسة وتجاوزها إلى الشارع.. لكن لمن الصوت.. ؟ يخيل اليه انه سمعه كثيرا قبل الآن وانه يعرف صاحبه معرفة كاملة.. وراح يتذكر ويتذكر.. آه.. انه هو.. هو بعينة!" ثم إندفع يجرى داخلا ويكاد فى اندفاعه ان يصطدم بالجدران الصلبة والأعمدة العالية.. واجتاز ممرات كثيرة داخل الكنيسة الآمنة المشبعة بأضواء الثريات الهادئة.. المختلطة بأضواء زرقاء وحمراء وصفراء.. تتسلل خافته من الخارج خلال الزجاج الملون العتيق للنوافذ التى تقبع قرب السقوف.. لتلقى ظلها على النقوش الملونة التى تحكى أساطير الدين على الجدران العالية.. الى أن بلغ المذبح.. ورأى وهو يخترق بعينيه صفوف الرواد الواقفين فى خشوع ينصتون ذلك المهندس.. أو الضابط.. أو القس " ألون " لا يدرى.. يقف على المنبر بملابس الكهنوت الوقورة ويكاد صوته ان يشق حنجرته وهو يلطم الجدران والآذان سابحا فى تيار خطبته الدينية.. ولم يشعر به أحد.. ولسبب ما إرتعد وصرخ.. حينئذ تحولت الأنظار كلها اليه ترمقه فى استنكار.. بما فى ذلك أنظار ذلك القس الذى قطع خطبته وتحفز لسؤال الفتى عما يريد وما يقصده بهجومه هذا.. بيد ان هذا الاخير عاجلة صائحا وهو يلوح فى وجهه بقبضة يده فى شبه إحتجاج او تقريع.. كما لو كان لا يعى شيئا:**

**- فى الصباح ضابط.. وفى المساء قس.. وبالامس مهندس إنشاءات!.. ما معنى هذا ؟.. إحتيال..؟.. انت يا سيدى محتال.. محتال!**

**وكانت مفاجأة ألجمت لها الألسن واستدارت الأعين ذهولا واستهجانا من هذا الصبى الوقح المجترىء.. ومضت برهة سكون رهيبة.. لم تختلج فيها عضلة ولم ينطق لسان.. وكأن إنفجارا مروعا قد وقع وحبس الأنفاس وأحال الوجوه الى رخام!.. ثم ما لبث ان استفاق الجميع فى توقيت واحد وتصايحت أصوات محمومة:**

**- امسكوا هذا الوغد.. اقبضوا على هذا المجنون!.. بالأمس هاجم معبدا آخر!.. لا تدعوه يفلت.. سنحطم رأسه!.. المجنون.. المخبول.. المجنون..!**

**كان سامح يقف تلك اللحظة خلف الجميع على مقربة من الباب فأسرع يهرب بجلده.. ولاحقته اقدام كثيرة يتصايح اصحابها ويتخبطون فى مؤخرات بعضهم البعض.. وهو يجرى كالأعمى بين الممرات التى لم يكن يعرف الى ماذا تؤدى.. فالممر يسلمه الى ممر آخر.. وكأنها شبكة لا نهائية ستنتهى حتما باصطياده.. ولسوء طالعه.. إستطاع وهو يعدو تمييز صوت المعلم الذى اشتبك معه فى الصباح.. فقد كان اكثر الأصوات حقدا وغلا.. وأمعنهم ايضا فى نعته بمختلف اوصاف الخبال والجنون.. فانتابه رعب لا يوصف وأيقن انه لا محالة هالك.. ثم خيل اليه ان فؤداه قد توقف عن النبض حين الفى نفسه فجأة فى مواجهة حائط لا منفذ فيه.. فصرخ:**

**- الحقينى يا امى..!**

**ثم دارت راسه وهو يلتفت خلفة ليرى الوجوه التى تكشر عن نواجزها وانيابها قد دنت منه.. وايقن انها بعد ثوان قليلة ستنغرس فى لحمه.. ففقد قدرته على التنفس واستسلم للاغماء.**

**- 24 -**

**يا إلهى ما معنى هذا.. ماذ حدث له ؟.. انه ولا شك لم يتأمل المكان من حوله جيدا.. فتلك الغرفة المستديرة الاركان ليست بالقطع غرفته.. وهذا الفراش الصغير ذو الملاءات البيضاء.. ليس فراشه.. وتلك النافذة المفتوحة ذات الستائر المسدلة ليست نافذته.. اذن ماذا ؟.. ايكون قد اخطأ التفكير والتدبير فخلق لنفسه بعض المتاعب الهينة ؟!.. آه.. انه يتذكر الان كل شىء.. الوحوش كادوا ان يقتلوه رعبا إنه إذن فى غرفة بمستشفى.. ولكن.. ها هو ذا يقوم من الفراش سليما معافى ليس به خدش واحد.. فما معنى وجوده هنا ؟ وما نوع المرضى الذين يستقبلهم هذا المستشفى بالضبط ؟ أهو مستشفى الأصحاء ؟!.. ثم كم من الوقت إنقضى عليه فى تلك الغرفة الضيقة..آه.. ها هى مركبة الشمس الذهبية.. تشق طريقها فى بحر السماء الأزرق.. انه يراها من خلال تلك الانفراجة الضئيلة بين الستائر التى لم يحكم إغلاقها.. واذن فهو فى اليوم التالى.. رباه.. معنى هذا أنه أمضى الليل هنا بعيدا عن بيته وامه التى لا تطيق بعده لحظة.. يا ترى من يدرى حالها الان ؟ كن معها يارب.. قد اخطأ الظن بها ولابد انها قضت ليلة كأنها قطعة من الجحيم.. تفكر فى مختلف الخطوب الفظيعة التى قد.. أه.. ماذا يسمع..؟.. صراخ وصياح.. ودبيب اقدام تجرى متسارعة فى اضطراب.. خارج الحجرة.. ليخرج ويعرف علة الأمر.. ما هذا ؟.. كهل فى ملابس بيضاء يجرى فى الطرقات ويقهقه فى جنون.. على حين يتجرع شيئا من زجاجة وأطباء وممرضوا المستشفى يجرون وراءه ويختطفون الزجاجة من فمه.. لماذا.. أهى زجاجة سم.. هل أراد أن ينتحر يأسا من المرضى..؟..**

**- سيدتى او آنستى.. معذرة لا أدرى.. لماذا يريد هذا الرجل التخلص من حياته ؟**

**- ادخل غرفتك انت لا شان لك.. انه خليل عبد النور.. سارق الكحول الشهير!**

**- ولماذ يسرق الكحول..؟**

**- ليشربة طبعا..**

**- لماذا.. أهو مجنون..؟**

**- هذا السؤال ينبغى ان تسأله لنفسك.. كفى ثرثرة معى.. ادخل غرفتك حالا..!**

**قالت له " يسأل هذا السؤال لنفسه " حين سألها " أهو مجنون " " ماذا قصدت وما معنى ؟..آه.. رباه.. ماذا يسمع ثانية ؟.. صراخ وعويل فى ناحية أخرى يجاوبة ضحك وقهقهة وأقدام تجرى فى إتجاه الأصوات الهستيرية التى لا يدرى ان كانت تشكو او تتألم او تندب حظها فى الحياة.. انه فى الحقيقة لا يفهم معنى هذا.. ايكون هذا مستشفى للمجانين ؟!.. وان كان حقا فما موقفه هو من هذا الجنون.. ما موقعة هنا بالضبط..؟.. انه يعرف بداهة.. ان اى مستشفى يحتوى على نوعين من البشر.. المرضى والأطباء ومساعديهم.. وهو يعلم انه ليس طبيبا ولا مساعدا.. اذن فهو مريض.. مريض..؟.. من قال هذا..؟.. ومريض بماذا..؟..ب.. آه.. إلحقيه يا أمه..!..**

**- سيدتى او آنستى.. معذرة.. لا أدرى..!**

**- ماذا تريد مرة ثانية.. ؟.. هيه.. تبغى تضييع وقتى فى الثرثرة..!**

**- أين انا..؟..**

**- هيىء..!.. فى مستشفى العقلاء يا عزيز عينى..!**

**- العقلاء.. آه.. مستحيل.. أحلم.. كابوس.. أمى.. أين أنت يا أمى ؟!**

**- أمسكوا هذا الفتى.. إنه يهرب..!**

**- أمسكوه.. أمسكوه..!**

**يا للسماء.. ها هم يجرون وراءه ايضا.. كما لو كان مجنونا بحق.. ليقف ويناقشهم الامر.. ليحدثهم عن أمه وبيته ومدرسته.. أحبائه الاقربون.. ادلة وجوده ورمز حضارته ووعيه.. يجرى هكذا.. فيظنون أن إحدى هيجات الجنون قد أذهبت عقلة فيقبضون عليه.. ويكشفون عن مؤخرته ويحقنونها بعقار مهدىء او مخدر او منوم.. فيرى الجميع بياضها.. كلا.. ليقف ويناقشهم الأمر....**

**- سادتى.. سيداتى.. أنا سامح امين مطر.. التلميذ الأول بالمدرسة الابتدائية.. وأمى تعمل خادمة لديكم فى البيوت.. إن كنت لا تعرفون!**

**- إهدأ..!**

**- قلت لكن انا.. يا الهى.. ماذا تفعلون.. كلا.. دعوا ثوبى وشأنه.. لن اسمح لكم بهذا ثانية.. ساقتل من يقترب منى!**

**- إهدأ أحسن لك..!**

**ماذا..؟.. تمكنوا من السيطرة عليه.. شلوا حركته.. يجرون الثوب عن مؤخرته.. آه.. ها قد فعلوها أعين الرجال والإناث تحملق فى بياضها!.. لماذا.. لماذا.. يصرون على معاملته تلك المعاملة المهينة وهو لم يفعل شيئا غير إفناء نفسه فى حب أمه وبيته ومدرسته.. آه.. يدفعون تلك الابرة الغليظة فى لحم مؤخرته.. رباه.. يالالم.. يا للحسرة والخجل..**

**- قلت لكم انا سامح امين مطر..**

**- اهدا يا قصير الذيل..!**

**الذيل.. هيه.. الذيل الذى فى المؤخرة..!.. اذن فهذا هو الامر المقصود.. إنهم يحاولون هنا.. تركيب الذيل الذى فشلوا فى تركيبه هناك بالاصلاحية.. فهل هذا ثمن الحياة بينهم ؟!.. أهى ضريبة يدفعها لمكاسب نبوغه ؟.. الذيل والطرق على الحديد البارد ومنحهم حجة ملكية البيت على سبيل التعبير عن الثقة العمياء! وأن يكون هو أو أمه او كلاهما معا لبؤه لأحد السباع.. ثم عليهما ان يأكلا من حفرة الغائط.. ويناما على الطين.. ويستحما فى مياة المجارى..!.. ثم ماذا.. ثم ماذا ؟.. سحابة سوداء تغشى عينية.. ماذا فعلوا به.. إن جسدة يتراخى.. الوجوه والجدران تدور من حوله.. لم يعد يرى شيئا انه يدخل فى مملكة الظلام..**

**- آه..!**

**مرة أخرى.. الغرفة المستديرة الأركان.. والفراش الأبيض.. والنافذة غير المحكم إسدال ستائرها.. ثم ماذا..؟.. قرص الشمس الأحمر ينفض أجفان الكرى..!.. معنى هذا أنها قد تقهقرت الى مهد الشروق بعد ان كانت تشق بعربتها الذهبية صدر السماء الازرق شقا..!.. أم.. أم ماذا ؟.. اتكون شمس اليوم التالى.. رباه.. ونام كل هذا الوقت.. ثم ماذا يشعر..؟.. وماذا يسمع ؟.. الصراخ ثانية.. الاقدام التى تجرى عبد النور سارق الكحول الشهير مرة اخرى.. ان هذا.. آه.. ان هذا.. يا الهى.. ينبغى ان يبارح هذا المكان المخيف باقصى سرعة.. ينبغى ان تأتى امه لتأخذة او يهرب..!.. يهرب.. كيف ؟.. لينظر من النافذة ويقف منها على إمكانيات الهرب.. حسنا.. ها هى حديقة عرى جسد أشجارها سبع الشتاء هو ايضا!.. ثم ها هو سياج حجرى مرتفع ينحنى ويلتف ليحيط بالحديقة والمبنى إحاطة تامة.. لكن.. لماذا هو أملس..؟.. ولماذا هو شاهق العلو هكذا كأسوار السجون..!؟.. ثم ها هى بوابة حديدية ضخمة متشابكة القضبان.. وها هى غرفة صغيرة الى جوارها.. وها هو ال.. ماذا يرى..؟.. انه ليس بوابا.. انه شرطى يحمل بندقية.. اذن فلا مهرب.. قد احكموا سد المنافذ فى وجهه.. ومن يدرى.. قد يقضى هنا بقية عمره.. فلا يكون مهندسا ولا محاميا ولا طبيبا.. ولا يكون شيئا ابدا.. وقد لا يرى وجه امه الحبيب ثانية.. يا ترى كيف حالها الان..؟.. وهل عرفت ما انتهى اليه مصيره.. أم مازالت فى عماية الجهل المؤلمة تعمه..!.. من له بها يراها وتراه وتمنحه أحضانها فيأخذ فهذا مستشفى لذوى العقول الذاهبة.. وعقله هو.. هل ذهب ؟.. الى اين ومازال يشعر معه عتيا فى رأسه ؟ ثم ماذا لو أقنعهم بهذا ؟ إنه يستطيع ولكن هل لهم آذان تسمع ؟.. او بمعنى آخر.. هل لديهم الاستعداد الكافى لتفهمة ؟!.. قد يكون نعم.. وقد يكون لا.. وقد يكون لا نعم ولا لا..!.. ولكن.. ليحاول.. ليحاول..**

**- ايها السيد.. اين مدير المستشفى ؟!**

**-..........................................**

**- ايتها السيدة.. اين مدير المستشفى ؟!**

**-..........................................**

**- ايها الاوغاد تدعون الصمم.. انت يا سيدتى او انستى.. معذرة.. لا ادرى..!**

**- ماذا تريد يا فتى ؟.. انك تعطلنى..**

**- اعطلك عن ماذا ؟**

**- عن خدمة المرضى..!**

**- وانا.. الست احد المرضى.. آه.. هذا اكتشاف مفرح.. انتم اذن لا تعتبروننى مريضا و..**

**- هراء.. ثرثرة.. أنت يا بنى لا تعرف قدر نفسك..!.. إنى ذاهبة..!**

**- كلا.. بحق الله.. كلمة واحدة فقط.. ارجوك.. اليس لك ابن او شقيق فى مثل عمرى.. انى اريد ان أخرج من هذا المكان..!**

**- حلم ابليس فى الجنة!**

**- لم.. يا الهى.. لم..؟**

**- لانك لا تعرف قدر نفسك!**

**- بل اعرفها.. اعرفها جيدا.. انا سامح امين مطر.. التلميذ الاول بالمدرسة الابتدائية..**

**- يا الهى.. قد عاودتك النوبة.. اكشف ثوبك..!**

**- انا سامح امين مطر.. التلميذ الاول بالمدرسة الابتدائية!**

**- حسنا.. شاطر..!.. انت ولد مهذب وعاقل ومطيع.. بدأت تفهم اننا لا نريد بك شرا ونحن نرفع ثوبك عن مؤخرتك..!**

**- انا سامح امين مطر.. التلميذ الاول بالمدرسة الابتدائية!**

**\*\*\*\*\*\*\*\***

**ما هذا الهراء الذى يرى..؟,, الشمس قد إختفت.. وأضواء الغسق الأرجوانية الزرقاء تنذر الأحياء.. بان الليل قادم فى أعقابها.. مستحيل.. نام من الشروق الى ما بعد الغروب.. وامه التى لم يرها منذ صباح امس الاول.. لكن.. ما هذا الصراخ الذى يسمعه واين هو ضجيج الاقدام تلك المرة.. كلا.. هذا الصراخ يأتى من خارج الاسوار من.. من.. أهذا أنت أيتها الأم الحبيبة.. تصرخين.. تولولين عند البوابة.. يمنعك هذا الشرطى من الدخول معه حق.. هذا واجبه..!.. وانه لقادم اليك بنفسه.. حسنا.. عليه ان يتسلل حتى لا يشعر به احد ويظن انه يبغى الفرار.. هكذا يمشى على اطراف اصابعه ويتمسح فى الجدران.. ثم هكذا يثب عند السلم.. وينهب الدرجات نهبا.. وبعد ذلك ليكن ما يكون.. آه.. كم يتحرق شوقا اليها.. ايها الشرطى الذى يخلو قلبه من الرحمة دعها.. لا تدفعها بعيد عن البوابة هكذا.. ها هو يقترب منكما.. ثم ها هى تلمحة وتجهش بالبكاء فرحا لمرآه.. وتمد يديها الحبيبتين من خلال قضبان البوابة الحديدية.. ثم تتلقفانه.. وتحاولان جذبة اليها جذبا.. وها هو يحيط ظهرها بذراعيه.. ثم ها هو الحديد القاسى يحشر نفسه بينهما.. ويصر على منع صدريهما من أن يتلامسا.. وأدمعهما من أن تمتزجا وكأن هذا عمله الوحيد يا الهى..!**

**- امى.. امى.. حمدا لله لاننى رأيتك مرة اخرى..**

**- ولدى الحبيب.. ولدى الحبيب المعذب..!**

**- كفى هذا..!**

**- ايها الشرطى.. لحظة واحدة.. اليس عندك قلب..؟!**

**- قلت كفى هذا..!**

**- دعنى.. دعنى..!**

**- أيها الشرطى الطيب.. إمنحنا دقيقة واحدة أخرى.. عندى لك هدية.. خذ..!**

**- ولكن انا لا أقبل الرشوة!**

**- قلت لك خذ.. إنها هدية وليست رشوة..!**

**- ليكن.. من أجل خاطرك يا سيدتى فقط..**

**- شكرا لك.. يا إلهى.. شكرا لك..**

**\*\*\*\*\*\*\*\***

**-25-**

**ثم مرت ايام ثلاثة بعد ذلك.. قضاها جالسا امام النافذة يترقب بصبر ولهفة لحظة ظهور أمه المأمول ثانية عند البوابة الخارجية.. ليتحقق لهما فى غفلة من أعين إدارة المستشفى لقاء جديد.. لكنها - لأسف سامح وألمه – لم تحضر.. وكأنها آثرت الإنتظار الى يوم الزيارة الاسبوعى كيلا تحمل نفسها او تحمله مشقة مثل هذه اللقاءات الناقصة.. التى لا تروى الظمأ ولا تتركهما على حالهما.. بل تزيد لهفتهما إلتهابا او ربما لأنها لم تجد هدية أخرى تنفح بها الشرطى فاحتمال ذلك اكبر.**

**وفى خلال تلك الايام ايضا.. اتفق له فى لحظات اليقظة التى سمحوا له بها والتى كان يقضى معظمها مطلا من النافذة أن يتعرف على شخصية الكهل سارق الكحول " الشهير " من صيدلية المستشفى.. فوجده رجلا يائسا للغاية.. لا يستقر له حال.. ولا يكاد المرء أن يضع فى ذهنة فكرة محددة عنه حتى تتغير الى نقيضها تماما.. فهو آنا عابس.. مذهوب العقل.. لا يتبادل مع أحد كلمة واحدة.. ومنشرح الصدر حلضر البديهة.. ثرثار آنا اخر.. ولاحظ سامح ان حالة الإنشراح تلك لا تؤاتيه الا اذا نجح فى سرقة بعض القطرات من الحكول الابيض وشربها.. حينئذ كان يمكن الرجل أن يداعبه ويربت على ظهره ويغمره بنظرات حانية طيبة غاية الطيبة.. ولذلك تعلم ألا يبحث عنه حين يشعر بافتقاده.. وما أكثر ما كان يشعر.. إلا بعد ان يعرف انهم قد طاردوه فى ردهات المستشفى وممراتها بعد سرقته إحدى الزجاجات لانتزاعها من قبضة يدية قبل ان يأتى عليها.. آنذاك كان يبارح غرفته ويغيب لحظات ثم يعود مسطحبا إياه لينعم بالراحة التى كان يستشعرها بقربه كلما أطل الكهل عليه بتلك النظرات التى تبلغ إستكانتها حد إثارة الإشفاق فى نفس من يراها.. والتى ابكت سامحا نفسه غير ذات مرة.. متضائلا أمام قوتها الرقيقة التى كانت تنفذ الى اعماقه فتنظفها مما علق بها من أدران القنوط والكآبه.. بل تغسل روحه غسلا.. وهكذا وجد فى رفقة هذا الرجل بعض العزاء لنفسه.. فقد هونت عليه أمورا كثيرة وروضته على قبول فكرة البقاء بالمستشفى فلم يعد يفكر فى المطالبة بمقابلة المدير.. بل واستسلم لجرعات الادوية التى كانوا يصبونها فى جوفه أو أوردته..إستسلم عن رضى.. لأانها كانت تسلمه الى نوم عميق.. او تطئمن خواطرة وتمتص طاقة إنفعالاته الباطنة التى كانت تلهب دمه توترا من إنتظار أمه.**

**ثم جاء يوم الزيارة.. وتكالبت جموع الزائرين على البوابة الخارجية واحتشدت.. وأطلت رؤوس المرضى من النوافذ.. فى انتظار اللحظة الى تنفتح فيها البوابة.. وما هى إلا دقائق حتى إندفعت أمه داخله غرفته تسبقها فاكهتها وحلواها.. فاستقر فى احضانها اخيرا.. أخيرا يا امى!؟ وكانت ساعات او لحظات سعيدة هانئة.. وزعت الام فيها نفسها بين تقشير البرتقال والموز او فض أغلفة " السلوفان " عن الحلوى.. وبين إغتراف النظرات من وجهه الحبيب وبين إهالة دفء صدرها عليه.. ووزع فيها نفسه هو بين الإستسلام لكل هذا.. وبين التفكير فى اليوم المنشود الذى يغادر فيه تلك المستشفى ويعود الى بيته ومدرسته.. ثم انهما لم يكونا وحدهما كل الوقت.. إذ ولج الغرفة عليهما صديقه الكهل.. وكان يبدو عليه انه أخفق هذا الصباح فى استلاب قطرة كحول واحدة.. مما أهاب بسامح أن يسبغ عليه من خيرات أمه ما يعوضه عن شعوره بالظمأ الكحولى.. فراح يتودد اليه بكرم فائق الى أن فض عبوسه وبدأت تلك النظرة العميقة الطيبة الآسرة تأخذ مكانها فى عينيه.. وكانت سعادة سامح بذلك لا تعاد لها إلا سعادته بقرب أمه.. فمضى ثلاثتهم يتجاذبون أهداب الحديث الذى احتفظ الرجل لنفسه بنصيب الأسد فيه.. موجها إهتمامه الى الأم معظم الوقت.. وهذا وإن يكن قد أثار غيرة سامح قليلا.. بيد انه لسبب ما شعر بالرضى عنه وعن امه وعن المستشفى وعن كل شىء.. وشعر بالرثاء للرجل ايضا.. لأنه على ما بدا له من إنفاقه وقت الزيارة كله معهما.. لم يسعد بزيارة أحد ذوى قرباه.. وفكر لحظة أن يسأله عن ذلك لكنه تردد وابتلع سؤاله مخافة أن يجرح شعوره أو يوقد أوار آلامه.. التى قد تكون جذوتها قد إنطفأت تحت الرماد منذ زمن بعيد.. او على الاقل تحولت الى جمرة تحت هذا الرماد.. ولا يدرى كيف خامره إحساس قوى بأن سعادة أمه مجرد قشرة على السطح تتقلقل تحتها هموم تثقل فؤادها الا انها لا تظهر ذلك له.. وعرج بذهنه الى هؤلاء الرجال الذين يحتفظون بمفاتيح لكل البيوت فتوهم شيئا أفسد عليه سعادته وغبطته قرب إنتهاء وقت الزيارة.. وفى اللحظة التى قرر فيها ان يصارحها بحقيقة شعوره رنت أجراس تعلن الزائرين بالإنصراف.. فتعالت أصوات الوداع وآمال اللقاء مختلطة بدبيب الاقدام.. وتحول هدوء المستشفى الى جلبة تماثل الى حد كبير تلك التى تحدث على أرصفة القطارات.. وتكأكأ عمال المستشفى وممرضوها على الحجرات والعنابر لحث المتباطئين على الذهاب.. وكانت أمه آخر من خرج من المستشفى إذ رأى الشرطى يغلق البوابة وراءها وهو يطل عليها مودعا بدموعه من النافذة.. وأثناء ذلك يفكر فى تهيب أنه سيتحتم عليه ان ينتظر أسبوعا كاملا قبل ان يرى ويلمس تلك الام.. فضلا عن الخوف الذى ملأ قلبه عليها.. أن تتعرض أو تكون قد تعرضت فعلا لمضايقات جماعة الإصلاحية ؟؟**

**ثم كانت الأيام والليالى التى تلت ذلك طويلة.. طويلة.. على نفسه.. ومشحونة بالقلق والهواجس والمخاوف الطاحنة.. فقد تضخم لديه إحساسه المبهم بأن هناك من يطارد أمه حتما..**

**لماذا ؟..**

**كان من اليسير عليه إختلاق آلاف الأسباب الوجيهة لذلك.. فهناك "حجة البيت".. وهناك شرفها.. وهناك أمنية إلتئام شملهما مرة ثانية.. وهى أمنية قد يساومونها عليها.. فتدفع الثمن الغالى الذى أبى ان يدفعه وإن كان الآن يعانى من تكاليف صموده لهم.. لكنه يعتبر نفسه لم يهزم وأنهم لم يفقدوه شيئا اللهم إلا الإنتظام فى الدراسة.. التى كان يؤلمه التفكير فيها كثيرا.. بيد انه لم يصعب عليه الوصول الى حل.. حين قرر أن يفاتح أمه فى هذا الأمر فى الزيارة القادمة ويطلب إليها أن تحمل كتبه ومذكراته إليه.. ولو اضطرت الى التنازل تلك المرة عن حمل الفاكهة والحلوى..! - إن وجدت صعوبة فى حملهما سويا- ولهذا راح يتعجل أيام الأسبوع أن تنقضى الى غير رجعه – هو غير آسف عليها – فيراها أولا.. ويفاتحها فى أمر كتبه ثانيا.. ثم يسألها هذا السؤال الذى ضاعت عليه فرصة سؤالها اياه فى نهاية الزيارة السالفة.. ولكن من أدراه أنها لن تخفى عليه الحقيقة تبديدا لمخاوفه كما كان يفعل معها هو نفسه حينما وضعته الظروف منها نفس الموضع ؟!.. سؤال ضاعف من حدة إنفعالاته وجعله عصبيا تلك الأيام بصورة اضطرت القائمين على تطبيبه الى مضاعفة جرعات الأدوية المطمئنة والمخدرة والمنومة التى ألقت بوعيه فى حالة غياب مستمر تقريبا.. فلم يكن يكاد يفيق ويصرخ أو يبدى سلوكا من قبيل الإهتياج وفقد التوازن.. حتى يهرعون اليه لحقنة.. وكان من نتيجة ذلك أمران – أحلاهما مر – أولهما أنه لم يعد يرى الكهل العجوز او يسمع عنه الا فيما ندر.. وثانيهما إهلاك الأيام والليالى.. فلم يعد يشعر بمرورها وبثقل وطأتها على صدره.. الأمر الذى عجل بطرق يوم الزيارة لبابه آتيا بأمه.. التى الفاها تدخل عليه – لفرحته ودهشته – محملة بالفواكة والحلوى وبكتبه وكراساته أيضا.. وكانهما كان يتبادلان نفس الخواطر على بعد المسافة بينهما.. مما جعله ينسى كل شىء.. إلا غبطته بهذا التوارد لخواطرهما.. الذى إن يدل على شىء فعلى أنهما مهما فرقوا بينهما فإنهما معا دائما بروحيهما.. وعلى قدر ما أسعده هذا الأمر.. على قدر ما اغتم له بعد إنصرافها ناسيا ان يكاشفها بما يعتمل فى صدره من مخاوف عليها لانه إن كان حقا أنهما يتخاطبان على البعد.. وتزور روح أحدهما روح الآخر.. فإن هذا معناه ان تلك المخاوف فى محلها تماما..!**

**وهكذا كتب له ان يعانى فى الاسبوع التالى عين ما عاناة فى الاسبوع السابق.. وبصورة أشد.. لأنه أضيفت الى آلامه شعور قارع بالذنب مزقه حين اكتشف ان جرعات الدواء لا تتيح له اليقظة الكافية للتركيز على القراءة والمطالعة..**

**ومع ان الحل كان هينا ويتطلب منه مجرد رجاء القائمين على إذهاب وعيه – بدعوى العلاج – ليباعدوا بين مواعيد الحقن.. فإنه لم يفعل.. لانه هذا كان معناه أن يرسف فى أغلال الهواجس وتباريح التشوف لرؤيا امه.. تلك التى كان سيصيبه الفشل الذريع إن حاول التحلل منها..**

**ولهذا استسلم وكانت لحظات إنتباهه ويقظته مريعة لا تحتمل.. اذ كانت تقع عيناه مباشرة بمجرد إستفاقته على منظر الكتب التى وضعتها أمه الى جانبه فوق خزانة صغيرة.. فلم تتحرك من ساعتها.. حينئذ كان يراها كالجثث.. وكان لا يفكر فى إخفائها عن ناظريه.. رغم وجاهة هذا الحل.. وذلك لئلا تتحرك عن الموضع العزيز الذى وضعتها فيه أمه بيديها الحبيبتين!**

**ولهذا كله كان يسرع بالفرار عارضا نفسه عليهم بنفسه ليحقنوه.. قبل أن يدوى بالصراخ أو يؤتى عملا طائشا يؤذى به نفسه أو غيره.**

**وذات مرة أفاق من غيبته فرأى الكتب غير موجودة فى مكانها فارتعد وارتعب وتعالى صراخه وعجيجه.. وجاءوا اليه يتعثرون حاملين جرعة الدواء.. فتملص منهم وراح يجرى فى أرجاء الغرفة ويتصايح " أين ذهبتم بالكتب " فعرف أن إحدى الممرضات قد ألقت بها تحت سريره..بحجة أنها كانت تزحم سطح الخزانة الصغيرة بلا فائدة.. ولحسن الحظ.. لم تكن تلك الممرضة حاضرة فى تلك اللحظة.. وإنما سمع ذلك من ممرضة أخرى.. وإلا فإنه كان سينفجر فيها بطريقة تعطيهم دليلا دامغا على جنونه البين!.. وطفق يجمع الكتب من تحت السرير ويحاول تذكر الترتيب الذى تركتها عليه " سيدة الحبايب "!.. وعندما تم له ذلك على خير وجه.. هدأت ثائرته وأعطاهم مؤخرته وهو يتعجلهم ان يحقنوه بسرعة حتى يدخل ضيعة النسيان التى كانت تصنع منه أسيرا فى غمضه عين.**

**وفى الزيارة التالية.. أتت امه فاستطاع ان يلمح لاول وهلة بإحساسه المرهف نحوها.. أنها كابدت خلال الاسبوع الفائت آلاما شديدة.. وفضلا عن أن الفواكهة والحلوى لم تكن فى مثل جودة وحجم الزيارات السالفة فإنه قرأ أيضا فى نظرة عينيها التى كانت تحاول أن تنهضهما من كبوتهما لتضىء لأجله.. ومن هذا الإرهاق الشديد الذى رسم خطوطه الزرقاء الكليلة حول تلك العينين وألقى ظلا شاحبا على وجهها الذى برزت نتوءات عظامة بغتة.. والتى كانت تحاول أن تداريه عنه برسم إشرقة مغتصبة عليه.. فلم تنجح إلا فى جعله أكثر إرهاقا وإثارة للشفقة والمخاوف..**

**ومر هذا اللقاء دون ان تقول هى شيئا يفصح عما ألم بها.. ودون أن يلحف هو فى سؤالها.. لانه كان يعلم انها لن تكون صريحة معه مهما ألحف فى السؤال ولعل العدوى إنتقلت الى الكهل العجوز الذى ألف أن يقضى أويقات الزيارة كلها معها.. إذ بدا لعينى سامح أقل إحتفالا بها.. وأقل ثرثرة أيضا.. وكأن روحه هو الآخر بدأت تعرف طريقها الى روحها.. فعلم ما يدور بسريرتها و.. إنقضى أسبوع آخر ليس أفضل من سابقيه.. وسعت أمه لزيارته دون فواكه او حلوى تلك المرة.. وأشد هزالا وانغلاقا على أعماقها رغم ما كانت تحاول جاهدة أن تبديه من مرح بائس أفضل منه الكآبه!.. كما أن الكهل فى تلك الزيارة لم يتفوه بكلمة واحدة.. وإن كان قد احتفظ فى عينيه بتلك النظرة الى احبها سامح كثيرا.**

**كانت الأم إبان تلك الزيارة تسترق الى سامح - فى غفلة منه - نظرات نهمة جزعة يائسة.. كأنما تراه لآخر مرة.**

**ثم أنها كانت تسرع بتغيير معانى الإنفعالات الباطنة التى تدل عليها تلك النظرات المختلسة منه.. دون ان تغض من بصرها.. كلما وجه اليها نظراته لئلا يرتاب فى أمرها ويصبح أمر إقناعه بأنه لا شىء أكثر من أحزانها الطبيعية المعتادة لما آل إليه حاله.. معضلة تحتاج لفك عقدها الى حذق شديد لا يتوافر لها – وهى بهذا الإجهاد – مهما استعانت بقوى النفس غير المحدودة على قوى الجسد الواهنة.. ورغم حرصها التام على ذلك.. فإن سامحا أوشك أن يقرأ قنوطها وعذابها حين تأخرت ثانية واحدة فى إحدى المرات عن تحويل تلك المعانى فى عينيها الى نقيضها المخادع.. فدهمها بنظرات التساؤل والفضول.. ولم تجد شيئا تشتت به أفكاره.. إلا تصريحها المفاجىء له بأنها تذكرت إسم الشخص الذى بنى بيتهما فاذا هو يدعى " نور الدين الظواهرى!"**

**صرحت بهذا الاسم.. ربما قبل الميعاد.. لانها كانت تحتفظ به لوقت آخر تبدو فيه الأمور أكثر تعقيدا.. فإذا بوجه سامح يضىء كله ويبتسم إبتسامه عريضة لئلاءة.. أبهجتها وفصلتها عن مرارة الواقع بضع لحظات.. وبدا لها كأنه لم يكن يتوقع منها ان تتذكر هذا الاسم الغالى فى هذا الوقت بالذات.**

**وفى خلال الحديث الذى إنطلق فيه معبرا عن سعادته بتذكرها.. والذى غير من وطأة الإنقباض والكآبه اللذين كانا يخيمان على جو الزيارة – فابتسم الكهل ايضا – إختلست اليه نظرة سريعة حذرة ومستترة.. كما لو أن كل معانيها تقول " هذه آخر مرة أراك فيها سعيدا يا بنى!"**

**ولم ير هو تلك النظرة لأنه كان مندفعا فى حديثة الشجى.. لكن.. يبدو ان الكهل لاحظها.. إذ أشاح بوجهه بعيدا.. كأنما أراد أن يخفى بتلك الحركة دموعا نفرت من عينيه على الرغم منه.. وربما أدركت الأم سره.. إذ ضغطت على يده منتهزة فرصة وجه فيها سامح نظرة عابرة الى النافذة إبان حديثة الطويل الذى لم يكن قد إنتهى منه حتى تلك الحظة.. ضغطة أومأ لها العجوز برأسه متفهما.. فحبس مدامعه.. وأقعد نظرته العطوفة فى عينية مرة أخرى..**

**ثم حان موعد الإنصراف سريعا.. بعد ان أصبح متعذرا على الأم أن تبقى لحظة اخرى.. فقد رنت الاجراس منذ دقائق.. ودخل أحد الممرضين وزجرها.. ثم خرج لعمل آخر مفهما إياها أنه سيعود بعد دقيقة واحدة ليرى إن كانت قد ذهبت.. فقامت الأم متثاقلة وتذودت منه بنظرة طويلة متراخية.. ثم عانقته عناقا لم ينتشلها منه إلا صوت الممرض حين عاد تسبقه شتائمه..!**

**وعلى الفور هرعت الام خارجة وهى تنظر اليه وتكاد لذلك ان تصطدم بالباب.. وتوارت.. وبقى سامح فى مكانة يفكر فى معنى نظرتها ويصغى الى دبيب أقدامها الحبيب وهو يتباعد ويتخافت وصوت مبهم فى أعماقه يهتف به " إنها آخر نظرة.. آخر نظرة..!.. قم أنظر إليها من النافذة.. أظفر منها بنظرة أخرى فإنها آخر مرة.. آخر مرة! ".. فانتفض من جلسته ووثب الى النافذة.. ثم اكتسح البوابة بنظراته اللهفى.. ورآها تتوقف لتبادل الشرطى كلمة او كلمتين متعمدة حتى تستدير وتوجه الى النافذة نظرة أخيرة عسى أن تراه فرأى.. سامح وجهها الذى لم تكن ملامحة واضحة على البعد.. واضحا غاية الوضوح.. وكأنه أقرب إليه من حبل الوريد ويبدو ان الشرطى قد إنتهرها حين ساءه أن تنشغل عن الثرثرة معه بتأمل تلك النافذة التى لم يكن يدرى ماذا تمثل لها.. إذ إلتفت اليه بغته.. وفى لحظة.. كانت الأسوار اللعينة قد غيبت ظلها الحبيب.. ربما للابد.**

**- 26 -**

**كل شىء إنحدر من سىء الى أسوأ بعد زيارة الام تلك.. التى اشعلت اللحظات الاخيرة فيها الحرائق فى قلبه وعقله ووجدانه.**

**ثم حدث بعد ذلم مالك يكن فى الحسبان.. تخلفت الام عن الزيارة التالية.. فأعطته بذلك وقودا ممتازا لتغذية أوار تلك الحرائق وتأجيج ضرامها.. إذ كان لهذا التخلف معنى واحدا لا ثانى له.. هو ان ظنونة ووساوسه بأحوالها المتدهورة التى أنفقت جهد اليائس فى مداراتها عنه إبان زيارتها الأخيرة أدلة كافية للتصديق عليها.. فان تخلفها هذا سيد الادلة.. لاسيما أنه كان يوقن بانه لا يفرق بينهما شيئا غير المرض او الموت.. وكلاهما سجن..**

**وقد ضاعف من جيشان الآلام فى كيانة حتى شملت كلة خلية من خلاياه.. أن الكهل العجوز ساءت أحواله هو الآخر بغتة.. بعد أن أمضه إنتظار مجىء الأم فى هذا اليوم الذى لم ير سامح فى حياته يوما أنكد وأقتم منه.. وكان الاثنان ينتظرانها جنبا الى جنب فى نافذة غرفته.. ويتبادلان بين الفينة والأخرى نظرات يتسرب اليها اليأس رويدا.. متعقبا بجيوشه فلول الأمل الذى لم ينحدر إلا بعد أن رنت الأجراس معلنة إنتهاء الزيارة ولم تأت الأم بعد يا إلهى.. فى تلك اللحظة تأوه سامح من كبد مفطورة.. واعترت وجه الكهل كآبه لا نهاية لها.. واندفع خارجا كأنما يهرب من هزيمة ساحقة لحقته..**

**وبعدها لم يره سامح حيا ابدا.**

**كان لابد له من أن يراها.. وإذا كان هذا مستحيلا تحقيقه فى غير يوم الزيارة الذى كان لا يستطيع بأى حال إنتظاره.. ولو إستعان الآخرون عليه بآخر ما توصلت اليه قريحة العلم من وسائل العجم والتنويم.. لأن أعتى تلك الوسائل فعلا لم تعد تؤثر فيه.. ليقظة آلامه التى كانت تتطلب علاجا من نوع آخر لا يتوفر فى هذا المستشفى وإنما فى البيت..**

**وإذن فلا وسيلة غير إنهاء وجوده نهائيا - أو مؤقتا - فى هذا المكان فكيف يتسنى له ذلك وإدارة المستشفى لن تفلته.. والفرار أمر صعب أيضا.. وإن يكن أقل إستحالة.. ولذلك جعل كل همه فى تلك الأيام تحين فرص الهرب فلم يكن يمكث بغرفته إلا قليلا.. ويقضى معظم وقته فى التجول بالحديقة للبحث فى اسوارها عن نقطة ضعف واحدة او ثغرة ينفذ منها.. الامر الذى لم يوفق اليه ابدا.. فقد كانت الاسوار تطالعة متحدية بعلوها ونعمومة ملمسها الذى ذكره – ولا يدرى كيف – بنعومة الملمس الزلق ليد تلك الأنثى فى الإصلاحية وبات يقينا لديه أنه لا منفذ غير البوابة الرئيسية التى يحرسها هذا الشرطى الذى لا يكاد يفارقها لحظة.**

**على أنه حدث فى صباح أحد الأيام بينما كان يدلف الى الحديقة مبتدئا هذا اليوم جولة تنقيب أخرى ضائعة أن خيل إليه أنه يرى على مرمى بصره بجوار السور جسدا مسجى بين العشب وأخذه الفضول ومنظر الجسد الذى لا حراك فيه فهطع اليه ركضا.. وهناك وقعت عيناه على آخر وأبشع ما كان يحب ان يتصوره أو يفكر فيه..**

**رأى الكهل العجوز منكفئا على الأرض وقد أمد ذراعيه فى اتجاهين متوازيين بطول جسمه كما لو كانت آخر حركة عالج بها الحياة هى التضرع الى السماء لتبعث اليه أحدا ينقذه على حين ألصق خده بالارض فوق بقعة من الدم المتجمد الذى كان ينبثق منه خطان مستقيمان من طاقتى أنفه ليختلط بدم تلك البقعة.. ورأى سامح – بالهول كله – جانب وجهه الآخر الذى فر منه الدم وتخثر مالئا أذنه وما تحتها مغرقا عنقه وقباء ثوبه.. وكأن إنفجارا قد وقع له فى شرايين المخ.. او كأنه كان يصارع – بتغيب الأم – الشيطان نفسه بينما كانت إحدى يدية تنطبقان على زجاجة فارغة من الكحول.. وقد زاغت عيناه وتحجرت نظراتها فتفجرت دموعه وصرخ:**

**- عبد النور المسكين..**

**ثم لم يحتمل المنظر فاخذ يجرى من هول الرعب والوله كالمجنون فى إتجاه البوابة التى تصادف ان كانت مفتوحة على مصراعيها فى تلك الآونة بالذات لإدخال إحدى عربات الإسعاف.. ومن المسافة الضئيلة التى كانت تفصل العربة عن جسم البوابة إنسل وهو يكاد يصطدم بها لينفلت من ورائها.. ولمحه الشرطى فصاح فى الشارع الطويل الخالى الذى أوغل فيه سامح:**

**- أمسكوه..**

**ثم انطلق فى أثره وهو يردد تلك الصيحة بين وقت وآخر فى سرعة اظهرت مدى ما ينطوى عليه سامح من قوة ومران.. ومن رغبة شديدة فى الفرار من هذا الجنون ومن حسن حظة كانت رحى المطاردة تدور فى حى للعمال الفقراء الذين لا يتعاطفون مع رجال الشرطة فلم يعترض سبيلة أحد وكان يرى باطراف عينيه وهو يركض بعض العمال يقفون فى هدوء على جوانب الشارع ويتطلعون اليه والى الشرطى الذى استمر يصيح مرددا:**

**- أمسكوه..!**

**ورغم أن أمله فى الإفلات منه كان واهيا.. لكنه ثابر على الجرى وتحاشى ما امكنه ذلك مفارق الطرق التى كان يعلم أن رجال شرطة المرور على الاقل يتمركزون بها وكانت ميزته الوحيدة التى يتفوق بها على الشرطى انه كان يندفع بملابسه الخفيفة بقوة رغبته فى التخلص من آلامه ورغبته وشوقه لرؤية امه والاطمئنان عليها.. بينما كان الآخر يجرى بملابسة الرسمية الثقيلة.. ليؤدى واجبه الوظيفى فحسب.. فكان يجرى - او بالأحرى يطير - وإذ هو على مسافة قصيرة من مفترق طريق صادفه سرعة خاطفة.. لمح أمامه بالقرب منه شرطيا آخر.. أسرع لدى رؤياه يتخفى وراء أحد الأبواب لينقض عليه فى اللحظة المناسبة.. ولحسن حظة واتته قوة قفز بها قفزة عالية جدا فى الهواء لحظة عبوره المكان الذى توارى فيه الشرطى واستدار من قفزته مباشرة الى الشارع المتقاطع.. وبعد خطوات قليلة.. وجدا يدا تمتد من احد البيوت.. وظن هو فى مبدأ الامر أنها يد شرطى ثالث.. فسقط فؤاده وانهارت قواه واستسلم لليد التى جذبته الى مدخل بيت مظلم.. بينما صاح صوت هامس:**

**- لا تتحرك.. او تصدر صوتا..**

**ونظر سامح الى صاحب الصوت وهو متقطع الأنفاس.. محمر الوجه.. ملبد الشعر فوق رأسه.. فإذا به يرى من..**

**- عارف..!**

**صاح مأخوذا فى همس مكتوم يلتقط أنفاسه بصعوبة بالغة وضغط صدره فى صدر صديقه.. كأنه لا يدرى ما يفعل فقال الآخر وهو يربت على ظهره بأنامله ويستمع بانتباه شديد إلى وقع أقدام الشرطيين التى كانت تدق أديم الشارع بالأحذية الثقيلة بعيدا عنهما:**

**- حمدا لله.. لقد إبتعدا..**

**وجلس سامح على الارض ليستريح من هذا العناء الذى تجشمه.. فركع عارف بجانبه ومر بيده عدة مرات فوق شعره وراح يتطلع اليه.. فبادله سامح نظراته وأخذ يتفحص وجهه وثيابة ويقول فى نفسه " لشد ما تغير " ثم تمتم وهو ينهض متألما:**

**- اننى على ما يرام الان..**

**سأله رفيقة وقد ناله بعض الخجل من نظراته المتاملة إخترقت ملابسه الرثة:**

**- هل أنت واثق..؟**

**ثم صمت لحظة واستدرك وهو يرفع رأس صديقه التى كانت قد إنحنت بغتة على صدره من فرط الاإهاق:**

**- اذن.. هيان بنا..**

**ودفعه صديقه للاأام وهو يهزه من كتفية لينشطة وأضاف:**

**- إنك قلت أنك على ما يرام فى حين أنك مرهق بشدة..!.. آه.. كم كان سباقا ممتازا.. لحسن الحظ لمحتك وانت تجرى امام الشرطى ففكرت بسرعة وانتظرتك على أمل أن تمر أمام هذا الباب وكنت انت عداء ممتازا لكن حظك كان أكثر إمتيازا لانه كان محتملا جدا ان تمر بعيدا عنى او تخترق الشارع الآخر!**

**غمغم سامح:**

**- لقد كنت فى غاية الرعب والإرهاق قبل ان أبدا الجرى.. آه.. رحم الله هذا الكهل التعس..**

**فقال عارف:**

**- رحم الله كل الناس.. لا يوجد حد للطاقة البشرية..**

**فأمن سامح على قولة بهزة من رأسه وقال:**

**- معك حق.. لا شك فى هذا..**

**واجتازا شارعا طويلا قبل ان يعرجا الى ذلك الشارع المزدحم الذى يقع البيت فى نهايته حينئذ توقف عارف فجأة وسأله:**

**- الى اين نحن ذاهبان ؟**

**فأجابه دون ابطاء:**

**- الى البيت طبعا..**

**ورمقه صديقه دون ان يتفوة بكلمة بنظرة حار هو طويلا فى إدراك معناها لكنها كانت على الاقل نظرة توحى بالحزن او الأسف لوقوع أمر ما.. فأمسكه بخوف من ذراعه وصاح به:**

**- ماذا حدث ؟ اوقع لامى شـ..**

**قطع سؤاله.. وابتلع ريقة فى مشقة ثم انطلق يجرى كالمخبول جزعا وهو يسمع وجيب قلبه الخافق الى البيت.. مصطدما دون قصد بالمارة الذين كانوا يتوقفون وينظرون اليه بغيظ وفضول فى صمت او يسبونه على إندفاعه الأعمى.. الى ان بلغ البيت ووقف ثمة يسترد أنفاسه واضعا يده بحركة لا إرادية تعودها فى موضع جيبة يلتمس المفتاح.. فامسكت يدة الفراغ وأكتشف فى تلك اللحظة فقط انه ترك المفتاح فى جيب سترته التى خلعوها عنه بالمستشفى والبسوة بدلا منها هذا الجلباب الابيض المميز للمرضى والخالى من أية جيوب.. والذى كان يجرى به بين الناس غير مدرك لخطورة ذلك.. فان من يراه سيعلم لتوه انه مريض هارب.**

**وبينما كان يفكر فى هذا الامر شعر ان قلبة قد جمد فى صدره إذ تناهى الى سمعه من داخل البيت رنين قبلة.. وفى أثر ذلك سمع وقع قدمين خفيفتين تطاردهما قدمان ثقيلتان.. فامتقع وجهه واتقدت عيناه غضبا ودمدم قائلا فى دهش وذهر:**

**- إنها تفر من رجل يحاول إنتهاك..آه..!**

**ثم تحول الى الباب فى فورة غضبة مزمعا ان يدفعة بكل خلايا جسده لينفتح لكن حدث فى تلك الآونة ان صك أذنيه صوت الرجل بالداخل يغمغم:**

**- راشيل.. راشيل.. يا حبيبتى.. إنى سعيد بمجيئنا الى هذا البيت.. سعيد بك اكثر..**

**فتسمرت أقدامه بالأرض وبرزت عيناه من محجريها ذهولا ورعبا وتساءل ليطمئن نفسه " راشيل "..؟ أتكون أمى قد أجرت البيت لعروسين يهوديين ؟ ثم رن فى أذنيه صوت راشيل وهى تهمس:**

**- انت حياتى يا ادلف.. انت سعادتى وحياتى..**

**وانفجر فى ذهنه فجأة خاطر رهيب وقف له شعر رأسه لما استبعد ان تكون امه قد قامت بتأجير المنزل.. فضرب الجدار برأسه وأخذ يصيح كالمحموم:**

**- مستحيل.. كابوس.. كابوس..**

**ثم ركع وعقد يدية فوق صدره وهتف من أعماق قلبه:**

**- رب.. اكتب لامى السلامة فى كل لحظة.. واغدق عليها الرحمة.. وامنحها نصيبى من الامن والطمأنينية فى تلك الحياة.. لا... لا... امنحها نصيبها هى.. فأنا.. انا..**

**ولم يستطع ان يكمل دعاءه فانفجر منهارا بالدموع ثم فكر ان يتحقق اكثر من صدق هذا الإكتشاف المرعب فوثب ليطرق باب الجارة زينا.. لكنه قبل ان يلمس الباب بأنامله المرتجفة سمع صوتا من النافذة التى تعلوه يسأله بلكنة عربية " ماذا تريد يا فتى " ورفع رأسه ليرى إمراة شمطاء مبهوتة الشعر تبدو كأنها إحدى البغايا.. وكان يكفيه ذلك دليلا فنكس راسه على صدرة وارتد الى بيته.. او بمعنى أدق الى ما كان بيتة مواصلا جهيشه.. وراح يستعرض ذكرياته فاستحال ألمه حقدا وموجدة وهتف:**

**- مستحيل.. كابوس.. أوهام.. أوهام..**

**وحانت منه إلتفاته الى البيت المقابل فرأى شابا ذهبى الشعر يطل من شرفته بدلا من الكهل ملتقط الاطفال اليتامى الذى يعرفه.. فواصل هتافة وهو يمزق صدرة باظافرة قائلا:**

**- حلم فظيع.. انى أقرر ذلك.. أجل حلم..**

**والقى بنفسه على الارض وعاد الى البكاء المر وهو يغمغم:**

**- انتهى كل شىء.. فالويل لى.. لن أراها بعد اليوم.. حملوها قسرا الى أحد المخيمات بالقطع.. لم أكن افكر تفكيرا سليما.. كان يجب ان اهرب منذ وقت طويل.. تركتها لهم.. تركتها وحدها.. آه.. انا جبان..**

**وراح يضرب الجدار برأسه ويصيح:**

**- نعم.. جبان.. جبان..**

**الى ان فقد رشده...**

**- 27 -**

**دعا الشتاء الرياح العكسية لزيارة مفاجئة للمدينة فجاءت على عجل تهدر وتعوى وتهدد خلق الله من فوق الأشجار والجدران.. ثم ما لبث ان جاء رفيقتها البرد فى أعقابها يصفع كل ما يقابله فى وابل عنيف.. فتحطمت الألواح وأرخت الاشجار سواعدها مسقطة عنها أفراخ الطيور الوليدة.. واحتدم غضب السحب فتجمعت وابرقت وارعدت وارسلت صاعقة على طفل صغير يبكى فى الخلاء وحيدا.. ثم تجشأت سيول المطر.. حين ثاب فتى يدعى سامح الى رشده.. وهب مذعورا يركض هائما على وجهه فى الطرقات دون ان يبالى بالمطر المتساقط الذى اغرق جلبابه الابيض الخفيف فالتصق بجسدة الذى طالما عذبه وجوده.. وطالما حلم بماء ربانى يغسل أدرانه ويطهره.. وها هو الحلم المنشود قد صار حقيقة واقعة فكيف يحرم منه نفسه ويهرع كما يفعل الناس الى بيوتهم إلتماسا للدفء والحماية.. واين هو هذا البيت أصلا ؟.. انه اذن ابن المدينة.. ابن الشارع.. ابن الشوارع.. ابن الغيث.. ابن الطبيعة.. ابن الحرية.. فليشهق باكيا حتى تتقطع منه الانفاس وليغص فى الوحل حذاؤه.. فانه لن يتريث ليلتقطة.. ماذا تفيد الاحذية.. ؟ وانت ايتها الرياح القاسية.. ويا هذا البرد الغاضب اصفعا وجهه.. انه لم يعد يحس بشىء بعدما فقد امه وبيته ومدرسته.. وفقد ايضا قدرته على التفكير فيما كان وما هو كائن وما سيكون.. أقدامه هى التى لم تفقد قدرتها على الحركة فقط..إ.. إنه يجرى.. واطراف جلبابه الجوعى تنهش مائدة الوحل الدسمة.. إنه لا أحد غير وغير هذا الكلب الذى وثب من إحدى الزوايا ليجرى خلفة ويبصبص له بذيلة لاهثا يحييه تحية حيوان.. لحيوان.. يتعرضان لظروف قاسية واحدة.. لا احد غيرهما فى الشوارع.. فلم لا يتصادقان وفى اعماقهما بذور للتوافق متشابهة..**

**- سامح.. سامح أيها الصديق.. انتظر لا تجر اريد ان اقول لك كلمة ألا تعرفنى.. ؟ انا صديقك عارف لماذا غبت عنى كل هذا الوقت.. ؟ كنت انتظر اوبتك.. اذن فقد عرفت كل شىء.. سامح الا تسمعنى؟.. تجرى فقط.. وتجعلنى ألهث الى جوارك.. يا الهى اين انت ذاهب.. لا اخالك تذهب بقدميك الى تلك الإصلاحية اللعينة..**

**- ها... ها....**

**- سامح.. اسمعنى فقط.. اريد ان عقد معك اتفاقا.. لا... بل اريك اخبارك بأمر هام.. توقف فقط.. اتسمعنى..؟**

**- ها.. ها...**

**- سامح.. اسمعنى فقط.. اريد ان اعقد معك اتفاقا.. لا.. بل اريد اخبارك بامر هام.. توقف فقط.. اتسمعنى..**

**- ها... ها...**

**- سامح.. ايها الرفيق العزيز.. لماذا لا تقول شيئا.. تضحك فقط..**

**- ها.. ها..**

**- سامح.. لقد ادركت كل شىء.. عرفت من انا وماذا اكون ؟ استيقظت.. لن اعود الى التسول فى الطرقات سائلا الاقوام المرحين حسنة سيئة..**

**- ها.. ها..**

**- سامح يا رفيقى.. توقف.. رباه.. انك تبتعد عنى.. ستندم حياتك كلها ان ذهبت عنى ضاحكا..**

**- ها.. ها..**

**- انا رفيقك عارف.. انا التلميذ الاول بالمدرسة فى العام الماضى.. أتذكر ؟**

**- ها.. ها..**

**- سامح.. انفاسى ضافت.. انى الهث.. لم اعد استطيع ملاحقتك.. قد تصمغت أقدامى بالارض.. سامح عد الى.. قد عرفت الطريق الصحيح.. الطريق الذى يؤدى الى التلال خارج المدينة.. عد الى نذهب معا.. هناك بعض الاخوان.. ينتظرونا.. هناك سنصرخ غضبا حتى تتجاوب أصداء صراخنا فى جنبات الأرض.. سامح.. عد الى.. عد.. يا الهى لا فائدة.. يخيل الى انك مسير بإرداة ما الى تلك الإصلاحية اللعينة.. لم تعد تطيق صبرا.. تريد حقك سريعا.. مع انهم قد يزهقون روحك.. يا الهى.. إبتعد.. إبتعد ضاحكا.. قد جن جنونه.. لم أعد أراه.. يلاحقه كلب..!**

**\*\*\***

**ومازالت الريح العكسية تهدر وتعوى وتهدد خلق الله فوق الاشجار والجدران ورفيقها البرد يصفع كل ما يقابلة فى وابل عنيف.. والالواح تتحطم.. والاشجار ترخى سواعدها مسقطة افراخ الطيور.. والسحب يحتدم غضبها فتتجمع وتبرق وترعد مرسلة صاعقة على طفل صغير يبكى فى الخلاء وحيدا.. ثم تتجشأ سيول المطر ووجد الفتى نفسه يدفع بابا ويدخل ليرى أنثى جالسة جلستها الأبدية مع أشغال الإبرة الأبدية أنثى بيضاء الوجه.. صفراء الشعر.. صفراء الأعين.. صفراء البسمات.. أصفر لون الصوف الذى تنسجه بين أناملها الوردية.. والتى ما ان وقع بصرها عليه حتى إنتفضت مأخوذة بالجزع والفضول وسألته:**

**- كيف هربت من المستشفى ؟ كيف تسنى لك ان تهرب ؟ ولماذ جئت هنا ؟ نحن لم نعد بحاجة اليك.. عد من حيث أتيت..**

**فانهمرت الدموع من عينية من شدة الغيظ والحقد والغضب.. ومضى يخترق الردهة غير مبال بتلك الانثى آخذا طريقه الى باب يقبع خلفها.. فحالت بينه وبين ذلك ودفعته فى صدرة بعيدا وهى تصرخ فى وجهه:**

**- اتظن انك تستطيع معاودة تمرين عضلاتك ؟ ماذا تظن نفسك ؟ ايها المغرور المتعالى..**

**فتجاهل صراخها وعاود الكرة محاولا اقتحام الباب.. فدفعته دفعة اخرى أعنف وتعالى صياحها:**

**- ايها المجنون.. انك ترمى الى تمويتنا غيظا.. ساقتلك ان اقتربت من هذا الباب..**

**والتفت الفتى الى الباب الخارجى الذى كان قد انصفق بفعل الرياح وهو ينفتح رويدا مصدرا صريرا اخاذا ليرى الكلب الذى كان يتابعه.. يطل برأسه كانما يستأذن فى الدخول.. حينئذ إفتر ثغرة عن إبتسامة هائلة واعتمل فى قلبة الحب والتقدير لهذا الصديق الوفى الذى تعرف عليه حديثا.. وغامرته نشوة اشعت فى راسه نورا غامرا.. فقرر ان يحاول الدخول من هذا الباب مرة ثالثة ولتمت تلك الانثى بغيظها وإذ هو يخطو اليه تنمرت هى له ثم قفزت أمامه بحركة فجائية قفزة حانقة وأنشبت أظافرها فى عنقة تريد**

**خنقة.. فاهتاج وقبض بيدية على معصميها قبضة قوية انغرست اناملة لعنفها فى لحمها الذى يضاهى نعومة الخز.. فاوجعها وافلتت عنقة وهى تعوى وتهذى.. وما هو الا ان استرد انفساسه اللاهثة والقى نظرة الى الكلب الذى كان قد دخل ووقف بالقرب من الباب يرقب ما يدور امامه كانما يفكر فيما اذا كان من واجبه ان يتدخل.. ومرة ثانية اعتملت فى فؤادة كافة المشاعر النبيلة لهذا الصديق الوفى الذى تعرف إليه حديثا وخامرته تلك النشوة واشع هذا النور فى رأسه.. وتحرك قاصدا الباب فانقدح الشرر من عينى المراة وطاش صوابها فانقضت عليه وطرحته على ظهرة ارضا.. فى هذا الوضع المخل بالشرف ان لم يكن هناك رباط مقدس.. ثم رمت بنفسها فوقة.. واعيلت فيه اظفارها واسنانها.. فصرخ بالكلب لدهشته وذعره مستجيرا:**

**- الحقنى يا صديقى..**

**وكأنه محض خيال ما حدث.. اذ لبى الحيوان الاعجم نداءه.. فنبح نباحا غضوبا.. ثم وثب على ظهر الانثى من الخلف وغرس فى مؤخرتها مخالبه القاسية ممزقا ثوبها.. وما تحت ثوبها حتى بانت من خلال المزوق طلائع اللحم الابيض.. فصرخت صرخة مروعة وانكمشت رعبا وهى ترتد للوراء فى انتفاضة متكررة.. اختل لها توازنها فانقلبت على ظهرها.. وتغير الوضع الى النقبض تماما.. ها هو سامح ينتصب على قدمية فى جنون.. ثم ها هو يرمى بنفسه فوقها ليأخذ هو دوره فى نشب الاظافر.. وتأخذ هى دورها فى الانسداح على الظهر.. فى هذا الوضع المخل بالشرف ان لم يكن هناك رباط مقدس.. ثم ها هو يتذكر تلك النظرة الزجاجية التى رمته بها حين كان الشاب يفترسه.. فمضى يمزق عنها ثوبها.. ويمزق صدرها ونهديها بأظافرة ويتوعد الشياطين كأن به مس من الجنون ويصيح:**

**- انا انا.... أنا انا.......**

**وكان الكلب يشاركة الغرس والتمزيق.. الى ان تحولت اثوابها كلها الى نتف صغيرة.. ملقاه هنا وهناك فى ارجاء الردهة.. وتعرت تماما.. وغامت نظراتها.. وتملكتها مشاعر الرعب.. ومزيج من المهانة والابتئاس.. فجعلت تصرخ وخرجت صرخاتها همهمه مبحوحة مكتومة.. واستسلمت خائرة القوى لنظرات الفتى والكلب التى راحت تلهب جسدها العارى الدامى.. بخليط من التشفى والإنبهار بالمفاتن الخلابة التى راحت تزلزل اعماقها موقظة غزائر لم تنضج فى احدهما بعد.. وكانت فى الآخر ناضجة الى حد كان ينذر بوقوع.. أمر مروع.. حال بينه وبين التحقيق حيرة هذا الآخر من إختلاف النوع.. وان كان يدرك غريزيا هذا التماثل التام الذى رأه يجمع بين تلك الانثى وبين اناث اخريات عرف طريقة اليهن فى الطرقات والخرائب.**

**\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\***

**ومازالت الريح العكسية تهدر وتعوى وتهدد خلق الله فوق الاشجار والجدران.. ورفيقها البرد يصفع كل ما يقابله فى وابل عنيف.. والالواح تتحطم الاشجار ترخى سواعدها مسقطة افراح الطيور.. والسحب يحتدم غضبها فتتجمع وتبرق وترعد مرسلة صاعقة على طفل صغير يبكى فى الخلاء وحيدا.. ثم تتجشأ سيول المطر..**

**وكأن سامحا قد ادرك ما يفكر فيه الحيوان وهو يدور حول جسد الانثى التى راحت ترقب تحركاته حولها وهو يزوم ويسيل لعابه على شدقية فى هلع يحدثها قلبها المخلوع بما يفكر فيه.. فأسرعت تستر عرى جسدها بيديها اللتين تحيرتا فيمن يكون له الأولوية فى الاخفاء عن الاعين.. فراحتا تتخبطان بين اجزاء هذا الجسد العاتى الشامخ الذى ذل وانسحق غروره.. مما اهاب بالفتى ان يسارع بانتهار الحيوان وبإبعادة عنها.. مفهما إياه انه حتى للإنتقام من هؤلاء الاوغاد الذين سلبوا منه كل شىء أرضع المنزوعة السلاح وحدوده التى ينبغى ان يؤمنها بنفسه وبدا له ان الحيوان قد تغيظ منه لإحالته بينه وبين تلك الانثى الناعمة المترعة بالمفاتن التى تجندل اعماقه حيث كشر له عن انيابة وبات وشيكا انه سينقض عليه فى عماية غرائزه السائلة على شدقية.. فتقهقر الى الحائط مذعورا حتى اصطدم ظهرة به وتعطلت حركته لما رفع الحيوان قدمية الاماميتين ودفعهما فى صدرة مبقيا اياه فى حالة شلل تام.. وهو يزمجر فيه ويبعث اليه من عينية شررا ملتهبا.. دون ان يفعل اكثر من هذا فاستسلم له سامح وابتسم ابتسامة ساخرة عندما حانت منه التفاته الى المراة المطروحة على الارض.. مقارنا بين ما كان يفكر فيه وما انتهى اليه الحال من تعطيل الحيوان من حركته وكانه هو الذى يمنعه من اتيان هذه الفعلة الشنعاء.**

**واستمر هذا الوضع وقتا ليس بالقصير.. حين تناهى الى سمع ثلاثتهما اصوات غليظة يقترب اصحابها من المكان.. صاحت المراة صيحة استغاثة.. ودمدم الفتى بالغضب من رؤيته الغرض الذى جاء من اجله فى هذا المكان يوشك الا يتحقق.. وفى ذات الوقت اهتاج الحيوان لدى سماعه تلك الاصوات.. ففك اسرة.. ثم انطلق خارجا يقصد مهاجمة هؤلاء الاشخاص.. وعلى الفور هرول سامح مخترقا الباب واندفع من خلال الباب الثانى الى تلك الغرفة المظلمة الاركان الا من حزم متراصة من الضوء تنحدر فى استقامة من تلك الكوة قرب السقف.. ووجد المطرقة وقطعة الحديد على الوضع الذى تركه عليهما.. وفى الحال التقط المطرقة ثم هوى بها على قطعة الحديد وهو يزمجر صارخا:**

**- المعلم نور الدين الظواهرى هو الذى بنى بيتنا..**

**وانفصل عما يدور بالخارج كلية إذ والى الطرق والصراخ مرددا مقولته العزيزة وهو يشعر انه مع كل طرقة وكل صرخه يستعيد لروحه شيئا ضائعا وما هو الا ان رأى دون ان يتوقف – الشاب الذى اغتصبه والمهندس... " الون " يدخلان عليه مهاجمين اياه فى محاولة لانتزاع المطرقة منه.. فالتصق بالحائط ولوح لهما بالمطرقة مهددا ولا زال يصرخ:**

**- المعلم نور الدين الظواهرى هو الذى بنى بيتنا..**

**اما الآخران فلم يأبها لتهديداته ووثبا عليه كل من جانب ثم قبضا على ذراعيه قبل أن تهبط المطرقة على رأس احدهما.. وأسرع أحدهما باختطافها من يديه وألقاها بعيدا فاصطدمت بالجدار وهوت إلى الأرض.. على حين أسرع الآخر بشل حركته ولف ذراعيه حوله ثم حمله حملا.. قاصدا به الخروج من الغرفة.. وهو يتلوى ويدفع ساقية فى مختلف الاتجاهات.. محاولا التملص منه مردا:**

**- المعلم نور الدين الظواهرى هو الذى..**

**وأسكتت صوته دفعة واحدة ضربة من قبضة يد لطمه بها الثانى على أم رأسه وهو يقول:**

**- نور الدين الظواهرى من يابن العاهرة ؟!.. ستعلم حالا من الذى بنى بيتكم القذر!**

**وكانت الضربة من العنف بحيث افقدته وعيه فاستلانت عضلاته وأرخى ساعديه وتدلت رأسه.. على حين كانت الريح العكسية تهدر وتعرى وتهدد خلق الله من فوق الأشجار والجدران..**

**\*\*\*\*\*\*\*\*\***

**وبعد ثوان قليلة دخلا به الغرفة المقابلة التى لم يكتب له اى يرى ما فيها ابدا.. ولو انه كان فى تمام وعية لرأى انهما قد خلعا عنه ثيابة تماما.. ثم ارقداه على ظهره فوق منضدة طويلة من الحديد المثلوج.. ودفعا برأسه داخل نطاق مثبت على الجانب القصير من المنضدة – والذى يمكن فتحه وغلقة بتحريك حزام جلدى مرن فى الجهة العلوية منه واحكما اغلاق هذا النطاق بقفل حول عنقه.. وفعلا نفس الشىء مع يدية وقدميه اذا كانت هناك اربعة نطاقات اخرى اثنان منها على الجانبين واثنان اخران فى الجانب المقابل للرأس عند القدمين.. وبهذا شلا حركته كلية..**

**ثم لو انه كان فى تمام وعية لرأى ان احدهما قد إستدار الى آلة يبدو وانها تتحرك على محور طولى بامتداد المنضدة.. وتتكون اساسا من جزئين.. الاول يشبة الالة الكاتبة فهو يحتوى على عدة صفوف من الحروف الابجدية.. وهذا اهم ما فيه.. والثانى يشبة الى حد كبير ماكينة الحياكة بكل اجزائها وطريقة عملها.. الا انه بدلا من الابرة فى المقدمة يوجد اصبح من الفولاذ مدبب القمة بميول مستديرة يشبه بالضبط اصبع احمر الشفاة فى حجمة وهيئتة.. وقام بتنظيم حركة حروف بعينها منها مع إبطال حركة حروف اخرى بواسطة جهاز منظم فى احد جوانب الجزء الذى يشبة الاله الكاتبة.. وحين تم له ماأراد بالتحديد.. أشار بحركة من رأسه الى زميله بان يقوم بتشغيل الآلة.. التى ما ان قام هذا بتوصيل دائرتها الكهربائية حتى تحركت أجزاءها وبدات حوامل الحروف تتحرك هبوطا وصعودا حول محور رأسى.. ثم الأهم من ذلك بدات الالة هذا الجزء الذى يشبه ماكينة الحياكة تتقدم للامام متحركة على المحور الطولى حركة بطيئة منتظمة.. نحو جسد الفتى.. وفى مقدمتها تتحرك " صعودا وهبوطا " هذا الاصبع الفولاذى.**

**وحينما اصبحت الالة فوق صدرة تماما.. اصدرت صوتا يشبه الانذار.. ثم بدأت تهبط الى اسفل متحركة فى ذات الوقت الى اليمين عند اول كتفة.. وفى تلك اللحظة كانت الطاقة الكهربائية قد تحولت فيما يبدوا الى طاقة حرارية فى هذا الاصبع الذى احمر من شدة حرارته.. وما هو الا ان إنغرس فى لحمة " صعودا وهبوطا " بعمق نحو سنتيمتر وعلى الفور اندلع صوت يشبة صوت " السمن " المغلى حين ينثر على سطحة بعض رذاذ الماء وتصاعدت ابخرة وروائح اللحم المحترق.. الذى كان الاصبع يعربد فيه متحركا باتساع الصدر الى الجانب الايسر.. وحين يضع نهاية هذا السطر تراجع الى الخلف مقدار بوصة.. ثم وثب الى اليمين ليبدا السطر الثانى.. وهنا برزت على السطر الاول الكتابة الغائرة فى لحم الفتى.. واقترب منه الرجلان فى توقيت واحد ليقرآ تلك العبارة " المهندس الون هو الذى بنا بيتنا " فاطمئنا الى ان الآله تعمل بدقة وانتظام وتبادلا نظرة تفاهم وارتياح ثم خرجا من الغرفة.. واغلقاها خلفهما فى هدوء وهنا يصغيان الى صوت الالة التى راحت تكتب وتطرز جسد الفتى بينما كانت الريح العكسية تهدد وتعوى وتهدد خلف الله من فوق الاشجار والجدران..**

**\*\*\*\*\***

**كانت المرأة فى الردهة قد استغلت الوقت الذى انشغل فيه الرجلان بامر الصبى فى اصلاح شأنها.. فطهرت جراحها ثم ارتدت ثوبا اخر ونسقت شعرها ونثرت بعض الذرور على وجهها لتخفى معالم التشوية الذى ناله من الاظافر.. وحين تم لها ذلك على وجه مرض.. جلست على مقعدها تنتظر أوبة الرجلين وتسلى نفسها باشغال الابرة الى ان عادا اليها.. عندئذ.. اقترحت عليهما ان يشربوا كأسا من البراندى تحية لتلك المناسبة السارة التى تخلصوا فيها نهائيا من متاعب هذا الفتى العنيد.. فرحب الاثنان باقتراحها وهما يقعان بالضحك ويرعدان.. بنشوة الانتصار.. وانخرط ثلاثتهم فى تجرع الكئوس وتبادل الانخاب.. ومداعبة بعضهم البعض.. مداعبات لم تكن تخلو من عبث ومجون.. وهم يصغون فى الوقت ذاته لهدير الالة الذى بدا لهم جميلا يشئف الآذان.. الى أن سمعوا فجأة صوت طرقعة عالية صادرة من الغرفة.. وادركوا ان الالة قد انتهت لتوها من تطريز جسد الفتى حينئذ قام الرجلان فى تثاقل وتجرعا النخب الاخير.. ثم تسايرا نحو باب الغرفة وتعازما امامه ايهما يدخل اولا.. وبعد ان ازعن احدهما لالحاق الاخر دخلا الغرفة وراحا يطعلان ويمسحان الادمع التى فرت من اعينهما من فعل الابحرة ورائحة اللحم الشائط التى تشبة رائحة الكاوتشوك المحترق.. والتى تشبع بها جو الحجرة.. وهما يسبان الفتى وايامة بأقذع سباب.. وفى خلال ذلك فصل احدهما الدائرة الكهربية فتوقف ازيز الالة وتوقفت ايضا حركتها قبلما تتجه بها نحو ذلك الجسد لاعادة الكرة.. وتقدم الثانى الى الصبى وشمل جسدة بنظرة واحدة.. متأملا السطور الغائرة فى لحمة المتهرىء بتلك الكلمات عن ذلك المهندس الذى بنى هذا البيت.. ثم اطلق ضحكة منتشية.. والصق اذنه على صدرة برهة دون ان يلمسه قائلا:**

**- انه لم يعد يتنفس.. لكن قلبة مازال ينبض..**

**- ارنى هكذا..**

**والصق الثانى اذنه ثم اعتدل قائلا بدوره:**

**- معك حق.. مازال قلبة ينبض.. كما لو كان يرفض هزيمته..هه..! هذا.. الاحمق..!**

**فقال الاول:**

**- وماذا سنفعل بعد كل هذا ؟.. رباه.. فى جسد هذا الفتى قوة غريبة لا تتفق ونحوله..!**

**وباستخفاف هز الثانى كتفية قائلا:**

**- عندى الحل.. هيا بنا نحمله.. أو.. ساحمله انا واخرج به.. ثم الحق بى انت حاملا هذا الحجر القابع هناك بعد ان تربط به تلك السلسلة التى كانت يوما لكلب..!**

**قال ذلك ثم فكه من اسره وحمله على ظهرة كالحمل وخرج به.. وبعد لحظات لحق به زميله حاملا هذا الحجر وتلك السلسلة التى كانت يوما لكلب.. وسارا بجوار بعضهما يتبادلان الفكاهات فاخترقا اشجار الغابة فى اتجاه عمودى على الطريق.. تاركين خلفهما تلك المرأة واقفة بباب " اصلاحية المتفوقين الاسرائليين العرب " تنظر الى المنظر المبهج امامها بغبطة.. وارتياح.. وترقب اختفاء الرجلين عن ناظريها وهما يغزان السير بين الاشجار.. التى لازالت الريح العكسية تقصف فوقها وتهدد وتلقى بافراح الطيور الوليدة على جسد الفتى وقد ارخت الاشجار سواعدها منحنية ما وسعها الانحناء.. كانما تريد ان تربت على ظهره الصغير العارى.. مطيبة خاطره..**

**خاتمة**

**فى فجر احد الايام التالية.. دوت الانفجارات بالاصلاحية.. اصلاحية المتفوقين الاسرائليين العرب.. وعلى مقربة من السنه النيران واعمدة الدخان وركام الجدران.. برزت سارة " كالجنية ".. من احد المخابى الارضية.. وراحت تجرى وقد تطاير شعرها.. صوب الطريق المؤدية الى المدينة.. ثم بغته تسمرت اقدامها بالارض.. اذ وقع فى وهمها – على ما يبدو – ان صوتا تصاعد من الناحية الاخرى من الطريق قائلا:**

**- سامح حى.. سامح حى.. سامح حى..!**

**وروعها الصوت.. فتقهقرت بحركة فجائية اختل لها توازنها.. فوقعت على ظهرها.. ثم اعتدلت بسرعة.. واندفعت بين الاشجار.. تعدو دون وعى الى البحر.. حيث هناك تضاعف رعبها.. اذ سمعت نفس الصوت يتردد مع خشخشة الاغصان خلفها.. وهدير الامواج امامها.**

**تمت بحمد الله**

**محمد بهاء الدين**